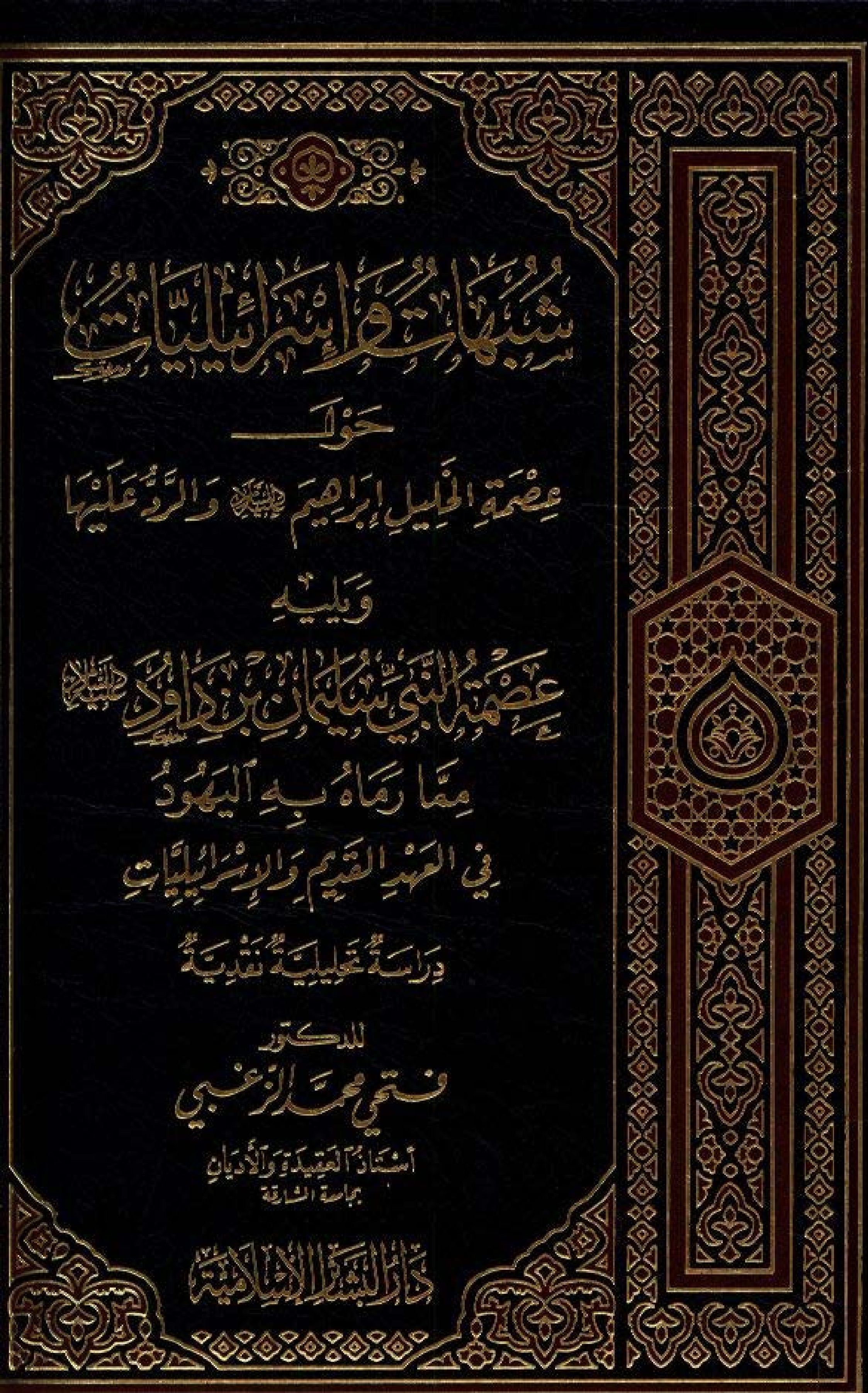
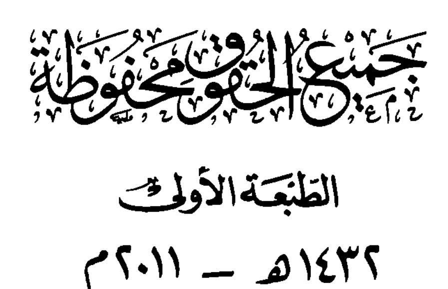

شبهات وإسرائيليات
حول
عصمة الخليل إبراهيم عليه السلام والرد عليها
ويليه
عصمة النبي سليمان بن داود عليه السلام
مما رماه به اليهود
في العهد القديم والإسرائيليات
دراسة تحليلية نقدية
للدكتور
فتحي محمد الزغبي
أستاذ العقيدة والأديان
بجامعة الشارقة
دار البشائر الإسلامية


شبهات وإسرائيليات
حول
عصمة الخليل إبراهيم عليه السلام والرد عليها



الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

شركة دار البشائر الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م
أسسها الشيخ رمزي دمشقية رحمه الله تعالى سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
بيروت - لبنان ص.ب: ١٤/٥٩٥٥ هاتف: ٧٠٢٨٥٧
فاكس: ٠٠٩٦١١/٧٠٤٩٦٣
website: www. dar-albashaer.com
email: info@dar-albashaer.com \ bashaer@cyberia.net.lb

شبهات وإسرائيليات

حول

عصمة الخليل إبراهيم عليه السلام والرد عليها

دراسة تحليلية نقدية

للدكتور

فتحي محمد الزغبي

أستاذ العقيدة والأديان

بجامعة الشارقة





الإهـــداء

يشرِّفني أن أهدي هذا الكتاب، إلى روح أستاذي ومعلِّمي وشيخي:

فضيلة الأستاذ الدكتور: يحيى هاشم حسن فرغل

عميد كلية أصول الين جامعة الأزهر فرع طنطا،

رئيس قسم الدراسات الإسلامية بجامعة الإمارات بالعين سابقاً

فقد شُرِّفت بالتلمذة على فضيلته في مرحلة الإجازة العالية (الليسانس)، وأكرمني الله تعالى بإشرافه عليَّ في رسالتي (الماجستير والدكتوراه)، فغمرني بحبه، وأحاطني برعايته، وفتح لي قلبه وبيته، وأفسح لي صدره، وأفاض عليَّ من علمه وخُلُقه، فتعلَّمت منه الكثير، ونهلت من علمه الغزير، وكان لتوجيهاته الرشيدة ونصائحه السديدة ـ بعد فضل العلي الكبير ـ الفضل الكبير.

أسأل الله ﷻ أن يرحمه رحمة واسعة، ويسكنه فسيح جناته، وأن يجعل كل ما قدَّمه للإسلام والمسلمين، وللعلم وطلابه، في ميزان حسناته، وصحائف أعماله، يوم الدين، إنه نعم المولى ونعم النصير.

المؤلف

فتحي محمد الزغبي


http://kotob.has.it

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أفضل الخلق أجمعين، سيدنا محمد، وعلى جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين.

أما بعد:

فإن هذا البحثَ يأتي ضمن السلسلة التي سبق أن وعدت بها، وأزمعتُ على تحقيقها[1]، والتي تتعلق بالحديث عن تنزيه أنبياء الله الأطهار، وتبرئة ساحتهم، وبيان عصمتهم مما لحق بسيرتهم، وعلق بتاريخهم، سواء كان هذا من الافتراءات والأكاذيب التي دوّنها اليهود في أسفارهم، أو كان من الأساطير والخرافات التي وردت عنهم فيما يُعرف بالإسرائيليات.

وهذا البحث يتعلق بسيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، والذي هو نبيٌّ مصطفى من أنبياء الله المصطفين الأخيار، ورسول مطهَّر من رسله الكرام الأبرار، حيث أوحى الله إليه من نوره، وأنعم عليه بالخِلَّة والاجتباء.

يقول تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

---

(١) صدر للمؤلف في هذا الصدد كتاب: «تنزيه نبي الله داود عن أكاذيب ومفتريات اليهود في العهد القديم والإسرائيليات»، الطبعة الأولى ١٩٩١هـ، والطبعة الثانية، دار البشائر الإسلامية، بيروت ٢٠١١م.
و«عصمة النبي سليمان عليه السلام بين العهد القديم والقرآن الكريم، درء شبهات ودحض مفتريات»، وكتاب «قصة الذبيح عند أهل الكتاب والمسلمين»، دار البشير، الطبعة الأولى ١٩٩٤م، والطبعة الثانية، دار البشائر الإسلامية، بيروت ٢٠١١م.

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١].

وهو أبو الأنبياء، وشيخ المرسلين، حيث انتسب إليه، وتناسل منه، وصدر عنه كثير من الأنبياء والمرسلين، فلم يبعث الله ﷻ نبياً أو رسولاً من بعده إلا جاء من ذريته، فسيدنا محمد ﷺ من ولد ابنه الأكبر سيدنا إسماعيل عليه السلام، وأنبياء بني إسرائيل كلهم من ذرية سيدنا إسحاق عليه السلام، وهو ابنه الأصغر، يقول تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

بيد أن المنكرين لعصمة الأنبياء والرسل قد ذهبوا إلى إنكار عصمة الخليل إبراهيم عليه السلام، وأوردوا بعض الشبهات التي احتجُّوا بها، واعتمدوا عليها فيما ذهبوا إليه.

وتتلخص هذه الشبهات فيما يلي:

تدور **الشبهة الأولى** حول فهمهم لقوله تعالى حكايةً عن الخليل عليه السلام: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ عن الكوكب والقمر، وقوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ﴾ عن الشمس [الأنعام: ٧٦ ـ ٧٨].

وتدور **الشبهة الثانية** حول تصورهم لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وتدور **الشبهة الثالثة** حول فهمهم لما ورد في السُّنة الصحيحة عن الخليل عليه السلام مما يعرف بـ«الكذبات الثلاث».

وتدور **الشبهة الرابعة** حول دعائه لأبيه رغم كفره: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦].

وفي هذا الكتاب سوف أقتصر على بحث كل ما يتعلق بالشبهات الثلاث، ومن خلال ثلاثة فصول، حيث أقوم بعرض الشبهات، وتحليل

ما ورد حولها، ثم أقوم بنقد ما ورد فيها نقداً موضوعياً، والرد عليها ردّاً علمياً، ملتزماً في ذلك بالمنهج العلمي الصحيح[1].

وأسأل الله سبحانه أن يتقبل مني هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم.

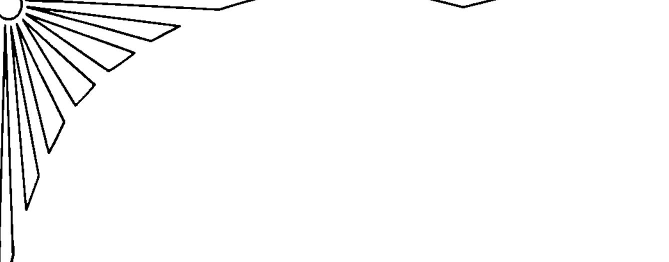
فتحي محمد الزغبي

الشارقة في يناير/ك٢ ٢٠١١م



(١) أقوم بعون الله وتوفيقه بكتابة مؤلف مطول بعنوان: «الخليل إبراهيم عليه السلام بين أهواء العهد القديم وحقائق القرآن الكريم».

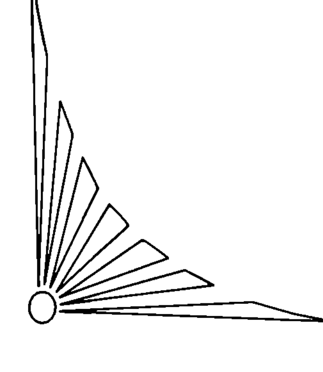




الفصل الأول

الشبهة الأولى

في فهم قول سيدنا إبراهيم: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ عن الكوكب والقمر والشمس



تمهيد

تتمثل هذه الشبهة التي تمسك بها النافون لعصمة سيدنا إبراهيم عليه السلام في قول الله تبارك وتعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٦ ـ ٧٨].

حيث تصوَّروا أن قوله عليه السلام: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ عن كل من الكوكب والقمر، وقوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ عن الشمس، مما يخل بعصمته، وينفيها عنه.

وقد صوّر الإمام الرازي هذه الشبهة فذكر أنهم قالوا: قوله تعالى حاكياً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ لا يخلو إما أن يقال، إنه قال هذا الكلام في النظر والاستدلال، أو بعده.

فإن كان الأول كان قطعه بذلك مع تجويزه أن يكون الأمر بخلافه إخباراً عما يجوز المخبر كونه كاذباً فيه، وذلك غير جائز.

وإن كان الثاني: كان ذلك كذباً قطعاً، بل كفراً قطعاً[1].

ولكي يتسنَّى لنا الرد على هذه الشبهة، ونقض دعوى القائلين بها، والمحتجين بها على نفي العصمة عن سيدنا الخليل إبراهيم عليه السلام، لا بد

---

(١) راجع كتابه: «عصمة الأنبياء» ص٢٨، سلسلة الثقافة الإسلامية ١٩٦٤م.

من إثبات أن فهمهم لقول إبراهيم عليه السلام: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ واستنباطهم منه ما زعموه لم يقم على أسس علمية.

وتقرير ذلك يكون من خلال عرض الآراء المختلفة التي تمثل ثلاثة اتجاهات في تفسير هذه الآيات القرآنية، وفي تحديد المراد والمقصود من قوله عليه السلام: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ على كل من الكوكب والقمر والشمس.

وتتمثل هذه الاتجاهات فيما يلي:



المبحث الأول

الاتجاه الأول في تفسير قوله تعالى: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾

قول الإمام الطبري ومن تابعه:

بعد أن أشار الحافظ ابن كثير إلى اختلاف المفسِّرين في المقام الذي قال فيه الخليل عليه السلام قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾: هل هو مقام نظر أو مناظرة، ذكر أن الإمام ابن جرير الطبري، قد روى من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ما يقتضي أنه مقام نظر، وإنه قد اختار هذا الرأي مستدلّاً عليه بقوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾، ومستشهداً بقول محمد بن إسحاق، الذي اشتمل على ذكر أشياء من خوارق العادات، والتي ذكرها أيضاً غيره من المفسِّرين من السلف والخلف[1].

وبالرجوع إلى كل من تفسير و«تاريخ الطبري»، تبين لنا أنه قد تحمَّس فعلاً لهذا القول، واستدل عليه، واستشهد بعدد من الروايات المختلفة في هذا الشأن، ناقلاً إياها عن كل من محمد بن إسحاق وقتادة والسدي وغيرهم.

حيث يقول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ يقول تعالى ذكره: فلما واراه الليل وجنَّه، أبصر كوكباً حين طلع، قال: هذا ربي.

---

(١) راجع: «تفسير القرآن العظيم» ٢/ ١٥١.

ثم أورد رواية عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ونصُّها كما يلي:

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥﴾؛ يعني به: الشمس والقمر والنجوم، ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ فعبده حتى غاب، فلما غاب ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ فعبده حتى غاب، فلما غاب قال: ﴿لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾، فعبدها حتى غابت، فلما غابت ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾.

ويقول الطبري أيضاً:

وكان سبب قيل إبراهيم بذلك ما حدثني به محمد بن حميد قال: ثنا سلمة بن الفضل قال: ثني محمد بن إسحاق فيما ذكرنا والله أعلم أن آزر كان رجلاً من أهل كوثي من ثرية بالسواد سواد الكوفة.

وكان إذ ذاك مُلك المشرق لنمرود بن كنعان، فلما أراد الله أن يبعث إبراهيم حجة على قومه، ورسولاً إلى عباده، ولم يكن فيما بين نوح وإبراهيم نبي إلا هود وصالح.

فلما تقارب زمان إبراهيم الذي أراد الله ما أراد، أتى أصحاب النجوم نمرود فقالوا له: تعلم أنا نجد في علمنا أن غلاماً يولد في قريتك هذه يقال له: إبراهيم، يفارق دينكم، ويكسر أوثانكم في شهر كذا وكذا، من سنة كذا وكذا.

فلما دخلت السنة التي وصف أصحاب النجوم لنمرود، بعث نمرود إلى كل امرأة حبلى بقريته، فحبسها عنده، إلا ما كان من أم إبراهيم امرأة آزر، فإنه لم يعلم حبلها، وذلك أنها كانت امرأة حدبة فيما يذكر لم يعرف الحبل في بطنها.

ولما أراد الله أن يبلغ بولدها أراد أن يقتل كل غلام ولد في ذلك الشهر من تلك السنة حذراً على ملكه، فجعل لا تلد امرأة غلاماً في ذلك الشهر من تلك السنة إلا أمر به فذُبح، فلما وجدت أم إبراهيم الطلق خرجت ليلاً إلى مغارة كانت قريباً منها، فولدت فيها إبراهيم، وأصلحت من شأنه ما يصنع مع المولود، ثم سدت عليه المغارة، ثم رجعت إلى بيتها، ثم كانت تطالعه في المغارة فتنظر ما فعل، فتجده حياً يمصُّ إبهامه ـ يزعمون والله أعلم أن الله جعل رزق إبراهيم فيها وما يجيئه من مصّه ـ.

وكان آزر ـ فيما يزعمون ـ سأل أم إبراهيم عن حملها ما فعل فقالت: ولدت غلاماً فمات فصدقها، فسكت عنها.

وكان اليوم ـ فيما يذكرون ـ على إبراهيم في الشباب كالشهر، والشهر كالسنة، فلم يلبث إبراهيم في المغارة إلا خمسة عشرة شهراً حتى قال لأمه: أخرجيني أنظر، فأخرجته عشاء، فنظر وتفكّر في خلق السماوات والأرض وقال: إن الذي خلقني ورزقني وأطعمني وسقاني لَرَبّي ما لي إله غيره، ثم نظر في السماء فرأى كوكباً قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، ثم اتبعه ينظر إليه ببصره حتى غاب، فلما أفل قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾، ثم اطلع للقمر فرآه بازغاً قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، ثم اتبعه ببصره حتى غاب، فلما أفل قال: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

فلما دخل عليه النهار، وطلعت الشمس أعْظَمَ الشمس، ورأى شيئاً هو أعظم نوراً من كل شيء رآه قبل ذلك، فقال: ﴿هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٨، ٧٩].

ثم رجع إبراهيم إلى أبيه آزر وقد استقامت وجهته، وعرف ربه،

وبرئ من دين قومه، إلا أنه لم يبادئهم بذلك وأخبر أنه ابنه، وأخبرته أم إبراهيم أنه ابنه، وأخبرته بما كانت صنعته من شأنه، فسُرّ بذلك آزر، وفرح فرحاً شديداً.

وكان آزر يصنع أصنام قومه التي يعبدونها ثم يعطيها إبراهيم يبيعها، فيذهب بها إبراهيم ـ فيما يذكرون ـ فيقول: من يشتري ما يضره ولا ينفعه، فلا يشتريها منه أحد، وإذا بارت عليه ذهب بها إلى نهر فضرب فيه رؤوسها، وقال: اشربي، استهزاء بقومه وما هم عليه من الضلالة حتى فشا عيبه إياها واستهزاؤه بها في قومه وأهل قريته من غير أن يكون ذلك بلغ نمرود الملك»[1].

ثم يذكر الطبري أنه قال في ذلك غير ابن إسحاق، ما حدثني موسى بن هارون قال: حدثنا عمرو بن حماد، قال: حدثنا أسباط عن السدي، في خبر ذكره عن أبي صالح، وعن أبي مالك عن ابن عباس، وعن مُرة الهمداني عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ قال: كان من شأن إبراهيم عليه السلام أن أول ملك ملَك في الأرض شرقها وغربها نمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح، وكانت الملوك الذين ملكوا الأرض كلها أربعة: نمرود بن كنعان، وسليمان بن داود، وذو القرنين، وبختنصر، مسلمَين وكافرَين، وأنه طلع كوكب على نمرود، ذهب بضوء الشمس والقمر، ففزع من ذلك، فدعا السحرة والكهنة والقافة والحازَّة فسألهم عنه فقالوا: يخرج من ملكك رجل يكون على وجهه هلاكك وهلاك ملكك، وكان مسكنه ببابل الكوفة، فخرج من قريته

(١) راجع: «جامع البيان في تفسير القرآن» ٧/ ١٦٢، ١٦٣، دار الريان للتراث، ودار الحديث بالقاهرة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م؛ و«تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك» ١/ ٢٣٤ ـ ٢٣٦، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، الطبعة الرابعة.

إلى قرية أخرى، وأخرج الرجال وترك النساء، وأمر أن لا يولد مولود ذكر إلا ذبحه، فذبح أولادهم.

ثم إنه بدت له حاجة في المدينة لم يأمن عليها إلا آزر أبا إبراهيم، فدعاه فأرسله فقال له: انظر لا تواقع أهلك، فقال له آزر: أنا أضن بديني من ذلك، فلما دخل القرية نظر إلى أهله فلم يملك نفسه أن وقع عليها، ففر بها إلى قرية بين الكوفة والبصرة يقال لها: أور، فجعلها في سرب، فكان يتعهدها بالطعام وما يصلحها، وأن الملك لما طال عليه الأمر قال: قول سحرة كذابين، ارجعوا إلى بلدكم، فرجعوا ووُلد إبراهيم، فكان في كل يوم يمر به كأنه جمعة، والجمعة كالشهر من سرعة شبابه، ونسي الملك ذاك وكبر إبراهيم، ولا يرى أن أحداً من الخلق غيره وغير أبيه وأمه.

فقال أبو إبراهيم لأصحابه: إن لي ابناً قد خبأته، أفتخافون عليه الملك إن أنا جئت به؟ قالوا: لا فأت به، فانطلق فأخرجه، فلما خرج الغلام من السرب نظر إلى الدواب والبهائم والخلق، فجعل يسأل أباه فيقول: ما هذا؟ فيخبره عن البعير أنه بعير، وعن البقرة أنها بقرة، وعن الفرس أنها فرس، وعن الشاة أنها شاة، فقال: ما لهؤلاء بد من أن يكون لهم رب.

وكان خروجه حين خرج من السرب بعد غروب الشمس، فرفع رأسه إلى السماء، فإذا هو بالكوكب وهو المشتري فقال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، فلم يلبث أن غاب قال: لا أحب ربّاً يغيب.

قال ابن عباس: وخرج في آخر الشهر فلذلك لم ير القمر قبل الكوكب، فلما كان آخر الليل رأى القمر بازغاً قد طلع قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ يقول: غاب ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

فلما أصبح رأى الشمس بازغة قال: ﴿هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

قال الله له: أسلم، قال: أسلمت لرب العالمين[1].

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في الآية قال:

ذكر لنا أن أبا إبراهيم عليه السلام فرّ به من جبار مترف، فجعل في سرب وجعل رزقه في أطرافه، فجعل لا يمص أصبعاً من أصابعه إلا جعل الله له فيها رزقاً، فلما خرج من ذلك السرب أراه الله ملكوت السماوات والأرض، وأراه شمساً وقمراً ونجوماً وسحاباً وخلقاً عظيماً، وأراه ملكوت الأرض فرأى جبالاً وبحوراً وأنهاراً وشجراً ومن كل الدواب وخلقاً عظيماً.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ ذكر لنا أن الكوكب الذي رأى الزهرة طلعت عشاء ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ علم أن ربه دائم لا يزول، ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ رأى خلقاً أكبر من الخلق الأول ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾﴾، ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾؛ أي: أكبر خلقاً من الخلقين الأولين وأبهى وأنور[2].

---

(١) راجع: «تاريخ الطبري» ١/٢٣٦، ٢٣٧؛ و«الدر المنثور في التفسير بالمأثور» للسيوطي ٧/٣٠٤، ٣٠٥؛ راجع أيضاً: «معالم التنزيل» للبغوي ٢/١٠٨ ـ ١١٠، دار المعرفة، بيروت.

(٢) راجع: «الدر المنثور» للسيوطي ٧/٣٠٣، ٣٠٤.

بطلان هذه الروايات من ناحية السند وبيان مصدرها

من الواضح أن هذه الروايات ـ التي اعتمد عليها الطبري ومن ذهب مذهبه ـ من ناحية السند لم تصل إلى درجة الصحة كما أوردها أصحابها، حيث إنها ترجع إلى كل من محمد بن إسحاق والسدي الصغير.

فأمّا محمد بن إسحاق، فإن الإمام الذهبي يذكر أنه قد أمسك عن الاحتجاج برواياته غير واحد من العلماء لأشياء، منها: تشيُّعه، ونسب إلى القدر، ويدلس في حديثه، وقال عنه أبو إسحاق الجوزجاني: ابن إسحاق، الناس يشتهون حديثه، وكان يرمى بغير نوع من البدع.

وقال يعقوب بن شيبة: سمعت ابن نمير، وذكر ابن إسحاق فقال: إذا حدث عمن سمع منه من المعروفين فهو حسن الحديث صدوق، وإنما أتي من أنه يحدث عن المجهولين أحاديث باطلة.

وقال عنه أبو داود: سمعت أحمد يقول: كان ابن إسحاق يشتهي الحديث فيأخذ كتب الناس فيضعها في كتبه.

وقال أحمد: قدم ابن إسحاق بغداد، فكان لا يبالي عمَّن يحكي، عن الكلبي وعن غيره، وقال: ليس هو بحجة.

ونقل الذهبي عن العقيلي عن يحيى بن سعيد قوله: حدثنا وهيب: سمعت هشام بن عروة يقول: ابن إسحاق كذاب، وقال علي بن عبد الله: كان يحيى بن سعيد لا يحدث عن ابن إسحاق شيئاً، كان يضعفه.

وينقل الذهبي أيضاً عن الفلاس قوله: سمعت يحيى يقول: قال رجل لابن إسحاق: كيف حديث شرحبيل بن سعد؟ ثم قال الفلاس: العجب من رجل يحدث عن أهل الكتاب، ويرغب عن شرحبيل.

وقال إبراهيم الحزامي: عن ابن أبي فديك قال: رأيت محمد بن إسحاق يكتب عن رجل من أهل الكتاب.

وعقَّب الذهبي على ذلك بقوله: هذا يشنع به على ابن إسحاق، ولا ريب أنه حمل ألواناً عن أهل الذمة مترخصاً بقوله ﷺ: **«حدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»**[١].

والخلاصة: أن ابن إسحاق كما قال أبو الحسن الدارقطني لا يحتج به، وليس هذا طعناً فيه من جميع جوانب حديثه، وإنما كما هو واضح من ترجمة الإمام الذهبي له أن له بعض المحاسن[٢]، إلا أن مساوئه تكمن في أنه يحدث كثيراً عن أهل الكتاب، ويأخذ عنهم، وينقل منهم.

وهذا هو ما يعنينا هنا بالدرجة الأولى.

ولذلك فإن الحافظ ابن كثير يذكر أن موعظة سيدنا إبراهيم عليه السلام في الكواكب كانت لأهل حران، فإنهم كانوا يعبدونها، وهذا يرد قول من زعم أنه قال هذا حين خرج من السرب لما كان صغيراً كما ذكره ابن إسحاق وغيره، وهو مستند إلى أخبار إسرائيلية لا يوثق بها، ولا سيما إذا خالفت الحق[٣].

هذا ما قاله ابن كثير عن ابن إسحاق بهذا الشأن في «تاريخه».

أما في «تفسيره»، فإنه يقول عن سيدنا إبراهيم عليه السلام: «وما يذكر من

---

(١) راجع: «فتح الباري» ٦/ ٥٧٢، والحديث رقم (٣٤٦١)، كتاب أحاديث الأنبياء.

(٢) ينقل الذهبي عن ابن عدي قوله: «لو لم يكن لابن إسحاق من الفضل إلا أنه صرف الملوك عن الاشتغال بكتب لا يحصل منها شيء إلا الاشتغال بمغازي رسول الله ﷺ ومبعثه ومبتدأ الخلق، لكانت هذه فضيلة سبق بها، ثم من بعده صنفها قوم آخرون فلم يبلغوا مبلغ ابن إسحاق منها».
راجع تفصيل الترجمة عنه في: «سير أعلام النبلاء» ٧/ ٣٣ ـ ٥٥، مؤسسة الرسالة ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

(٣) راجع: «البداية والنهاية» ١/ ١٣٥، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

الأخبار عنه في إدخال أبيه له في السرب وهو رضيع، وأنه خرج بعد أيام فنظر إلى الكوكب والمخلوقات فتبصَّر فيها، وما قصه كثير من المفسرين وغيرهم فعامَّتها أحاديث بني إسرائيل».

ثم يتكلم ابن كثير عن الإسرائيليات بوجه عام، فيذكر أن «ما وافق منها الحق مما بأيدينا عن المعصوم قبلناه لموافقته الصحيح، وما خالف شيئاً من ذلك رددناه، وما ليس فيه موافقة لا نصدقه ولا نكذبه بل نجعله وقفاً، وما كان من هذا الضرب فقد رخص كثير من السلف في روايته، وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه، ولا حاصل له مما ينتفع به في الدين، ولو كانت فائدته تعود على المكلفين في دينهم لبيّنته هذه الشريعة الكاملة الشاملة».

ثم يقول: «والذي نسلكه في هذا التفسير الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية لما فيها من تضييع الزمان، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروج عليهم، فإنهم لا تفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة»[١].

ولذلك فإنه في تفسيره لهذه الآيات القرآنية التي أشرنا إليها آنفاً من سورة الأنعام، أشار مجرد إشارة إلى رواية محمد بن إسحاق هذه دون أن يفصّل فيها، وعاب على الإمام الطبري استشهاده بها واعتماده عليها في تفسير قوله تعالى على لسان إبراهيم الخليل: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، ثم انتهى إلى بيان الحق في هذا القول[٢]، وسوف نثبته عنه في مكانه اللائق من هذا الكتاب.

معنى ذلك: أن ابن إسحاق قد نقل هذه المرويات عن اليهود كما

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» ٣/ ١٨١، ١٨٢.

(٢) راجع: المصدر السابق ٢/ ١٥١، ١٥٢.

صرح بذلك ابن كثير وغيره، حيث إنها روايات إسرائيلية موضوعة ومنكرة.

بل إن الشيخ رشيد رضا يذكر أنه «لا شك في أن هذه القصة ـ قصة محمد بن إسحاق ـ موضوعة لهذه المسألة، وأن ابن إسحاق أخذها عن بعض اليهود الذين كانوا يلقنون المسلمين أمثال هذه القصص ليلبسوا عليهم دينهم فتبطل ثقة يهود وغيرهم بهم»[١].

ومن الأدلة القاطعة على أن هذه المرويات مصدرها من اليهود أنه وجد في كثير من كتب المدراش[٢] أن تارح قد تزوج من إيمتالي بنت كرناب، فرُزقا إبراهيم، وكان مولده مرصوداً في الكواكب، فاطلع عليه النمروذ، واستشار الملأ من قومه فأشاروا عليه بقتل كل طفل ذكر واستحياء البنات، وإغداق العطايا والجوائز على أهليهن، ليفرحوا بمولد البنات.

وأحس تارح أن امرأته حامل، فلما أراد أن يتحقق من ذلك صعد

---

(١) راجع: «تفسير المنار» ٧/ ٤٦٤.

(٢) يعرف بعض المأثورات الإسرائيلية باسم «المدراش» أو الدراسات، وتلك تتضمن أقوال الفقهاء وحواشيهم على النصوص والمحفوظات، وأشهرها «مدراش رباه» التي تدور كل دراسة منها على كتاب من كتب التوراة الخمسة، وقد تمت عند القرن السادس للميلاد، وترجع في أسانيدها كما جاء فيها إلى أيام إبراهيم، ولكنها عند اليهود على درجات: فمنها ما يعول عليها، ومنها ما هو من قبيل القصص التعليمية، والأمثال الوعظية، تساق للاعتبار، ولا يقصد بها التاريخ أو الاعتقاد.
ويظن بعض شراح الألمان مثل جرنبوم: أن من المدراش نبذاً منقولة عن اللغة العربية، ولكن المقابلة بين رواياتها والروايات الإسرائيلية الأخرى تدل على مشابهة قريبة، وأنها على كل حال من مصادر غير إسلامية. راجع: «إبراهيم أبو الأنبياء» للأستاذ العقاد ص٣٧، ٣٨، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، صيدا.

الجنين إلى صدر أمه فخوي بطنها ولم يظهر فيه حمل، وهربت أمه حين جاءها المخاض فأوت إلى كهف ولدته فيه، وتركته ثمة وهي تدعو له، فبقي ثلاث عشرة سنة لا يرى الشمس على رواية بعض الكتب، ومكث في الكهف أقل من ذلك على روايات أخرى.

وأرسل الله جبريل يرعاه: فجعل الطفل يمتصُّ أصابعه فيرضع منها ويكبر قبل الأوان.

وخرج من الكهف ليلاً وهو في الثالثة فرأى النجوم فقال: هذه هي الأرباب، فلما أشرقت الشمس قال: كلا، بل هذه هي الرب، فلما أفلت وظهر القمر قال: بل هو هذا.. فلما أفل قال: ما هذه بأرباب، إنما الرب المعبود هو الذي يديرها ويسيرها ويبديها ويخفيها.

وفي بعض الكتب أن أمه خرجت تتفقده بعد عشرين يوماً حيث تركته فوجدت في طريقها صبياً نائماً فسألها: ماذا جاء بك إلى الصحراء؟

فأنبأته بقصتها، وعرَّفها بنفسه فدهشت وعجبت لطفل يكبر ويتكلم، ولما يمض على مولده شهر واحد... إلخ ما ورد في هذه الأسطورة[1].

هذا فيما يتعلق بمحمد بن إسحاق.

أما فيما يتعلق بروايات السدي الذي روى عنه الطبري وابن أبي حاتم وغيرهما فإنه يسمى بمحمد بن مروان السدي الكوفي، ويُعرف بالسدي الصغير، وهو كذاب معروف كما قال عنه علماء الجرح والتعديل.

حيث قال عنه الحافظ الذهبي: تركوه واتهمه بعضهم بالكذب، وهو صاحب الكلبي.

---

(١) راجع تفصيل ذلك في كتاب: «إبراهيم أبو الأنبياء» ص٣٧ ـ ٤١.

وقال عنه البخاري: سكتوا عنه، وهو مولى الخطَّابيين، لا يُكتب حديثه البتة.

وقال ابن معين: ليس بثقة.

وقال أحمد: أدركته وقد كبر فتركته.

وقال ابن عدي: الضعف على روايته بيّن.

وجاء عنه في «تهذيب التهذيب» للحافظ ابن حجر نقلاً عن جرير بن عبد الحميد أنه «كذاب».

ونقل عنه الدوري عن ابن معين: ليس بثقة.

وقال عنه ابن نمير: ليس بشيء.

وقال يعقوب بن سفيان عنه: ضعيف غير ثقة.

وقال عنه صالح بن محمد: كان ضعيفاً وكان يضع.

وقال عنه أبو حاتم: ذاهب الحديث، متروك الحديث، لا يكتب حديثه البتة.

وقال ابن حبان: لا يحل كتابة حديثه إلا اعتباراً، ولا يحتج به بحال.

وقال أبو جعفر الطبري: لا يحتج بحديثه، قال عبد الله بن نمير: كان السدي كذاباً، ذكره ابن هشام في «الضعفاء»(١).

وإذا كان هذا هو حال السدي الذي نقل عنه الطبري وابن أبي حاتم فإنه لا يحتج به، ولا يعتمد على روايته، بل إن الطبري نفسه قال كما ذكرنا إنه: لا يحتج بحديثه.

---

(١) راجع: «ميزان الاعتدال» ٤/ ٣٢، ٣٣؛ و«تهذيب التهذيب» ٩/ ٤٣٦، ٤٣٧.

أما ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس من تفسير قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ بالعبادة فإنه لا يصح.

وهو من مراسيل علي بن أبي طلحة مولى بني العباس، وقد روى عن ابن عباس تفسيراً كثيراً ولم يره، وقال فيه أحمد بن حنبل: له أشياء منكرات.

وقال الحافظ في «تهذيب التهذيب» عنه: صدوق يخطئ، ومعاوية بن أبي صالح الراوي عنه من رجال مسلم، وقد ليّنه ابن معين، وقال أبو حاتم: لا يحتج به، ولم يرضه البخاري ولا ابن القطان، فكيف وهذه حاله يؤخذ بروايته عن ابن عباس أن إبراهيم خليل الرحمٰن كان في صغره ـ والعياذ بالله، وحاش لله ـ مشركاً حيث عبد كلّاً من الكوكب والقمر والشمس.

وهذا ـ فيما يقول الشيخ رشيد رضا ـ إذا فرضنا أن السند إليه صحيح!

وقد تبين لنا من خلال أقوال العلماء أنه غير صحيح.

وإن المرء ليعجب كيف قال الطبري بهذا القول معتمداً على هذه الروايات الإسرائيلية المنكرة، أو كما قال عنها الإمام ابن حزم: «خرافة موضوعة مكذوبة ظاهرة الافتعال»[1].

وإن العجبَ من الطبري ليزداد حينما نعلم أنه قد قرر رأي الجمهور أحسن تقرير، وكأنه يرد به على نفسه حيث يقول: «وأنكر قوم من غير أهل الرواية هذا القول الذي روي عن ابن عباس، وعمن روى عنه من أن إبراهيم قال للكوكب أو للقمر: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾.

وقالوا: غير جائز أن يكون لله نبي ابتعثه بالرسالة، أتى عليه وقت

---

(١) «الفصل» ٤/٦.

من الأوقات وهو بالغ، إلا وهو لله موحد وبه عارف، ومن كل ما يعبد من دونه بريء.

قالوا: ولو جاز أن يكون قد أتى عليه بعض الأوقات وهو به كافر لم يجز أن يختصَّه بالرسالة؛ لأنه لا معنى فيه إلا وفي غيره من أهل الكفر به مثله، وليس بين الله وبين أحد من خلقه مناسبة فيحابيه باختصاصه بالكرامة.

قالوا: وإنما أكرم من أكرم منهم لفضله في نفسه فأثابه لاستحقاقه الثواب بما أثابه من الكرامة.

وزعموا أن خبر الله عن قيل إبراهيم عند رؤيته الكوكب أو القمر أو الشمس ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ لم يكن لجهله بأن ذلك غير جائز أن يكون ربه.

وإنما قال ذلك على وجه الإنكار منه أن يكون ذلك ربه، وعلى العيب لقومه في عبادتهم الأصنام: إذ كان الكوكب والقمر والشمس أضوأ وأحسن وأبهج من الأصنام، ولم تكن مع ذلك معبودة، وكانت آفلة زائلة غير دائمة، والأصنام التي دونها في الحسن وأصغر منها في الجسم أحق أن لا تكون معبودة ولا آلهة.

قالوا: «وإنما قال ذلك لهم معارضة كما يقول أحد المتناظرين لصاحبه معارضاً له في قول باطل قال به بباطل من القول على وجه مطالبته إياه بالفرقان بين القولين الفاسدين عنده اللذين يصحح خصمه أحدهما ويدّعي فساد الآخر»[1].

ومن الواضح أن الطبري كان متفهِّماً تماماً الرأيَ المعارض له، ولكنه مع ذلك بعد أن عرض له وللآراء الأخرى المعارضة له أيضاً قال:

«وفي خبر الله تعالى عن قيل إبراهيم حين أفل القمر: ﴿لَئِن لَّمْ

---

(١) «تفسير الطبري» ٧/١٦٣، ١٦٤.

﴿يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ الدليل على خطأ هذه الأقوال التي قالها هؤلاء القوم، وأن الصواب من القول في ذلك الإقرار بخبر الله تعالى الذي أخبر به عنه الأقوال والإعراض عما عداه»[1].

ولذلك فإن الشيخ رشيد رضا يذكر أنه «من العجيب أن ابن جرير اختار هذا القول مع تقريره القول المقابل له على أحسن وجه، وهو الذي جزم به الجمهور من أنه كان مناظراً لقومه فقال ما قال تمهيداً للإنكار عليهم، فحكى مقالتهم أولاً حكاية استدرجهم بها إلى سماع حجته على بطلانها، إذ أوهمهم أنه موافق لهم على زعمهم، ثم كر عليه بالنقض، بانياً دليله على قاعدة الحس ونظر العقل»[2].

وإذا كنت قد بيّنت بطلان الاعتماد على الروايات المذكورة، وعدم الاحتجاج بها، فإن هناك حججاً أخرى تبطل تماماً هذا القول الذي قال به الطبري وغيره، بل إنها تصلح في شمولها للرد على كل من زعم أن إبراهيم عليه السلام قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ ناظراً أو متعبداً في حال الطفولية أو بعد البلوغ.

وسوف يتبين لنا أن قول الله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ الذي اعتمد عليه الطبري واحتج به ـ كما سبق ـ إنما هو حجة عليه، وليس حجة له.

بطلان ما ذهب إليه أصحاب الاتجاه الأول من ناحية المتن (الموضوع)

بعد أن تبين لنا أن الإمام الطبري ومن تبعه قد ذهبوا إلى ما ذهبوا إليه من أن الخليل إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، كان في مقام

---

(١) المصدر السابق ٧/ ١٦٤.

(٢) «تفسير المنار» ٧/ ٤٦٥.

النظر والاستدلال، حيث قام بعبادة كل من الكوكب والقمر والشمس حتى تبين له بطلان كونهم آلهة بعد أفولها واحتجابها، مستدلين في ذلك ومعتمدين على ما ورد من الروايات المذكورة آنفاً عن ابن إسحاق والسدي وغيرهما.

وبعد أن تبين لنا أيضاً بطلان الاعتماد على هذه الروايات من ناحية السند، حيث إنها روايات إسرائيلية منكرة، لا يجوز الاستدلال بها، ولا يصح الاعتماد عليها.

بعد أن تبيّن لنا كل ذلك، ينبغي أن أبيّن هنا أن أكثر المحققين من العلماء قد اتفقوا على فساد ما ذهب إليه هؤلاء من ناحية ما تشتمل عليه من أمور تتنافى مع عصمة الأنبياء، ولا تتفق مع ما جُبلوا عليه من تنقية وتطهير، وتخالف كونهم من المصطفين الأبرار، حيث اجتباهم ربهم، وهداهم إلى صراطه المستقيم.

وقد احتج هؤلاء المحققون بهذه الحجج القوية مستلهمين إياها من نصوص القرآن الكريم، ومعتمدين فيها على ما أثر من حياة هؤلاء الرسل الكرام، والأنبياء الأطهار.

وتتمثل هذه الحجج فيما يلي:

الحجة الأولى: إن القول بربوبية النجم وألوهيته كفر بالإجماع، والكفر غير جائز بالإجماع أيضاً على الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

يذكر الرازي في كتابه «عصمة الأنبياء» أنه فيما يتعلق بالأمور الاعتقادية اجتمعت الأمة على أن الأنبياء معصومون عن الكفر والبدعة[١].

(١) راجع ص٥؛ راجع أيضاً: «مفاتيح الغيب» ١٣/٤٧، وقد سبق أن تحدثت عن =

وجاء في «شرح المواقف» ما نصُّه: «وأما الكفر فأجمعت الأمة على عصمتهم منه قبل النبوة وبعدها، ولا خلاف لأحد منهم في ذلك»[1].

فالله ﷻ قد عصم رسله وأنبياءه من الكفر، وآمنهم من الشرك، واستقر ذلك ـ كما يقول الإمام ابن العربي ـ من دين المسلمين بإجماعهم فيه وإطباقهم عليه.

فمن ادعى أنه يجوز عليهم أن يكفروا بالله، أو يشك فيهم طرفة عين، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، بل لا تجوز عليهم المعاصي في الأفعال، فضلاً عن أن ينسبوا إلى الكفر في الاعتقاد، بل هم المنزّهون عن ذلك فعلاً واعتقاداً[2].

وقرر القاضي عياض بالبراهين والإجماع عصمة كل نبي من جريان الكفر على قلبه أو لسانه، لا عمداً، ولا سهواً، أو أن يشبه عليه ما يلقيه الملك بما يلقي الشيطان، أو أن يكون للشيطان عليه سبيل، أو أن يتقوَّل على الله عمداً ولا سهواً ما لم ينزل عليه[3].

ثم عقد فصلاً في كتابه «الشفا» في عصمة الأنبياء قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته، والتشكك في شيء من ذلك ذكر فيه ما نصه:

= عصمة الأنبياء بالتفصيل في كتابي «تنزيه نبي الله داود عن مطاعن وأكاذيب اليهود» ص٢٠٥ ـ ٢٣١.

(١) راجع: «المواقف في علم الكلام» للإيجي ص٣٥٨؛ و«شرح المواقف» للسيد الشريف ٣/ ٢٠٤، ٢٠٥؛ و«شرح المواقف» تصحيح وتعليق الدكتور محمد عبد الرحمٰن بيصار، الطبعة الثالثة ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن العلماء قد استثنوا الأزارقة من الخوارج على اعتبار أنهم جوزوا عليهم الذنب، وكل ذنب عندهم كفر، فلزمهم تجويز الكفر (راجع المصادر السابقة).

(٢) راجع: «أحكام القرآن» ٣/ ١٣٠٠.

(٣) راجع: «كتاب الشفا» ٢/ ٧٥٣.

«والصواب أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكك في شيء من ذلك.

وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا، ونشأتهم على التوحيد والإيمان، بل على إشراق أنوار المعارف، ونفحات ألطاف السعادة، ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحداً نبّئ واصطُفي ممن عرف بكفر وإشراك قبل ذلك، ومستند هذا الباب النقل.

ثم يذكر القاضي عياض أنه إذا كان قد استدل بعضهم بأن القلوب تنفر عمن كانت هذه سبيله، فإن قريشاً قد رمت نبينا بكل ما افترته، وعيَّر كفار الأمم أنبياءها بكل ما أمكنها واختلقته، مما نص الله تعالى عليه، أو نقلته إلينا الرواة، ولم نجد في شيء من ذلك تعييراً لواحد منهم برفضه آلهته، وتقريعه بذمه بترك ما كان قد جامعهم عليه.

ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين، وبتلوُّنه في معبوده محتجِّين، ولكان توبيخهم له بنهيهم عما كان يعبد قبل أفظع وأقطع في الحجة من توبيخهم بنهيهم عن تركهم آلهتهم، وما كان يعبد آباؤهم من قبل.

ففي إطباقهم على الإعراض عنه دليل على أنهم لم يجدوا سبيلاً إليه، إذ لو كان لنقل، وما سكتوا عنه، كما لم يسكتوا عند تحويله القبلة، وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ كما حكاه الله عنهم»[1].

وقد استدل القاضي القشيري على تنزيههم عن هذا بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

---

(١) راجع المصدر السابق ٢/٧١٩، ٧٢٠؛ و«نسيم الرياض» للشهاب الخفاجي ٤/٣٨ ـ ٤٠.

وبقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: ٨١].

قال: فطهره الله في الميثاق.

وبعيد أن يأخذ منه الميثاق قبل خلقه، ثم يأخذ ميثاق النبيِّين بالإيمان ونصره قبل مولده بدهور، ويجوز عليه الشرك أو غيره من الذنوب، هذا ما لا يجوِّزه إلا ملحد، وكيف يكون ذلك وقد آتاه جبريل عليه السلام، وشق قلبه صغيراً، واستخرج منه علقة، وقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله وملأه حكمةً وإيماناً، كما تظاهرت به أخبار المبدأ.

والخلاصة أن من علامات الأنبياء ـ الذين اصطفاهم الله من البشر ففضَّلهم وفطرهم على معرفته ـ أن يوجد لهم قبل الوحي خُلُق الخير والزكاء ومجانبة المذمومات والرجس أجمع، وأن هذا هو معنى العصمة، وكأنه مفطور على التنزه عن المذمومات، والمنافرة لها، وكأنها منافية لجبِلَّته(١).

الحجة الثانية: أن إبراهيم عليه السلام كان قد عرف ربه قبل هذه الواقعة بالدليل، ويتجلى هذا في أنه تعالى أخبر عنه أنه قال قبل هذه الواقعة لأبيه آزر: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

فقد اشتمل كلام إبراهيم عليه السلام في هذه الآية على ذكر الحجة العقلية على فساد قول عبدة الأصنام من وجهين:

---

(١) راجع: «مقدمة ابن خلدون» ص٨٥، ٨٦، طبعة دار الشعب؛ راجع أيضاً: «الشفا» ٢/ ٧٢٠، ٧٢١.

الأول: أن قوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾، يدل على أنهم كانوا يقولون بكثرة الآلهة، إلا أن القول بكثرة الآلهة باطل بالدليل العقلي الذي فُهِمَ من قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

والثاني: أن هذه الأصنام لو حصلت لها قدرة على الخير والشر لكان الصنم الواحد كافياً، فلما لم يكن الواحد كافياً دل ذلك على أنها وإن كثرت فلا نفع فيها البتة[١].

الحجة الثالثة: أنه تعالى حكى عن سيدنا إبراهيم عليه السلام أنه دعا أباه إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام بالرفق في سورة مريم حيث قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا...﴾[٢].

وحكى في هذا الموضع أنه دعا أباه إلى التوحيد، وترك عبادة الأصنام بالكلام الخشن واللفظ الموحش، حيث قال له: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. ومن المعلوم أن من دعا غيره إلى الله تعالى فإنه

---

(١) راجع: «مفاتيح الغيب» ١٣/ ٤١، ٤٧؛ و«غرائب القرآن ورغائب الفرقان» للنيسابوري ٧/ ١٧٥، مطبوع على هامش «تفسير الطبري».

(٢) راجع: «مفاتيح الغيب» ١٣/ ٤٧، ٤٨. يذكر ابن عاشور أن مباشرة الخليل لأبيه بهذا القول الغليظ كان في بعض محاولاته له بعد أن تقدم له بالدعوة إلى الرفق حيث أنه لما رأى تصميمه على الكفر سلك معه مسلك الغلظة استقصاء لأساليب الموعظة لعل بعضها أن يكون أنجع في نفس أبيه من بعض فإن للنفوس مسالك، ولمجال أنظارها ميادين متفاوتة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، وقال له في موضع آخر: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ فحكى الله تعالى عن إبراهيم في هذه الآية بعض مواقفه مع أبيه، وليس في ذلك ما ينافي البرور به؛ لأن المجاهرة بالحق دون سب ولا اعتداء لا تنافي البرور، ولم يزل العلماء يخطئون أساتذتهم وأئمتهم وآباءهم في المسائل العلمية بدون تنقيص، وقد قال أرسطاليس في اعتراض على أفلاطون: أفلاطون صديق والحق صديق، لكن الحق أصدق. راجع: «تفسير التحرير والتنوير» ٧/ ٣١٤.

يقدم الرفق على العنف، واللين على الغلظة، ولا يخوض في التعنيف والتغليظ إلا بعد المدة المديدة واليأس التام.

فدل هذا على أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن دعا أباه إلى التوحيد مراراً وأطواراً، ولا شك أنه إنما اشتغل بدعوة أبيه بعد فراغه من مُهِمِّ نفسه، فثبت أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن عرف الله مدة[1].

الحجة الرابعة: أنه تعالى قال عن سيدنا إبراهيم عليه السلام قبل أن يقول هذه الأقوال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾؛ أي: وليكون بسبب تلك الإراءة من الموقنين، ثم قال بعده: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾ والفاء تقتضي الترتيب، فثبت أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن صار إبراهيم من الموقنين العارفين به.

وقد استدل بذلك ابن قتيبة حيث يذكر أن الله سبحانه يقول في صدر الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾، ثم قال على أثر ذلك: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ...﴾ أفترى الله أراه الملكوت ليوقن، فلما أيقن رأى كوكباً فقال: هذا ربي على الحقيقة والاعتقاد.

فقد عطف قوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ على قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ...﴾، لأن ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أفاد كون المشبّه به تعليماً فائقاً، ففهم منه أن المشبه به علة لأمر مهم هو من جنس المشبّه به.

فالتقدير: وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض إراءة تبصير وفهم، ليعلم علماً على وفق ذلك التفهيم، وهو العلم الكامل وليكون من الموقنين.

---

(١) راجع: «تأويل مشكل القرآن» ص٣٣٨؛ و«مفاتيح الغيب» للرازي ١٣/٤٨؛ و«تفسير النيسابوري» ١/ ١٧٥.

والموقن هو العالم علماً لا يقبل الشك، وهو الإيقان، والمراد الإيقان في معرفة الله تعالى وصفاته، ولا شك أن قوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ أبلغ بكثير من أن يقال: «وليكون موقناً»[1].

معنى ذلك: أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن أراه الله ملكوت السماوات والأرض حتى رأى من فوق العرش والكرسي وما تحتهما إلى ما تحت الثرى، ومن كان منصبه في الدين كذلك وعلمه بالله كذلك، كيف يليق به أن يعتقد إلٰهية الكواكب؟[2].

الحجة الخامسة: قوله تعالى على لسان الخليل عليه السلام: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

لقد سبق أن أشرت إلى أن الطبري قد استدل بهذا القول على أن الخليل إبراهيم قال هذا الكلام على سبيل النظر وليس على سبيل المناظرة لقومه، وأشرت أيضاً إلى أن هذه الآية حجة عليه وليست له، فكيف يكون ذلك؟

يذكر الزمخشري أن قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ تنبيه لقومه على أن من اتخذ القمر إلٰهاً وهو نظير الكوكب في الأفول فهو ضال، وأن الهداية إلى الحق بتوفيق الله ولطفه[3].

ويرى ابن المنيِّر في تعقيبه على كلام الزمخشري أن «التعريض بضلالهم ثانياً أصرح وأقوى من قوله أولاً: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾.

وإنما تَرَقَّى إلى ذلك، لأن الخصوم قد قامت عليهم بالاستدلال الأول حجة، فأنسوا بالقدح في معتقدهم، ولو قيل هذا في الأول فلعلهم كانوا ينفرون ولا يصغون إلى الاستدلال، فما عرَّض صلوات الله عليه

---

(١) راجع: «تفسير التحرير والتنوير» ٧/ ٣١٦.

(٢) راجع: «مفاتيح الغيب» ١٣/ ٤٨.　　(٣) راجع: «الكشاف» ٢/ ٢٤.

بأنهم في ضلالة إلا بعد أن وثق بإصغائهم إلى تمام المقصود واستماعهم إلى آخره.

والدليل على ذلك أنه ترقَّى في النبوة الثالثة إلى التصريح بالبراءة منهم، والتقرير بأنهم على شرك حين قيام الحجة عليهم، وتبلج الحق، وبلغ من الظهور غاية المقصود(1).

ويذكر القاضي عياض أن معنى هذه الآية: «إنه إن لم يؤيِّدني الله بمعونته أكن مثلكم في ضلالتكم وعبادتكم، على معنى الإشفاق على قومه ترحماً لهم، والحذر من الله والاحتراز عما هم فيه، وإلا فهو معصوم في الأزل من الضلال»(2).

ويذهب الشيخ الطاهر ابن عاشور إلى أن هذا القول من إبراهيم عليه السلام قصد به تنبيه قومه للنظر في معرفة الرب الحق، وأنه واحد، وأن الكوكب والقمر كليهما لا يستحقان ذلك، مع أنه عرَّض في كلامه بأن له رباً يهديه وهم لا ينكرون عليه ذلك لأنهم قائلون بعدة أرباب، وفي هذا تهيئة لنفوس قومه لما عزم عليه من التصريح بأن له رباً غير الكواكب.

ثم عرَّض بقومه أنهم ضالون، وهيَّأهم قبل المصارحة للعلم بأنهم ضالون؛ لأن قوله: ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ يدخل على نفوسهم الشك في معتقدهم أن يكون ضلالاً، ولأجل هذا التعريض لم يقل: لأكونن ضالاً، وإنما قال: ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ ليشير إلى أن في الناس قوماً ضالين؛ يعني: قومه(3).

وبذلك يكون قول سيدنا إبراهيم هذا من أقوى الأدلة على أن هذا

---

(1) راجع: «الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال» ٢/ ٢٤.

(2) راجع: «الشفا» ٢/ ٧٢٢، ٧٢٣.

(3) راجع: «تفسير التحرير والتنوير» ٧/ ٣٢١، ٣٢٢.

الكلام كان في مقام المناظرة لقومه حيث عرَّض بهم واستدل عليهم، وليس كما يزعم الزاعمون بأنه كان مقام نظر وتأمُّل لنفسه.

ولذلك يقول الإمام الآلوسي عن هذه الآية: «وفي هذه الجملة دليل من غير وجه على أن استدلاله عليه السلام ليس لنفسه بل كان محاجَّة لقومه»[(١)].

الحجة السادسة: أن القوم يقولون إن إبراهيم عليه السلام إنما اشتغل بالنظر في الكواكب والقمر والشمس حال ما كان في الغار، وهذا باطل؛ لأنه لو كان الأمر كذلك، فكيف يقول: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ مع أنه ما كان في الغار لا قوم ولا صنم.

يذكر الطاهر ابن عاشور أنه يؤخذ من قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ أن إبراهيم عليه السلام كان سائراً مع فريق من قومه يشاهدون الكواكب، وقد كان قوم إبراهيم صابئين يعبدون الكواكب، ويصوِّرون لها أصناماً، كذلك فإنه قد استشهد بقوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾ ـ ومعناها: أظلم عليه الليل ـ على أن إبراهيم عليه السلام كان محوطاً بظلمة الليل، وذلك يقتضي أنه كان تحت السماء، ولم يكن في بيت[(٢)] بمعنى أنه لم يكن في سرب أو في غار.

بل إن ظاهر قوله: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ يفيد أنه خاطب بذلك غيره؛ لأن القول حقيقته الكلام، وإنما يساق الكلام إلى مخاطب، ولذلك كانت حقيقة القول هي ظاهر الآية من لفظها ومن ترتيب نظمها، إذ رتب قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ﴾ على قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، وقوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾، ورتب ذلك كله على قوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً...﴾.

---

(١) «روح المعاني» ٧/ ٢٠٠.

(٢) راجع: «تفسير التحرير والتنوير» ٧/ ٣١٧؛ و«مفاتيح الغيب» ١٣/ ٤٨؛ و«غرائب القرآن» للنيسابوري ٧/ ١٧٥.

ولقوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ وإنما يقوله لمخاطب، ولقوله عقب ذلك: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، ولأنه اقتصر على إبطال كون الكواكب آلهة واستدل به على براءته مما يشركون مع أنه لا يلزم من بطلان إلٰهية الكواكب بطلانَ إلٰهية أجرام أخرى لولا أن ذلك هو مدعى قومه.

فدل ذلك كله على أن إبراهيم عليه السلام قال ذلك على سبيل المجادلة لقومه وإرخاء العنان لهم ليصلوا إلى تلقي الحجة، ولا ينفروا من أول وهلة، فيكون قد جمع جمعاً من قومه، وأراد الاستدلال عليهم[1].

الحجة السابعة: الاستدلال بقول الله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ﴾، ويتمثل هذا الاستدلال في هذا التساؤل: كيف يحاجُّونه وهم بعد ما رأوه وهو ما رآهم، وهذا يدل على أنه عليه السلام إنما اشتغل بالنظر في الكواكب والقمر والشمس بعد أن خالط قومه، ورآهم يعبدون الأصنام، ودعوه إلى عبادتها فذكر قوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ رداً عليهم وتنبيهاً لهم على فساد قولهم.

يقول الحافظ ابن كثير: «ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظراً لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظراً قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾.

حيث يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم حين جادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد وناظروه بشبه من القول أنه قال: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ﴾؛ أي: تجادلونني في أمر الله، وأنه لا إلٰه إلا هو، وقد بصَّرني وهداني إلى الحق وأنا على بينة منه، فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة، وقوله: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ

---

(١) راجع: «تفسير التحرير والتنوير» ٧/ ٣١٩.

رَبِّي شَيْـًٔا﴾؛ أي: ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتم إليه أن هذه الآلهة التي تعبدونها لا تؤثر شيئاً، وأنا لا أخافها ولا أباليها، فإن كان لها كيد فكيدوني بها ولا تنظرون، بل عاجلوني بذلك، وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا﴾ استثناء منقطع؛ أي: لا يضر ولا ينفع إلا الله ﷻ، ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾؛ أي: أحاط علمه بجميع الأشياء فلا تخفى عليه خافية، ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فيما بيَّنته لكم، أفلا تعتبرون أن هذه الآلهة باطلة فتنزجروا عن عبادتها[1].

الحجة الثامنة: أن هذه الواقعة إنما حصلت بسبب مناظرة إبراهيم عليه السلام مع قومه. والدليل عليه: أنه تعالى لما ذكر هذه القصة قال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ ولم يقل على نفسه، فعلم أن هذه المباحثة إنما جرت مع قومه لأجل أن يرشدهم إلى الإيمان والتوحيد، لا لأجل أن إبراهيم كان يطلب الدين والمعرفة لنفسه، فقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾ إما إشارة إلى قوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾، وإما إشارة إلى أن القوم قالوا له: أما تخاف أن تخبلك آلهتنا لأجل أنك شتمتهم، فقال لهم: أفلا تخافون أنتم حيث أقدمتم على الشرك بالله وسوَّيتم في العبادة بين خالق العالم ومدبره، وبين الخشب والصنم المعمول؟

والرأي الأرجح أن قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾ إشارة إلى كل ما قاله سيدنا إبراهيم في هذا الشأن. يذكر الزمخشري أن قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾ إشارة إلى جميع ما احتج به إبراهيم عليه السلام على قومه من قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

وأشار أبو السعود أن في قوله: ﴿وَتِلْكَ﴾ ما فيه من معنى البُعد

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» ٢/١٥٢؛ راجع: «مفاتيح الغيب» ١٣/٤٨؛ و«تفسير النيسابوري» ٧/ ١٧٥.

لتفخيم شأن المشار إليه، والإشعار بعلو طبقته، وسمو منزلته في الفضل، ويرى أن في إضافة كلمة «حجة» إلى نور العظمة من التفخيم ما لا يخفى، ومعنى قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ﴾؛ أي: أرشدناه إليها أو علمناه إياها[١].

وجاء في «تفسير المنار» أن الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ﴾ إلى كل ما تقدم في هذا السياق، وأن هذا الرأي هو الأقوى، والأظهر والأعم والأشمل، وأن المراد بالحجة جنسها لا فرد من أفرادها، ومعناه: أن تلك الحجة التي تضمَّنها ما تقدم من المقال، البعيدة المرمى في إثبات الحق وتزييف الضلال، هي حجتنا البالغة، التي لا تنال إلا بهدايتنا السابغة، أعطيناها إبراهيم حجة على قومه مستعلية عليهم، قاطعة لألسنتهم[٢].

الحجة التاسعة: أنه تعالى حكى عن سيدنا إبراهيم عليه السلام أنه قال للقوم: ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ﴾.

وهذا يدل على أن القوم كانوا قد خوَّفوه بالأصنام، كما حكى عن قوم هود عليه السلام أنهم قالوا له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ﴾، ومعلوم أن هذا الكلام لا يليق بالغار[٣].

الحجة العاشرة: أنه تعالى قال في صفة إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٤]، وأقل مراتب القلب السليم أن يكون سليماً عن الكفر.

يذكر ابن قتيبة أن من الناس من يذهب إلى أن «إبراهيم» صلَّى الله

---

(١) راجع: «مفاتيح الغيب» ١٣/ ٤٨ ـ ٦١؛ و«الكشاف» ٢/ ٢٥، ٢٦؛ و«إرشاد العقل السليم إلى مرايا القرآن الكريم» ٣/ ١٥٦، ١٥٧.

(٢) راجع ٧/ ٤٨٥.

(٣) راجع: «مفاتيح الغيب» ١٣/ ٤٩؛ و«تفسير القرآن العظيم» ٢/ ١٥٢.

عليه، كان في تلك الحال ـ أي: قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ ـ على ضلال وحيرة، ويرد عليهم بقوله: «وكيف يتوهم ذلك على من عصمه الله وطهره في مستقره ومستودعه، والله سبحانه يقول عنه: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾؛ أي: لم يشرك به قط، كذلك قال المفسرون أو من قال منهم»[1].

فلهم في قوله تعالى: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قولان:

الأول: يعني: خالص من الشرك، والمعنى أنه سلم من الشرك فلم يشرك بالله.

والثاني: المراد أنه عاش ومات على طهارة القلب من كل دنس من المعاصي، فيدخل فيه كونه سليماً عن الشرك، وعن الشك وعن الغل والغش والحقد والحسد.

واحتج الذاهبون إلى القول الأول بأنه تعالى ذكر بعد هذه الكلمة إنكاره على قومه الشرك بالله وهو قوله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

واحتج الذاهبون إلى القول الثاني بأن اللفظ مطلق فلا يقيد بصفة دون صفة، ويتأكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾.

وسواء أخذنا بالرأي الأول أم بالرأي الثاني، فإن قوله تعالى عن سيدنا إبراهيم الخليل؛ يعني: أن قلبه سالم من جميع الآفات كفساد العقائد والنيات السيئة والصفات القبيحة[2].

يذكر القاضي عياض أن مما يدل على أن الخليل عليه السلام لم يعبد شيئاً

---

(١) راجع: «تأويل مشكل القرآن» ص٣٣٧.

(٢) راجع: «مفاتيح الغيب» ٢٦/١٤٦؛ و«روح المعاني» ٢٣/١٠٠.

من ذلك، ولا أشرك بالله طرفة عين، قول الله ﷻ عنه: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٤﴾؛ أي: من الشرك[1].

ويذكر الزجاج أن القول بقصة الغار خطأ وغلط ممن قاله، واستدل على ذلك بأن الله سبحانه قد أخبر عن إبراهيم أنه قال: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾، وقال ﷻ: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٤﴾؛ أي: لم يشرك به قط[2].

كذلك فقد استدل العلماء بما مدح الله به سيدنا إبراهيم عليه السلام حيث أثنى عليه بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١﴾؛ أي: بطهارته وكماله.

وللعلماء في المراد بالرشد ثلاثة أقوال:

الأول: أنه النبوة واحتجوا عليه بقوله: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ قالوا: لأنه تعالى إنما يخص بالنبوة من يعلم من حاله أنه في المستقبل يقوم بحقها ويجتنب ما لا يليق بها، ويحترز عما ينفر قومه من القبول.

والثاني: إنه الاهتداء لوجوده الصلاح في الدين والدنيا.

والثالث: هو أن تدخل النبوة والاهتداء تحت الرشد: إذ لا يجوز أن يبعث نبي إلا وقد دلَّه الله تعالى على ذاته وصفاته، ودلَّه أيضاً على مصالح نفسه ومصالح قومه، وكل ذلك من الرشد.

وعلى أي حال؛ فإن معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾؛ أي: الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكبار، وهو الاهتداء الكامل المستند إلى الهداية الخاصة الحاصلة بالوحي، والاقتدار على إصلاح الأمة باستعمال النواميس الإلٰهية.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ أنه سبحانه علم منه أحوالاً

---

(١) راجع: «الشفا» ٢/ ٧٢٢.

(٢) راجع: «تفسير القرطبي» ٧/ ٢٦.

بديعة وأسراراً عجيبة، وصفات قد رضيها حتى أهله لأن يكون خليلاً له، وهذا كقولك في رجل كبير: أنا عالم بفلان، فإن هذا الكلام في الدلالة على تعظيمه أدل مما إذا شرحت جلاله كماله.

ثم قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾، وهذا هو الرشد الذي أوتيه من صغره وهو الإنكار على قومه في عبادة الأصنام من دون الله ﷻ، وكان الله ﷻ يقول لرسوله ﷺ اذكر وقت قوله لهم: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ...﴾ لتقف على كمال رشده وغاية فضله[1].

ويذكر الحافظ ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ أنه تعالى يخبر خليله إبراهيم عليه السلام أنه آتاه رشده من قبل؛ أي: من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾.

ولذلك فإنه في معرض رده على ما ذهب إليه الطبري وغيره يقول: وكيف يجوز أن يكون إبراهيم ناظراً في هذا المقام وهو الذي قال الله في حقه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾...﴾ الآيات. وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

---

(١) راجع: «مفاتيح الغيب» ٢٢/١٧٩، ١٨٠؛ و«إرشاد العقل السليم» لأبي السعود ٦/ ٧٢.

وقد ثبت في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**كل مولود يولد على الفطرة**». وفي «صحيح مسلم» عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ قال: «**قال الله: إني خلقت عبادي حنفاء**».

وقال الله في كتابه العزيز: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ومعناه على أحد القولين كقوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾.

وينتهي الحافظ ابن كثير إلى أنه إذا كان هذا في حق سائر الخليقة، فكيف يكون إبراهيم الخليل الذي جعله الله ﴿أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ ناظراً في هذا المقام، بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة، والسجية المستقيمة بعد رسول الله ﷺ بلا شك ولا ريب(١).

الحجة الحادية عشر: إن تلك الليلة التي قال فيها سيدنا إبراهيم عن الكوكب ﴿هَٰذَا رَبِّى ۖ﴾ كانت مسبوقة بالنهار، ولا شك أن الشمس كانت طالعة في اليوم المتقدم، ثم غربت، فكان ينبغي أن يستدل بغروبها السابق على أنها لا تصلح للإلهية، وإذا بطل بهذا الدليل صلاحية الشمس للألوهية، بطل ذلك أيضاً في القمر والكوكب بطريق الأولى.

هذا إذا قلنا: إن هذا الواقعة كان المقصود منها تحصيل المعرفة لنفسه(٢).

وينطبق هذا على ما قاله الإمام ابن رجب الحنبلي في جدال

---

(١) راجع: «تفسير القرآن العظيم» ٢/١٥١.

(٢) راجع: «مفاتيح الغيب» ١٣/٤٩.

إبراهيم عليه السلام مع نفسه ما نصه: ﴿رَءَا كَوْكَبًاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ إلى آخر القصة، وجه استدلاله: أنه رأى إنارة الكوكب وحسنه وعلوَّ مكانه ولم ير قبله مثله فقال: ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ بناء على أن الرب لا ينبغي أن يكون له مثيل. فقول ابن رجب: «لم ير قبله مثله» فيه إشكال، وهو أن يقال: هل أدرك إبراهيم ذلك من أول نظرة للكون والوجود فقال هذا الكلام؟

أو أنه عاش مدة لا يعرف شيئاً عن النجوم والقمر والشمس من أنها تطلع وتغرب في أوقاتها المحددة؟[1].

ولذلك فإن الإمام ابن حزم قد نقد هذا القول وحمل على القائلين به حينما ذكر في كتابه «الفصل» ـ في قول إبراهيم عليه السلام إذ رأى الكوكب والقمر والشمس: ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ ـ ما يلي:

فقال قوم: إن إبراهيم عليه السلام قال ذلك محققاً أول خروجه من الغار؟ وهذا خرافة موضوعة مكذوبة ظاهرة الافتعال، ومن المحال الممتنع أن يبلغ أحد حد التمييز ويتكلم بمثل هذا، وهو لم ير قط شمساً ولا قمراً ولا كوكباً.

وقد أكذب الله هذا الظن الكاذب بقوله الصادق: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾، فمحال أن يكون من آتاه الله رشده من قبل يدخل في عقله أن الكوكب ربه، أو أن الشمس ربه، من أجل أنها أكبر قرصاً من القمر.

وينتهي ابن حزم إلى القول بأن «هذا ما لا يظنه إلا مجنون العقل»[2].

---

(١) راجع: «استخراج الجدال من القرآن الكريم» ص٦؛ نقلاً عن «مناهج الجدل في القرآن الكريم» للدكتور زاهر عواض الألمعي ص١٩١.

(٢) «الفصل في الملل والأهواء والنحل» ٤/ ٥، ٦.

أما إذا قلنا: المقصود من كلام سيدنا إبراهيم هذا إلزام القوم وإلجاؤهم، فإن السؤال الذي أوردناه سابقاً ـ رداً على القائلين بأن إبراهيم كان ناظراً وليس مناظراً ـ يكون غير وارد هنا. ذلك لأنه يمكن أن يقال: إنه إنما اتفقت مكالمته مع القوم حال طلوع ذلك النجم ثم امتدت المناظرة إلى أن طلع القمر، وطلعت الشمس بعده، وعلى هذا التقدير فالسؤال غير وارد.

ولذلك فإن الفخر الرازي قد فصّل هذه النقطة في موضع آخر، فذكر أنه إن قيل: لا شك أن تلك الليلة كانت مسبوقة بنهار وليل، وكان أفول الكوكب والقمر والشمس حاصلاً في الليل السابق والنهار السابق.

وبهذا التقرير لا يبقى للأفول الحاصل في تلك الليلة مزيد فائدة.

ثم أجاب عن ذلك بأن إبراهيم صلوات الله عليه إنما أورد هذا الدليل على الأقوام الذين كان يدعوهم من عبادة النجوم إلى التوحيد.

فلا يبعد أن يقال: إنه عليه السلام كان جالساً مع أولئك الأقوام في ليلة من الليالي، وزجرهم عن عبادة الكواكب.

فبينما هو في تقرير ذلك الكلام إذ وقع بصره على كوكب مضيء، فلما أفل قال إبراهيم عليه السلام لو كان هذا الكوكب إلٰهاً لما انتقل من الصعود إلى الأفول، ومن القوة إلى الضعف، ثم في أثناء ذلك الكلام طلع القمر وأفل، فأعاد عليهم ذلك الكلام، وكذا القول في الشمس.

ثم ذكر الرازي أن هذا هو جملة ما يحضرنا في تقرير دليل إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه[١].

ثم جاء العلامة أبو السعود، فذكر أن الخليل عليه السلام لعله كان إذ ذاك في موضع كان في جانبه الغربي جبل شامخ يستتر به الكوكب والقمر

---

(١) راجع: «مفاتيح الغيب» ١٣/٤٩، ٥٥.

وقت الظهر من النهار أو بعده بقليل، وكان الكوكب قريباً منه، وأُفُقه الشرقي مكشوف أولاً، وإلا فطلوع القمر بعد أفول الكوكب، ثم أفوله قبل طلوع الشمس كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً﴾؛ أي: مبتدئة في الطلوع مما لا يكاد يتصور[1].

وقد رأى الإمام الآلوسي أن القول بوجود جبل في المغرب أو المشرق خلاف الظاهر، لا سيما على قول شيخ الإسلام ـ ويقصد أبا السعود ـ لأن هذا الاحتجاج كان في نواحي بابل على ما يشير إليه كلام المؤرخين وأهل الأثر.

وليس هناك اليوم جبل مرتفع بحيث يستتر به الكوكب وقت الظهر من النهار أو بعده بقليل.

واحتمال كونه كان إذ ذاك ولم يبق بتتالي الأعوام بعيد، على أن المتبادر من البزوغ والأفول: البزوغ من الأفق الحقيقي لذلك الموضع والأفول عنه، لا مطلق البزوغ والأفول[2].

---

(١) راجع: «إرشاد العقل السليم» ٣/ ١٥٣.

(٢) وقال الشهاب: «إن الذي ألجأهم إلى ما ذكر التعقيب بالفاء ويمكن أن يكون تعقيباً عرفياً مثل تزوج فولد له إشارة إلى أنه لم تمض أيام وليال بين ذلك سواء كان استدلالاً أو وضعاً أو استدراجاً، لا أنه مخصوص بالثاني كما توهم، على أنا لا نسلم ما ذكر إذا كان كوكباً مخصوصاً، وإنما يرد لو أريد جملة الكواكب أو وواحد لا على التعيين فتأمل». انتهى كلام الشهاب، وقد عقب عليه الألوسي بأنه لا يخفى أن القول بالتعقيب العرفي والتزام أن هذا الاستدلال لم يكن في ليلة واحدة وصبيحتها هو الذي يميل إليه القلب، ثم يقول: ودعوى إمكان طلوع القمر بعد أفول الكوكب حقيقة وقبل طلوع الشمس وأفوله قبل طلوعها لا يدعيها عارف بالهيئة في هذه الآفاق التي نحن فيها؛ لأن امتناع ذلك عادة، ولو أريد كوكب مخصوص أمر ظاهر لا سيما على ما جاء عن ابن عباس ﷺ من أن رؤية القمر كانت في آخر الشهر. نعم قد يمكن ذلك في بعض البروج في عروض =

وجاء في «تفسير المنار» أن الظاهر أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام رأى الكوكب في ليلة ورأى القمر في الليلة التالية لها، كما يؤخذ من العطف بالفاء.

وذلك أنه لا فاصل بين ليلة وأخرى إلا النهار، وهو ليس بمظهر للكواكب والقمر، فكأنه غير فاصل.

لكن الشيخ رشيد رضا يستدرك: ويحتمل أن يكون الخليل إبراهيم قد رأى الكوكب والقمر في ليلة واحدة.

وإذا كانت هذه الليلة هي التي رأى الشمس في أول نهارها ـ وهو المتبادر ـ وجب أن يكون قد رأى الكوكب في أول الليل هاوياً للغروب، ويعد أفوله بقليل بزغ القمر، وأن ذلك كان في وسط الشهر، وأنه سهر مع بعض قومه الليل كله حتى أفل القمر في آخره. . . .

وإنما يتعين تصوير وقوع ما ذكر في مثل هذه الليلة من الشهر، والقمر بدر، والشمس في الدرجة الخامسة من برج الثور، إذا تعين أنه لا يجوز وصف القمر والشمس بالبزوغ إلا في أول طلوعها من وراء أفق القطر كله.

وقد يقال: إن هذا غير متعين بالوصف وأنه يجوز أن يقال: رأيت القمر بازغاً ولو بعد طلوعه بساعات كما يقال: رأيت ناب البعير بازغاً بعد طلوعه بأيام.

ثم إن البزوغ والغروب منهما ما هو حقيقي عُرفاً وما هو نسبي، فمن كان في مكان مطمئن أو محاط بالبنيان والشجر يبزغ عليه القمر والشمس بعد بزوغها في أفق قطره، ويغربان عنه قبل غروبهما عن ذلك الأفق.

= مخصوصة، لكن بيننا وبينها مَهامِهَ فيحٍ ـ بكسر الميم ـ: مفاوز شاسعة، ولعله لذلك أمر بالتأمل فتأمل. راجع: «روح المعاني» ٧/ ٢٠١.

وقد يكون في مكان يحجب مشرقه ما ذكر دون مغربه وبالعكس، فيختلف البزوغ والغروب باختلاف ذلك.

وبهذا يتسع مجال احتمال وقوع ما ذكر في ليلة واحدة وصبيحتها بغير تكلف، والكلام في الآيات مرتب على رؤية الكوكب رؤية غير مقيدة بحال ولا وصف، وعلى رؤية القمر والشمس بازغين لا على بزوغهما، فالأول يصدق برؤيته قبيل الغروب في أول جنوب الليل، والآخران يصدقان بالرؤية في حال البزوغ النسبي.

وقد غفل عن هذه الدقة في تعبير التنزيل من زعم أن رؤية ما ذكر لا يتصور وقوعه في ليلة واحدة وصبيحتها، ومن فرض لذلك وجود جبل في ذلك المكان الخالي من الجبال[1].

وبذلك ينتهي الشيخ رشيد رضا إلى ما انتهى إليه الإمام الرازي من قبل.

بل إن الشيخ ابن عاشور قد ارتضى ذلك أيضاً:

حيث يرى أن القمر قد طلع بعد أفول الكوكب، وأن الخليل عليه السلام قد اختار لمحاجة قومه الوقت الذي يغرب فيه الكوكب ويطلع القمر بقرب ذلك، وأنه كان آخر الليل ليعقبهما طلوع الشمس، حيث قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً﴾؛ أي: في الصباح بعد أن أفل القمر، وذلك في إحدى الليالي التي يغرب فيها القمر قبيل طلوع الشمس، معللاً كل ذلك بأن هذا الاستدلال كله وقع في مجلس واحد[2].



(١) راجع: «تفسير المنار» ٧/ ٤٦٧.

(٢) راجع: «تفسير التحرير والتنوير» ٧/ ٣٢١، ٣٢٢.

المبحث الثاني

الاتجاه الثاني في معنى قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾

وهناك اتجاه آخر يقترب أصحابه فيما ذهبوا إليه من أصحاب الاتجاه الأول، حيث يرون أن ما قال به سيدنا إبراهيم عليه السلام في شأن النيِّرات، إنما قاله إبان بحثه عن الله، قبل أن يهتدي إليه، ويتعرف عليه، وإن كان من قبل يحس به.

ويمثل هذا الاتجاه عالمان من العلماء المعاصرين لكل منهما تفسير كامل للقرآن وهما الأستاذان: سيد قطب، وعبد الكريم الخطيب.

فيما يتعلق بالأول فإنه قد عقّب على نصوص الآيات القرآنية من أول قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ. . .﴾ إلى قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، بأن السياق القرآني في هذه الآيات يرسم مشهد الفطرة ـ وهي للوهلة الأولى ـ تنكر تصورات الجاهلية في الأصنام وتستنكرها، وهي تنطلق بعد إذ نفضت عنها هذه الخرافة في شوق عميق دافق تبحث عن إلٰهها الحق، الذي تجده في ضميرها، ولكنها لا تتبينه في وعيها وإدراكها، وهي تتعلق في لهفتها المكنونة بكل ما يلوح أنه يمكن أن يكون هو هذا الإله!

حتى إذا أخبرته وجدته زائفاً، ولم تجد فيه المطابقة لما هو مكنون فيها من حقيقة الإله وصفته.

ثم وهي تجد الحقيقة تشرق فيها وتتجلى لها، وهي تنطلق بالفرحة الكبرى، والامتلاء الجياش، بهذه الحقيقة، وهي تعلن في جيشان اللقيا عن يقينها الذي وجدته من مطابقة الحقيقة التي انتهت

إليها بوعيها للحقيقة التي كانت كامنة من قبل فيها! ثم يقول:

«إنه مشهد رائع باهر هذا الذي يتجلى في قلب إبراهيم عليه السلام، والسياق يعرض التجربة الكبرى التي اجتازها في هذه الآيات القصار»[1].

ويفصّل القول بعد ذلك فيذكر أن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾، يمثل الفطرة وهي تنطق على لسان إبراهيم حيث إنه لم يهتد بعد بوعيه وإدراكه ـ إلى إلٰهه ـ ولكن فطرته السليمة تنكر ابتداء أن تكون هذه الأصنام التي يعبدها قومه آلهة. . .

وإذن فهو الضلال البيّن تحسه فطرة إبراهيم عليه السلام للوهلة الأولى، وهي النموذج الكامل للفطرة التي فطر الله الناس عليها. . ثم هي النموذج الكامل للفطرة وهي تواجه الضلال المبين، فتنكره وتستنكره، ثم يذكر أن قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ يبين أن الله سبحانه يُري إبراهيم حقيقة ملك السماوات والأرض بفطرته السليمة، وبصيرته المفتوحة، حتى يطلعه على الأسرار المكنونة في صميم الكون، ويكشف له عن الآيات المبثوثة في صحائف الوجود، ويصل بين قلبه وفطرته وموحيات الإيمان ودلائل الهدى في هذا الكون العجيب[2].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾، يذكر أن إبراهيم لما أن يئس من أن يكون إلٰهه الحق ـ الذي يجده في فطرته في صورة غير مدركة ولا واعية ـ صنماً من تلك الأصنام، فلعله رجا أن يجده في شيء مما يتوجه إليه قومه بالعبادة!

---

(١) راجع: «في ظلال القرآن» ٧/١١٣٨.

(٢) راجع المصدر السابق ٧/١١٣٨، ١١٣٩.

﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ فهو بنوره وبزوغه وارتفاعه أقرب ـ من الأصنام ـ إلى أن يكون رباً!

ولكن لا «إنه يكذب ظنه»: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾.

إنه يغيب... يغيب عن هذه الخلائق، فمن ذا يرعاها إذن ومن ذا يدبر أمرها... وإذا كان الرب يغيب؟! لا إنه ليس رباً، فالرب لا يغيب!

وتحت قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ يذكر أن التجربة تتكرر، وكأن إبراهيم لم ير القمر قط، ولم يعرف أهله وقومه يعبدونه! فهو الليلة في نظره جديد فقال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ بنوره الذي ينسكب في الوجود، وتفرده في السماء بنوره الحبيب... ولكنه يغيب، والرب ـ كما يعرفه إبراهيم بفطرته وقلبه ـ لا يغيب.

هنا يحس إبراهيم أنه في حاجة إلى العون من ربه الحق الذي يجده في ضميره وفطرته، ربه الذي يحبه، ولكنه بعد لم يجده في إدراكه ووعيه.. ويحس أنه ضال مضيع إن لم يدركه ربه بهدايته، إن لم يمد إليه يده ويكشف له عن طريقه.

﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝٧٧﴾.

ثم تكون التجربة الثالثة مع أضخم الأجرام المنظورة وأشدها ضوءاً وحرارة.. الشمس، والشمس تطلع كل يوم وتغيب، ولكنها اليوم تبدو لعيني إبراهيم كأنها خلق جديد، إنه اليوم يرى الأشياء بكيانه المتطلع إلى إلٰه يطمئن به ويطمئن إليه، ويستقر على قرار ثابت بعد الحيرة المقلقة والجهد الطويل.

﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾، ولكنها كذلك تغيب، من هنا كما يقول الأستاذ سيد قطب يقع التماس، وتنطلق الشرارة، ويتم الاتصال بين الفطرة الصادقة والله الحق، ويغمر النور القلب ويفيض على الكون الظاهر وعلى العقل والوعي.

وهنا يجد إبراهيم إلٰهه!! يجده في وعيه وإدراكه كما هو في فطرته وضميره.

هنا يجد إبراهيم إلٰهه، ولكنه لا يجده في كوكب يلمع، ولا في قمر يطلع، ولا في شمس تسطع.. ولا يجده فيما تبصر العين، ولا فيما يحسه الحس، إنه يجده في قلبه وفطرته، وفي عقله ووعيه، وفي الوجود كله من حوله...[1].

إلخ ما قال في هذا النطاق من عبارات أخّاذة، وكلمات رنانة، في الظاهر، ولكنها تنطوي كما لاحظنا على وصف لإبراهيم عليه السلام بالحيرة والتردد في تصوراته المختلفة عن الله، حيث يتصوره مرة كوكباً، وأخرى قمراً، والثالثة شمساً، وهكذا حتى يتوصل إلى الله الواحد الذي لا شريك له.

وقد اعتمد فيه الأستاذ سيد قطب على جانب كبير من الخيال حتى إنه يقول كما لاحظنا عن رؤيته للقمر مثلاً: «وكأن إبراهيم لم ير القمر قط، ولم يعرف أن أهله وقومه يعبدونه، فهو الليلة في نظره جديد...!!».

أما فيما يتعلق بالأستاذ عبد الكريم الخطيب، فإنه يذكر أن الطريق الذي سلكه إبراهيم الخليل في التعرف على الله هو الطريق الاستدلالي بالنظر في ملكوت السماوات والأرض مستشهداً بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥﴾.

فقد وجه إبراهيم نظره، وعقله وقلبه، إلى ملكوت السماوات والأرض، ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ يرى عبد الكريم الخطيب أن إبراهيم قد رصد هذا الكوكب منذ أطل على هذا العالم من

---

(١) راجع تفصيل ذلك في المصدر السابق ص١١٣٩.

الأفق الشرقي، وتبعه في مسيره، وكان كلما علا في السماء وازداد تألقاً وإشراقاً، ازداد إبراهيم به تعلقاً وشغفاً، إذ حسبه أنه الكائن الأعلى، القائم على هذا الوجود.

فلما هوى إلى الأفق الغربي خفق قلب إبراهيم خفقة الخوف على هذا الذي تصوَّره إلهاً، أن يهوي وراء هذا الأفق، فلما هوى أخلى إبراهيم بصره وعقله وقلبه منه، ونفض يديه من هذه الإلٰه، كما ينفض الحي يديه من ميت عزيز، أودعه القبر، وهال عليه التراب وقال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾.

ثم يذكر أنه لما ﴿رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾، وتبعه في مسيرته من الأفق إلى الأفق.. حتى إذا هوى إلى المغيب، ودفن وراء الأفق الغربي، كاد يؤرقه اليأس من أن يعثر على الإلٰه المنشود وقال: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾[1].

معنى ذلك: أن إبراهيم عليه السلام ـ فيما يرى عبد الكريم الخطيب ـ كان على يقين بأن لهذا الوجود رباً، وأن لتلك المصنوعات صانعاً، قادراً، مدبراً، ولكن من هو؟ وأين هو؟ وكيف هو؟

هذا ما يبحث عنه إبراهيم.. وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ فهو يؤمن بحدسه ومشاعره أن لهذا الوجود إلٰهاً، وهو في بحثه هنا إنما ليعرف هذا الإلٰه ويستيقنه، وذلك قبل أن يختاره الله لرسالته.

ويستطرد الأستاذ عبد الكريم الخطيب في استرسالاته هذه فيقول: «وإذ لم ير إبراهيم في ملكوت الليل وما يبزغ فيه من نجم أو قمر، إذ لم ير في هذا الملكوت إلٰهه الذي ينشده، شخص ببصره إلى ملكوت النهار،

---

(١) راجع: «التفسير القرآن للقرآن» ٧/ ٢٢٢ ـ ٢٢٤.

فرأى الشمس تبسط سلطانها عليه، فعلق بها نظره، واحتواها عقله وقلبه، وقال: ﴿هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾!!».

ولكن الرب الكبير لم يكن إلا خدعة خدع لها إبراهيم، حتى إذا أفلت ودَّعها غير آسف، وأشرق قلبه بنور الإله الحق، الإله الذي يسيِّر هذه الكائنات ويصرِّفها كيف شاءت إرادته، واقتضت حكمته: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٧٩﴾.

وينتهي إلى أن إبراهيم بذلك يكون قد عرف ربه، وهكذا يعرف كل ذي عقل ربه، إذا هو نظر وفكر وعقل..![1].

ومن الواضح أن ما ذكره كل من الأستاذ سيد قطب والأستاذ عبد الكريم الخطيب من تفسير لهذه الآيات القرآنية، لم يرجعا فيه إلى روايات أو نصوص اعتمدوا عليها مثلما اعتمد الإمام الطبري مثلاً، وإن كان ما ذكراه يتفق مع ما اختاره الطبري وارتضاه.

كل ما هنالك أن الطبري قد اعتمد على الروايات المذكورة آنفاً، فاحتج بها على ما ذهب إليه من رأى، فأما هذان العالمان المعاصران فقد ذهبا إلى ما ذهبا إليه اعتماداً على اجتهاداتهما الشخصية، ولعلهما قد اعتقدا أنهما بهذا الرأي الذي قالا به قد ابتعدا عن اختلافات القدامى من المفسرين وغيرهم في هذا الشأن، بل ربما يكونان قد ظنا أن هذا القول الذي نطقا به لم يقل به أحد قبلهما، وأنهما قد تفردا به.

وهذا غير صحيح!

فقد ذكر الإمام الرازي ضمن الوجوه المختلفة لتفسير قوله تعالى على لسان الخليل إبراهيم ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ فقال:

---

(١) راجع المصدر السابق ٧/ ٢٢٤، ٢٢٥.

«أما الاحتمال الثاني وهو أنه ذكره قبل البلوغ وعند القرب منه، فتقريره أنه تعالى كان قد خص إبراهيم بالعقل الكامل والقريحة الصافية، فخطر بباله قبل بلوغه إثبات الصانع سبحانه فتفكر فرأى النجم، فقال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، فلما شاهد حركته قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾.

ثم إنه تعالى أكمل بلوغه في أثناء هذا البحث فقال في الحال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾.

ومن العجيب أن الإمام الرازي الذي تحمس للرأي المقابل لهذا الاحتمال، ودافع عنه واستدل عليه بأدلة كثيرة وقوية سوف أشير إليها فيما بعد، من العجيب أنه علّق على هذا الاحتمال بأنه لا بأس به.

لكنه عاد فاستدرك أن الاحتمال الأول ـ ويقصد أن يكون كلام الخليل عليه السلام في مقام المناظرة لقومه كما سنبين بعد ذلك ـ أولى بالقبول لما عليه من الدلائل الكثيرة، مقرراً أن هذه المناظرة إنما جرت لإبراهيم عليه السلام ووقعت منه وقت اشتغاله بدعوة القوم إلى التوحيد[1]، وليس كما يزعم هؤلاء من أن إبراهيم عليه السلام قال بهذا القول قبل البلوغ.

وجاء في «معالم التنزيل» للبغوي أن العلماء قد اختلفوا في قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ فأجراه بعضهم على الظاهر، وقالوا: كان إبراهيم مسترشداً طالباً للتوحيد حتى وفقه الله وآتاه رشده، فلم يضره ذلك في حال الاستدلال، وأيضاً كان ذلك في حال طفولته قبل قيام الحجة عليه، فلم يكن كفراً.

وأنكر الآخرون هذا القول، وقالوا:

لا يجوز أن يكون لله رسول يأتي عليه وقت من الأوقات إلا وهو لله موحد وبه عارف، ومن كان معبود سواه بريء، وكيف يتوهم هذا على

---

(١) راجع: «مفاتيح الغيب» ١٣/ ٥١.

من عصمه الله وطهَّره وآتاه رشده من قبل وأخبره عنه؟ وقال: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾، وقـــال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾، أفتراه أراه الملكوت ليوقن، فلما أيقن ﴿رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ معتقداً، فهذا ما لا يكون أبداً[(١)].

ولعل الإمام البغوي يقصد بذلك قول الإمام ابن قتيبة حينما قال: «ومن الناس من يذهب إلى أن إبراهيم صلى الله عليه، كان في تلك الحال على ضلال وحيرة»، ثم يرد عليهم قائلاً: «وكيف يتوهم ذلك على من عصمه الله وطهَّره في مستقره ومستودعه؟ والله سبحانه يقول: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾؛ أي: لم يشرك به قط».

ويـقـول فـي صـدر الآيـة: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾، ثم قال على إثر ذلك: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ...﴾.

أفترى الله أراه الملكوت ليوقن، فلما أيقن رأى كوكباً فقال: هذا ربي على الحقيقة والاعتقاد[(٢)].

أما الإمام القرطبي فإنه قد تحدث عن القائلين بهذا القول بعد أن أشار إلى أن قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ قد اختلف في معناه على أقوال:

فقيل: كان هذا منه في مهلة النظر وحال الطفولية وقبل قيام الحجة، وفي تلك الحال لا يكون كفر ولا إيمان، لكنه ينص هنا على أن قائلي هذه المقالة قد استدلوا عليها بما روي عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ فعبده

---

(١) راجع: «تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل» ٢/ ١١٠، دار المعرفة، بيروت.

(٢) راجع: «تأويل مشكل القرآن» ص٣٣٧، ٣٣٨.

حتى غاب عنه، وكذلك الشمس والقمر، فلما تمّ نظره قال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾.

واستدل بالأفول؛ لأنه أظهر الآيات على الحدوث.

معنى ذلك: أن هؤلاء القائلين يكونون بقولهم هذا ـ في نظر القرطبي ـ أشبه بما ذهب إليه الطبري ومن تابعه، حيث سبقت الإشارة إلى أنه قد اعتمد على هذه الرواية واحتج بها[١].

وعلى أي حال؛ فإن القرطبي لم يعجبه هذه الرأي حيث عقَّب عليه بقوله: «وقال قوم: هذا لا يصح، وقالوا: غير جائز أن يكون لله تعالى رسول يأتي عليه وقت من الأوقات، إلا وهو لله تعالى موحد، وبه عارف، ومن كل معبود سواه بريء».

قالوا: وكيف يصح أن يتوهم هذا على من عصمه الله وآتاه رشده من قبل، وأراه ملكوته ليكون من الموقنين، ثم ذكر قولهم بأنه «لا يجوز أن يوصف بالخلو عن المعرفة، بل عرف الرب أول النظر»[٢].

ولعله يقصد بهذا القول المعنى المذكور في كلام الشهرستاني حينما قال عن سيدنا إبراهيم عليه السلام:

ثم لما ﴿رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧﴾.

وتساءل في تعجب واستغراب قائلاً:

«فيا عجباً ممن لا يعرف رباً كيف يقول: ﴿لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ رؤية الهداية من الرب تعالى غاية التوحيد، ونهاية المعرفة، والواصل إلى الغاية والنهاية، كيف يكون في مدارج

(١) وقد سبق أيضاً بطلان الاحتجاج بها وعدم الاعتماد عليها.

(٢) راجع: «الجامع لأحكام القرآن» ٧/ ٢٥، ٢٦.

البداية؟!!»[1].

ثم نقل القرطبي عن الزجاج رأيه في القائلين بهذا الرأي حينما قال: «هذا الجواب عندي خطأ وغلط ممن قاله، وقد أخبر الله تعالى عن إبراهيم أنه قال: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾، وقال جلّ وعز: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾؛ أي: لم يشرك به قط[2].

وأخيراً فإن الإمام الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد تحدث عن هؤلاء القائلين بهذا الرأي بصيغة الزعم حيث قال:

«وزعم بعضهم أنه كان قبل البلوغ ـ أي: قول إبراهيم هذا ربي ـ ولا يلزمه اختلاج شك مؤد إلى كفر؛ لأنه لما آمن بالغيب أراد أن يؤيد ما جزم به بأنه لو لم يكن الله تعالى إلٰهاً، وكان ما يعبدوه قومه، لكان إما كذا، وإما كذا، والكل لا يصلح لذلك، فيتعين كون الله تعالى إلٰهاً وهو خلاف الظاهر، ويأباه السياق والسباق كما لا يخفى».

ثم يقول الآلوسي: «وزعم أنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال ما قال إذ لم يكن عارفاً بربه سبحانه، والجهل حال الطفولية قبل قيام الحجة لا يضر، ولا يعد ذلك كفراً، مما لا يلتفت إليه أصلاً».

وعلّل ذلك بأنه «قد قال المحققون المحقون: إنه لا يجوز أن يكون لله تعالى رسول يأتي عليه وقت من الأوقات إلا وهو لله تعالى موحد، وبه عارف، ومن كل معبود سواه بريء، وقد قص الله تعالى من حال إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خصوصاً في صغره ما لا يتوهم معه شائبة مما يناقض ذلك[3].

وهكذا وجدنا أن القول بأن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان بهذا الكلام المذكور

---

(١) راجع: «الملل والنحل» ٢/ ٣٦٤.

(٢) راجع: «الجامع لأحكام القرآن» ٧/ ٢٦.

(٣) راجع: «روح المعاني» ٧/ ١٩٩.

في سورة الأنعام باحثاً عن الإله الذي لم يكن قد توصل إليه، لا يتفق مع عصمته ﷺ كنبي ورسول، وأن المحققين من العلماء قد رفضوه وردوا عليه، وبيّنوا تهافته وسقوطه.

بل إن قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ يبين أنه في أثناء قوله كان موقناً بربه ومؤمناً به، ومدركاً تماماً أن له رباً وخالقاً يطلب منه الهداية والتوفيق.

يذكر الدكتور زاهر عواض الألمعي أن القول بأن إبراهيم ﷺ كان ناظراً لا يتفق مع عصمة إبراهيم ﷺ ومعرفته بربه، وأن استدلالهم بقول إبراهيم: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ حجة عليهم لا لهم، فإن إبراهيم ﷺ التجأ في طلب الهداية إلى رب له، مستقر وجوده في قرارة نفسه، وإبراهيم أعلم الناس بما يجوز في حق الله وما يمتنع من الحدوث والتغيُّر.

ثم يذكر أن قولهم إن إبراهيم في استدلاله هذا كان ناظراً باحثاً عن حقيقة الرب ليعرفه قول مخالف لما يجب أن يعتقد في أنبياء الله ورسله من العصمة والمعرفة التي لا يعتريها شك أو تردد؛ لأنهم أعلم بالله تعالى المنزّه عن صفات المحدثين.

بل إن الإنسان العادي بفطرته السليمة يشعر ضرورة بأن الله خالق كل شيء، وأن جميع ما يشاهد في الكون من مخلوقات الله تعالى، فكيف مالت فطرة إبراهيم ﷺ ـ تلك الفطرة الطاهرة السليمة ـ إلى نوع من الشك في ربه حتى ذهب يستقرئ أفراد الكواكب ليقول في كل مرة لواحد منها إنه ربه[١].



(١) راجع: «مناهج الجدل في القرآن الكريم» ص١٨٦، ١٩١.

المبحث الثالث

الاتجاه الثالث والرأي الصحيح
في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾

بعد أن تبيَّن لنا بطلان ما ذهب إليه كل من أصحاب الاتجاه الأول، والاتجاه الثاني، من ناحيتَي السند والمتن، حيث وجدنا أن ما اعتمد عليه الفريق الأول من روايات إنما هي روايات إسرائيلية منكرة لا يصح الاحتجاج بها، ولا يجوز الاعتماد عليها، ورأينا كذلك منافاة ما ذهب إليه الفريق الثاني واشترك فيه مع الفريق الأول لعصمة الأنبياء والرسل، حيث اصطفاهم ربهم وزكّاهم، وطهرهم ونقاهم من كل ما يعيبهم ويشينهم.

بعد أن تبين لنا كل ذلك لا بد من بيان ما ذهب إليه أصحاب الاتجاه الثالث، حيث رفضوا ما ذهب إليه أصحاب الاتجاهين: الأول والثاني من أن إبراهيم عليه السلام كان في قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ ناظراً ومستدلاً ومسترشداً لنفسه حتى توصل إلى اليقين بعد التأكد من أفول كل من الكوكب والقمر والشمس.

وإن كان أصحاب الاتجاه الأول قد اعتمدوا على روايات خرافية منكرة، بينما لم يعتد بها أصحاب الاتجاه الثاني إلا أنهم وافقوهم في أن الخليل قال ذلك كله في حالة التأمل بغية الوصول إلى الحق واليقين في معرفة الله عز وجل، حيث كان كل ذلك في حال الطفولة وقبل البلوغ.

ثم رأى أصحاب هذا الاتجاه الثالث أن ما قاله الخليل إبراهيم عليه السلام إنما كان في مواجهة بينه وبين قومه حيث كانوا يعبدون الكواكب، وأن

ذلك كان بعد البلوغ، بل بعد أن آتاه الله النبوة وأنعم عليه بالرسالة، لكنهم اختلفوا في توجيه ما ذهبوا إليه:

حيث يذهب البعض إلى أن المراد من قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ الاستفهام الوارد مورد الإنكار، أو على سبيل الإنكار، إلا أنه أسقط حرف الاستفهام استغناء عنه لدلالة الكلام عليه، ويكون قد ذكره على وجه التوبيخ منكراً لفعلهم، ويكون المعنى: أمثل هذا يكون رباً؛ أي: ليس هذا ربي.

وقد ورد في التنزيل: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾؛ أي: أفهم الخالدون[1].

جاء في «تفسير الطبري» أن هناك من جعل قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ أهذا ربي على وجه الإنكار والتوبيخ؛ أي: ليس هذا ربي، وقالوا: قد تفعل العرب مثل ذلك فتحذف الألف التي تدل على معنى الاستفهام.

وزعموا أن من ذلك قول الشاعر:

رفوني وقالوا خويلد لا ترع فقلت وأنكرت الوجوه هم هم

يعني: أهم هم.

ومن ذلك قول أوس:

لعمرك ما أدري وإن كنت دارياً شعيب بن سهم أو شعيب بن منقر

بمعنى: أشعيب بن سهم، فحذف الألف[2].

وجاء في «تفسير القرطبي»:

---

(١) راجع: «مفاتيح الغيب» ١٣/ ٤٩، ٥٠؛ و«الشفا» للقاضي عياض ٢/ ٧٢٢، و«معالم التنزيل» للبغوي ٢/ ١١٠.

(٢) «تفسير الطبري» ٧/ ١٦٤.

لعمرك ما أدري وإن كنت دارِياً بسبع رمين الجمر أم بثمان[1]

ويذكر الآلوسي أن في الكلام استفهاماً إنكارياً محذوفاً؛ وأن حذف أداة الاستفهام كثير في كلامهم، ومنه قوله: «ثم قالوا تحبها قلت بهراً».

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾ إن المعنى: أفلا أقتحم، وجعل من ذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾[2].

ويذهب البعض الآخر إلى أن قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ معناه: هذا ربي على زعمكم وفي اعتقادكم، ونظيره أن يقول الموحد للمجسِّم على سبيل الاستهزاء: إن إلٰهه جسم محدود؛ أي: في زعمه واعتقاده، قال تعالى مخبراً عن سيدنا موسى عليه السلام: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾، يريد إلٰهك بزعمك، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾، وقال تعالى أيضاً: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾؛ أي: عند نفسك وبزعمك.

وهذا الأسلوب فيه نوع من الاحتجاج عليهم[3].

ويذهب البعض الثالث إلى أن يكون القول مضمراً فيه، والتقدير: قال: يقولون: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، وإضمار القول في القرآن الكريم كثير وذلك كقوله تعالى:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾؛ أي: يقولون: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾.

---

(١) ٧/ ٢٧. (٢) راجع: «روح المعاني» ٧/ ١٩٩.

(٣) راجع: «مفاتيح الغيب» ١٣/ ٤٩؛ و«تفسير البغوي» ٢/ ١١٠؛ و«تفسير القرطبي» ٧/ ٢٧.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾؛ أي: يقولون ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾، فكذا ههنا التقدير: إن إبراهيم عليه السلام قال لقومه: يقولون ﴿هَذَا رَبِّي﴾؛ أي: هذا هو الذي يدبرني ويربِّيني[1].

وهناك من يرى أن يكون الخليل عليه السلام قد ذكر هذا الكلام على سبيل الاستهزاء والسخرية كما يقال لذليل ساد قوماً: هذا سيدكم على سبيل الاستهزاء به والسخرية منه والتهكم عليه[2].

الرأي الصحيح والمعتمد:

وإذا كانت هذه الآراء في مجموعها محتملة ومقبولة حيث قصد بالقول بها تنزيه مقام الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام عن الشك والحيرة، واعتقاد ربوبية ذلك، لمنافسته للعصمة.

وهذا مسلَّم به لا ريب، ولكن الأوجه من جميع ذلك كله فيما يقول الشيخ جمال الدين القاسمي: أن قوله ﴿هَذَا رَبِّي﴾ من باب استعمال النصفة مع الخصوم، على سبيل الوضع، وهو سوق مقدمة في الدليل لا يعتقدها، لكونها مسلمة عند غيره، لأجل إلزامه بها، وهو مصطلح أهل الجدل[3].

فالوجه الصحيح والمعتمد عند الكثرة من العلماء والمحققين يتمثل في أن سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام كان في قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ في مقام المناظرة لقومه، حيث كان يناقشهم ويجادلهم، ويستدل عليهم، فأرخى لهم العنان، وسلَّم لهم أو بمعنى أصح تظاهر بالتسليم والموافقة لهم في

---

(١) راجع: المصادر السابقة.

(٢) راجع: «مفاتيح الغيب» ١٣/ ٥٠؛ و«روح المعاني» ٧/ ١٩٩.

(٣) راجع: «محاسن التأويل» ٦/ ٢٣٧٦، ٢٣٧٧.

بعض معتقداتهم تجاه الكواكب، ثم كر عليهم بإبطال هذه المعتقدات، وهدمها من أساسها، واجتثاثها من جذورها، حتى يكون ذلك أبلغ في الإلزام لهم، والاحتجاج عليهم.

يذكر الإمام الآلوسي أن قول الخليل عليه السلام: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ كان منه على سبيل الفرض وإرخاء العنان مجاراة مع أبيه وقومه الذين كانوا يعبدون الأصنام والكواكب.

فإن المستدل على فساد قول يحكيه، ثم يكر عليه بالإبطال.

ثم يقول العلامة الآلوسي: «وهذا هو الحق الحقيق بالقبول»[1].

والإمام الآلوسي حجة، وكونه يقطع بأن هذا الرأي هو الرأي الحق، وأنه الرأي الحقيق بالقبول، فإن ذلك يوحي بمدى قوة هذا الرأي، واعتباره هو الرأي الصحيح والمعتمد.

جاء في «فتح الباري» للحافظ ابن حجر أن قول الخليل عليه السلام:

﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ «قاله على طريق الاحتجاج على قومه تنبيهاً على أن الذي يتغير لا يصلح للربوبية، وهذا قول الأكثر أنه قاله توبيخاً لقومه أو تهكماً بهم وهو المعتمد»[2].

ولذلك فإن القاضي عياض يرى أن هذا الرأي هو ما ذهب إليه جمهور العلماء والمحققين من المفسرين وغير المفسرين.

حيث يقول: «وذهب معظم الحذاق من العلماء والمفسرين إلى أنه إنما قال ذلك مبكِّتاً لقومه ومستدلّاً عليهم»[3].

---

(١) راجع: «روح المعنى» ٧/ ١٩٨.

(٢) «فتح الباري شرح صحيح البخاري» ٦/ ٤٥١.

(٣) «الشفا» ٢/ ٧٢٢.

فإذا ما بدأنا أولاً بالعلماء من غير المفسرين، فسوف نتحدث عن كل من الأئمة: ابن قتيبة، وابن حزم، والشهرستاني.

ثم بعد ذلك نتحدث عن العلماء من المفسرين حيث نتحدث عن العلامة الزمخشري، والإمام الرازي، وشيخ الإسلام أبي السعود من المفسرين بالرأي، ثم نبين موقف الحافظ ابن كثير من المفسرين بالمأثور.

وأخيراً نشير إلى موقف الشيخين: رشيد رضا وابن عاشور من العلماء المعاصرين إشارة إلى أن هذا الرأي قال به جمهور العلماء من القدامى والمحدثين.

أولاً: العلماء من غير المفسرين:

ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ):

ولعل أول من تعرَّض لهذا الموضوع ـ حسب علمي ـ الإمام ابن قتيبة حيث بيّن في كتابه «تأويل مشكل القرآن» ـ بعد أن أشار إلى الآيات الكريمة من أول قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ـ أن العصر الذي بعث الله ﷻ، فيه إبراهيم صلى الله عليه، كان عصر نجوم وكهانة، وكان قومه يعظمون النجوم، ويقضون بها على غائب الأمور.

ثم ذكر أن إبراهيم عليه السلام حينما قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ على الكوكب الذي هو الزهرة، كان يريد أن يستدرجهم بهذا القول، ويعرفهم خطأهم وجهلهم في تعظيمهم شأن النجوم، وقضائهم على الأمور بدلالتها، فأراهم أنه معظِّم ما عظموا، وملتمس الهدى من حيث التمسوا ـ وكل من تابعك على هواك، وشايعك على أمرك، كنت به أوثق وإليه أسكن وأركن ـ فأنِسوا واطمأنوا.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أراهم النقص الداخل على النجم بالأفول؛ لأنه ليس ينبغي لإلٰه أن يزول ولا أن يغيب، ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾.

واعتبر مثل ذلك في الشمس والقمر، حتى تبين للقوم ما أراد، من غير جهة العناد والمبادأة بالتنقص والعيب.

ثم قال: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وما فيها من نجم وقمر وشمس ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ وما فيها من بحر وجبل وحجر وصنم ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

واستدل ابن قتيبة على ما ذهب إليه من هذا القول بأنه مثل الحواري حين ورد على قوم يعبدون «بداً» لهم، فأظهر تعظيمه وترفيله (أي: تسويده وتعظيمه)، وأراهم الاجتهاد في دينهم، فأكرموه وفضّلوه وائتمنوه، وصدروا في كثير من الأمور عن رأيه، إلى أن دهمهم عدو لهم خافه الملك على مملكته.

فشاور الحواريَّ في أمره، فقال: الرأي أن ندعو إلهنا ـ يعني: البد ـ حتى يكشف ما قد أظلنا، فإن لمثل هذا اليوم كنا نرشحه. فاستكفوا حوله (أي: أحاطوا به ينظرون إليه) يتضرَّعون إليه ويجأرون، وأمرُ عدوهم يستفحل، وشوكته تشتد يوماً بعد يوم، فلما زين لهم من هذه الجهة أن «بُدَّهم» لا ينفع ولا يدفع، ولا يبصر ولا يسمع، قال: ههنا إلٰه آخر، أدعوه فيستجيب، وأستجيره فيجير، فهلموا فلندعه. فدعوا الله جميعاً، فصرف عنهم ما كانوا يحاذرون، وأسلموا[1].

---

(١) راجع: «تأويل مشاكل القرآن» ص٣٣٥ ـ ٣٣٧، دار التراث، الطبعة الثانية، وقد أشار البغوي إلى ابن قتيبة في تفسيره دون أن ينص عليه. راجع: «معالم التنزيل» ٢/ ١١٠.

ابن حزم (٤٥٦هـ):

كذلك فإن من العلماء غير المفسرين نجد الإمام ابن حزم رحمه الله يردُّ في كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» على من قال إن إبراهيم عليه السلام قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ محققاً أول خروجه من الغار، بأن هذا القول خرافة موضوعة مكذوبة ظاهرة الافتعال، وأنه من المحال الممتنع أن يبلغ أحد حد التمييز ويتكلم بمثل هذا وهو لم ير قط شمساً ولا قمراً ولا كوكباً.

ثم يذكر ابن حزم أن الله تعالى قد كذب هذا الظن الكاذب بقوله الصادق: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾، فمحال أن يكون من آتاه الله رشده من قبل يدخل في عقله أن الكواكب ربه، أو أن الشمس ربه من أجل أنها أكبر قرصاً من القمر.

وينتهي إلى أن هذا ما لا يظنه إلا مجنون العقل.

ثم بيّن ابن حزم أن القول الصحيح من ذلك يتمثل في أنه عليه السلام إنما قال ذلك موبخاً لقومه كما قال لهم نحو ذلك في الكبير من الأصنام، ولا فرق؛ لأنهم كانوا على دين الصابئين يعبدون الكواكب، ويصوِّرون الأصنام على صورها وأسمائها في هياكلهم، ويعيدون لها الأعياد، ويذبحون لها الذبائح، ويقربون لها القرب والقرابين والدخن، ويقولون إنها تعقل وتدبر وتضر وتنفع، ويقيمون لكل كوكب منها شريعة محدودة.

فوبَّخهم الخليل عليه السلام، وسخر منهم، وجعل يريهم تعظيم الشمس لكبر جرمها كما قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾، فأراهم ضعف عقولهم في تعظيمهم لهذه الأجرام المسخرة الجمادية، وبيّن لهم أنهم مخطئون، وأنها مدبرة تنتقل في الأماكن.

ومعاذ الله أن يكون الخليل عليه السلام أشرك قط بربه، أو شكَّ في أن الفَلك بكل ما فيه مخلوق.

ويبرهن ابن حزم على قوله هذا بأن الله تعالى لم يعاتبه على شيء مما ذكر، ولا عنَّفه على ذلك، بل صدَّقه تعالى بقوله:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾.

فصح أن هذا بخلاف ما وقع لآدم وغيره، بل وافق مراد الله ﷻ بما قال من ذلك وبما فعل[1].

الشهرستاني (ت٥٤٨هـ):

أما فيما يتعلق بالإمام الشهرستاني فإنه ضمَّن حديثه عن فرق الصابئة في كتابه «الملل والنحل» تكلم عن أصحاب الهياكل، فبين أنهم هم عبدة الكواكب لأنهم قالوا بإلٰهيتها[2]، ثم تكلم عن أصحاب الأشخاص فبيَّن أنهم هم عبدة الأوثان؛ لأنهم سموها آلهة في مقابلة الآلهة السماوية وقالوا:

﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾[3].

ثم ذكر أن الخليل إبراهيم عليه السلام قد ناظر هؤلاء الفريقين، فابتدأ بكسر مذاهب أصحاب الأشخاص...[4].

ثم عدل إلى كسر مذاهب أصحاب الهياكل، وكما أراه الله ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦]، فأطلعه على ملكوت الكونين والعالمين، تشريفاً له على الروحانيات وهياكلها، وترجيحاً لمذهب الحنفاء على مذهب الصابئة، وتقريراً أن الكمال في الرجال،

---

(١) راجع: «الفصل في الملل والأهواء والنحل» ٤/ ٥، ٦.

(٢) راجع تفصيل ذلك في: «الملل والنحل» ٢/ ٣٥٨، ٣٥٩، دار المعرفة، بيروت.

(٣) راجع تفصيل ذلك في المصدر السابق ٢/ ٣٦٠، ٣٦١.

(٤) راجع تفصيل ذلك في المصدر السابق ص٣٦٢، ٣٦٣، وسوف نشير إلى ذلك في حينه.

فأقبل على إبطال مذهب أصحاب الهياكل، ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ على ميزان إلزامه على أصحاب الأصنام ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وإلا فما كان الخليل عليه السلام كاذباً في هذا القول، ولا مشركاً في تلك الإشارة[1].

ثم استدل بالأفول؛ أي: الزوال والتغير والانتقال، على أنه لا يصلح أن يكون رباً إلهياً، فإن الإله القديم لا يتغير، وإذا تغير احتاج إلى مغيِّر.

ثم يقول: هذا لو اعتقدتموه رباً قديماً، وإلهاً أزلياً، ولو اعتقدتموه واسطة وقبلة وشفيعاً، ووسيلة، فإن الأفول؛ أي: الزوال يخرجه أيضاً عن حد الكمال، وعن هذا ما استدل عليهم بالطلوع، وإن كان الطلوع أقرب إلى الحدوث من الأفول، فإنهم إنما انتقلوا إلى عمل الأشخاص لما عراهم من التحير بالأفول، فأتاهم الخليل عليه السلام من حيث تحيرهم، فاستدل عليهم بما اعترفوا بصحته، وذلك أبلغ في الاحتجاج[2].

ثم يرد الشهرستاني على كل من ذهب إلى أن الخليل كان ناظراً في هذا المقام ولم يكن مناظراً، وأنه كان في بداية تعرُّفه على الإله.. إلخ ما قالوا، فيذكر في تعليقه على قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾﴾ ما نصُّه: «فيا عجباً ممن لا يعرف رباً، كيف يقول: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ رؤية الهداية من الرب تعالى غاية التوحيد، ونهاية المعرفة، والوصول إلى الغاية والنهاية، كيف يكون في مدارج البداية؟!!».

---

(١) راجع: «الملل والنحل» ٢/ ٣٦٣.

(٢) راجع: «الملل والنحل» ص٣٦٤.

ثم يقول:

«دع هذا كله خلف قاف، وارجع بنا إلى ما هو شاف كاف، فإن الموافقة في العبارة على طريق الإلزام على الخصم من أبلغ الحجج، وأوضح المناهج، وعن هذا قال: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ لاعتقاد القوم أن الشمس ملك الفلك، وهو رب الأرباب، الذي يقتبسون منه الأنوار، ويقبل منه الآثار»، ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾[1].

بذلك يكون سيدنا إبراهيم قد قرر مذهب الحنفاء، وأبطل مذاهب الصابئة، وبيّن أن الفطرة هي الحنيفية، وأن الطهارة فيها، وأن الشهادة بالتوحيد مقصورة عليها، وأن النجاة والخلاص متعلقة بها، وأن الشرائع والأحكام مشارع ومناهج إليها، وأن الأنبياء والرسل مبعوثون لتقريرها وتقديرها، وأن الفاتحة والخاتمة، والمبدأ والكمال منوطة بتحصيلها وتحريرها.

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ والصراط المستقيم، والمنهج الواضح، والمسلك اللائح، قال الله تعالى لنبيه المصطفى ﷺ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾[2].

---

(١) راجع: المصدر السابق ٢/ ٣٦٤.

(٢) راجع: «الملل والنحل» ٢/ ٣٦٥.

ثانياً: العلماء من المفسِّرين:

وإذا ما انتقلنا إلى العلماء من المفسرين، فإننا سوف نلاحظ أن أغلب من قال منهم بهذا القول، وتبنَّى هذا الاتجاه، إنما هم من المفسرين الذين هم في الأصل من علماء الكلام، ثم جمعوا بين الكلام والتفسير حتى عُرفوا بأنهم أصحاب التفسير بالرأي، والرأي المحمود بالذات.

حيث سأختار عدداً من هؤلاء من القدامى والمحدثين، مع الإشارة إلى الحافظ ابن كثير الذي يكاد يكون قد تفرّد من بين المفسرين بالمأثور، بنقض ما اختاره الطبري ومن تابعه، ثم آثر القول بما قال به هؤلاء العلماء الذين نزهوا سيدنا إبراهيم الخليل عن كل ما يشينه، وقالوا بما يتفق مع عصمته.

العلّامة الزمخشري (ت٥٣٨هـ):

فإذا ما بدأنا بالعلامة الزمخشري الذي هو من كبار المفسرين بالرأي، ويمثل المذهب الاعتزالي في التفسير، فسوف نجده يذكر أن قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ عطف على قول إبراهيم لأبيه في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾.

وأن قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾، جملة معترض بها بين المعطوف والمعطوف عليه.

والمعنى: «ومثل ذلك التعريف والتبصير نعرف إبراهيم ونبصره ملكوت السماوات والأرض؛ يعني: الربوبية والإلٰهية، ونوفقه لمعرفتها ونرشده بما شرحنا صدره، وسددنا نظره، وهديناه لطريق الاستدلال، وليكون من الموقنين فعلنا ذلك».

وقد عقب ابن المنيِّر على كلام الزمخشري هذا بقوله: «وفي الاعتراض بهذه الجملة تنويه بما سيأتي من استدلال إبراهيم عليه السلام، وأنه تبصير له من الله تعالى وتسديده».

ثم يذكر الزمخشري أن أبا الخليل إبراهيم وقومه كانوا يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب، فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئاً منها لا يصح أن يكون إلٰهاً لقيام دليل الحدوث فيها، وأن وراءها محدثاً أحدثها، وصانعاً صنعها، ومدبراً دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها.

لذلك فإن قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ على الكوكب هو قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل، فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهب؛ لأن ذلك أدعى إلى الحق، وأنجى من الشغب، ثم يكر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة.

وبناء على ذلك؛ فإن قوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ﴾ معناه: لا أحب عبادة الأرباب المتغيرين على حال، المتنقلين من مكان إلى مكان، المحتجبين بستر، فإن ذلك من صفات الأجرام.

وقوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ تنبيه لقومه على أن من اتخذ القمر إلٰهاً وهو نظير الكوكب في الأفول فهو ضال، وأن الهداية إلى الحق بتوفيق الله ولطفه.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ من باب استعمال النَّصَفة أيضاً مع خصومه.

ثم أشار الزمخشري أخيراً إلى أنه قيل «هذا كان نظره واستدلاله في نفسه فحكاه الله»، لكنه عقّب عليه بقوله: «والأول أظهر لقوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾، وقوله: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا

تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾؛ أي: من الأجرام التي تجعلونها شركاء لخالقها ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾»؛ أي: الذي دلّت هذه المحدثات عليه، وعلى أنه مبتدؤها ومبتدعها.

وقد عقّب ابن المنيِّر أيضاً على اختيار الزمخشري بقوله: «وصدق الزمخشري»، بل ذلك متعين، وقد ورد الحديث الوارد في الشفاعة أنهم يأتون إبراهيم عليه السلام فيلتمسون منه الشفاعة فيقول: نفسي لا أسأل أحداً غيري. ويذكر كذباته الثلاثة ويقول: لست لها. يريد: قوله لسارة: هي أختي، وإنما عنى في الإسلام، وقوله: إنه سقيم، وإنما عنى همه بقومه وبشركهم، والمؤمن يسقمه ذلك، وقوله: بل فعله كبيرهم، وقد ذكرت فيه وجوه من التعريض.

فإذا عدَّ صلوات الله عليه وسلامه على نفسه هذه الكلمات ـ مع العلم بأنه غير مؤاخذ بها ـ دل ذلك على أنها أعظم ما صدر منه، فلو كان الأمر على ما يقال من أن هذا الكلام محكي عنه على أنه نظر لنفسه لكان أولى أن يعده أكبر وأعظم مما ذكرناه لأنه حينئذ يكون شكّاً، بل جزماً.

على أن الصحيح أن الأنبياء قبل النبوة معصومون من ذلك.

ومن الواضح أن أحمد ابن المنيِّر راض تمام الرضا عن محمود الزمخشري في اختياره لهذا القول، حتى إن الزمخشري حينما علَّل احتجاج إبراهيم عليه السلام على قومه بالأفول دون البزوغ وكلاهما انتقال من حال إلى حال، بأن الاحتجاج بالأفول أظهر؛ لأنه انتقال مع خفاء واحتجاب؛ قال ابن المنيِّر تعقيباً على ذلك: «وهذه أيضاً من عيون نكته، ووجوه حسناته»[1].

---

(١) راجع: «الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل» ٢/٢٣ ـ ٢٥؛ و«الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال» مطبوع على الكشاف، ٢/٢٤، ٢٥.

العلّامة الفخر الرازي (ت٦٠٦هـ):

فإذا ما انتقلنا إلى الإمام الفخر الرازي الذي هو من كبار فحول علماء الكلام، يمثل مذهب الأشاعرة، فإننا نجده يذكر في تفسيره الكبير ـ بعد أن قام بالتوسع في إبطال ما ذهب إليه الطبري وأمثاله ـ أن كلام سيدنا إبراهيم عن الكوكب والقمر وقوله عن كل واحد منهما ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، وقوله عن الشمس: ﴿هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُ﴾، إنما وقع هذا كله بعد البلوغ، ولم يكن قبل البلوغ في حال الطفولية كما زعم البعض، ولم يكن الغرض من قوله هذا إثبات ربوبية الكواكب، ولم يكن الغرض من قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ على سبيل الإخبار، وإنما الوجه المعتمد في ذلك أن يقال:

الغرض من قول سيدنا إبراهيم: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ أنه كان يناظر عَبَدة الكواكب، وكان مذهبهم أن الكوكب ربهم وإلٰههم.

فذكر إبراهيم عليه السلام ذلك القول الذي قالوه بلفظهم وعبارتهم حتى يرجع إليه فيطلبه.

ومثاله: أن الواحد منا إذا ناظر من يقول بقدم الجسم، فيقول: الجسم قديم.

فإذا كان كذلك، فلم نراه ونشاهده مركباً متغيراً؟ فهو إنما قال: «الجسم قديم» إعادة لكلام الخصم حتى يلزم المحال عليه.

فكذا ههنا قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾.

والمقصود منه حكاية قول الخصم، ثم ذكر عقيبه ما يدل على فساده وهو قوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾.

واستدل الرازي على أن هذا الوجه هو المعتمد في الجواب بأنه تعالى دلّ في آخر الآية على هذه المناظرة بقوله تعالى:

﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾[1].

---

(١) راجع: «مفاتيح الغيب» ١٣/٤٩.

ثم فصّل الإمام الرازي القول في هذا الوجه بأن سيدنا إبراهيم ﷺ أراد أن يبطل قولهم بربوبية الكواكب، إلا أنه عليه السلام كان قد عرف من تقليدهم لأسلافهم وبُعد طباعهم عن قَبول الدلائل أنه لو صرّح بالدعوة إلى الله تعالى لم يقبلوه ولم يلتفتوا إليه، فمال إلى طريق به يستدرجهم إلى استماع الحجة.

وذلك بأن ذكر كلاماً يوهِم، كونه مساعداً لهم على مذهبهم بربوبية الكواكب مع أن قلبه صلوات الله عليه كان مطمئناً بالإيمان.

ومقصوده من ذلك: أن يتمكن من ذكر الدليل على إبطاله وإفساده وأن يقبلوا قوله.

وتمام التقرير أنه لما لم يجد إلى الدعوة طريقاً سوى هذا الطريق، وكان عليه السلام مأموراً بالدعوة إلى الله، كان بمنزلة المكرَه على كلمة الكفر، ومعلوم أنه عند الإكراه يجوز إجراء كلمة الكفر على اللسان. قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾.

فإذا جاز ذكر كلمة الكفر لمصلحة بقاء شخص واحد، فبأن يجوز إظهار كلمة الكفر لتخليص عالَم من العقلاء عن الكفر والعقاب المؤبد كان ذلك أولى.

وأيضاً المكره على ترك الصلاة لو صلّى حتى قتل استحق الأجر العظيم، ثم إذا جاء وقت القتال مع الكفار، وعلم أنه لو اشتغل بالصلاة انهزم عسكر الإسلام فهاهنا يجب عليه ترك الصلاة والاشتغال بالقتال، حتى لو صلى وترك القتال أثم، ولو ترك الصلاة وقاتل استحق الثواب.

بل نقول: إن من كان في الصلاة فرأى طفلاً أو أعمى أشرف على غرق أو حرق وجب عليه قطع الصلاة لإنقاذ ذلك الطفل أو ذلك الأعمى عن ذلك البلاء.

فكذا هٰهنا إن إبراهيم عليه السلام تكلم بهذه الكلمة ليظهر من نفسه موافقة

القوم، حتى إذا أورد عليهم الدليل المبطل لقولهم، كان قبولهم ذلك الدليل أتم، وانتفاعهم باستماعه أكمل.

ومما يقوي هذا الوجه أنه تعالى حكى عن سيدنا إبراهيم مثل هذا الطريق في موضوع آخر وهو قوله:

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

وذلك لأنهم كانوا يستدلون بعلم النجوم على حصول الحوادث المستقبلة، فوافقهم إبراهيم على هذا الطريق في الظاهر مع أنه كان بريئاً عنه في الباطن.

ومقصوده أن يتوسل بهذا الطريق إلى كسر الأصنام، فإذا جازت الموافقة في الظاهر هٰهنا، ومع أنه كان بريئاً عنه في الباطن، فلِمَ لا يجوز أن يكون في مسألتنا كذلك؟

هذا بالإضافة إلى أن المتكلمين قالوا: إنه يصح من الله تعالى إظهار خوارق العادات على يد من يدّعي الإلٰهية؛ لأن صورة هذا المدعي وشكله يدلان على كذبه فلا يحصل فيه التلبيس بسبب ظهور تلك الخوارق على يده، ولكن لا يجوز إظهارها على يد من يدّعي النبوة؛ لأنه يوجب التلبيس؛ فكذا دلائل بطلانه جليّة.

فكذا هٰهنا، قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ لا يوجب الضلال؛ لأن دلائل بطلانه جلية، وفي إظهاره هذه الكلمة منفعة عظيمة، وهي استدراجهم لقَبول الدليل، فكان جائزاً(١).

ثم يذكر الإمام الرازي أن الخليل عليه السلام قد استدل بالأفول دون الطلوع رغم أنهما يشتركان معاً في الدلالة على الحدوث، وذلك لأن الدليل الذي يحتج به الأنبياء في معرض دعوة الخلق كلهم إلى الله لا بد

---

(١) راجع: «مفاتيح الغيب» ١٣/ ٥٠، ٥١.

وأن يكون ظاهراً جلياً بحيث يشترك في فهمه الذكي والغبي والعاقل.

وإذا كانت دلالة الحركة في الطلوع على الحدوث يقينية إلا أنها دقيقة لا يعرفها إلا الأفاضل من الخلق.

أما دلالة الأفول فإنها دلالة ظاهرة يعرفها كل أحد، فإن الكوكب يزول سلطانه وقت الأفول، فكانت دلالة الأفول على هذا المقصود أتم[1].

العلامة أبو السعود (ت٩٥١هـ):

أما فيما يتعلق بالعلَّامة أبي السعود، والذي اشتهر بأنه شيخ الإسلام، فإنه بعد أن استوعب ما قاله الزمخشري وغيره ممن سبقوه جمع كل ذلك وصاغه في أسلوب جزل وعبارة قوية، بعد أن أضاف إلى كلامهم وزاد عليه في سبك عجيب، فذكر أن الإراءة في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الرؤية البصرية المستعارة للمعرفة، ونظر البصيرة.

أي: عرّفناه وبصّرناه، وصيغة الاستقبال ﴿نُرِيٓ﴾ حكاية للحال الماضية لاستحضار صورتها، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر ﴿نُرِيٓ﴾ لا إلى إراءة أخرى مفهومة من قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ﴾ وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجة المشار إليه، وبُعد منزلته في الفضل وكمال تميزه بذلك وانتظامه بسببه في سلك الأمور المشاهدة، والكاف لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة... والمقصود بملكوت السماوات والأرض: ربوبيته تعالى ومالكيته لهما وسلطانه القاهر عليهما، وكونهما بما فيهما مربوباً ومملوكاً له تعالى، لا تبصيراً آخر أدنى منه.

وقوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ متعلق بمحذوف ومؤخر، والجملة اعتراض مقرِّر لما قبلها؛ أي: وليكون من زمرة الراسخين في الإيقان

---

(١) راجع تفصيل ذلك في المصدر السابق ١٣/ ٥٢، ٥٣.

البالغين درجة عين اليقين من معرفة الله تعالى فعلنا من التبصير البديع المذكور لا لأمر آخر.

فإن الوصول إلى تلك الغاية القاصية كمال مترتب على ذلك التبصير لا عينه، وليس القصر لبيان انحصار فائدته في ذلك، كيف لا وإرشاد الخلق وإلزام المشركين كما سيأتي من فوائده بلا مرية.

بل لبيان أنه الأصل الأصيل، والباقي من مستتبعاته[1].

وبناء على ذلك؛ فإن قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ عطف على «قال إبراهيم» داخل تحت ما أمر بذكره بالأمر بذكر وقته، وما بينهما اعتراض مقرر لما سبق وما لحق:

فإن تعريفه عليه السلام ربوبيته ومالكيته للسماوات والأرض وما فيهما، وكون الكل مقهوراً تحت ملكوته مفتقراً إليه في الوجود، وسائر ما يترتب عليه من الكمالات، وكونه من الراسخين في معرفة شؤونه تعالى الواصلين إلى ذروة عين اليقين، مما يقضي بأن يحكم عليه السلام باستحالة إلٰهية ما سواه سبحانه من الأصنام والكواكب.

وقوله: ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ جواب لما: فإن رؤيته إنما تتحقق بزوال نور الشمس عن الحس، وهذا صريح في أنه لم يكن في ابتداء الطلوع، بل كان غيبته عن الحس بطريق الاضمحلال بنور الشمس، والتحقيق أنه كان قريباً من الغروب[2].

ثم ذكر العلامة أبو السعود أن قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام:

﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من الشرطية السابقة المتفرعة على بيان إراءته عليه السلام ملكوت السماوات والأرض، فإن ذلك مما

---

(١) راجع: «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم» ٣/ ١٥١، ١٥٢.

(٢) راجع: المصدر السابق ٣/ ١٥٢، ١٥٣.

يحمل السامع على استكشاف ما ظهر منه عليه السلام من آثار تلك الإراءة وأحكامها، كأنه قيل: فماذا صنع عليه السلام حين رأى الكوكب؟ فقيل:

قال على سبيل الوضع والفرض: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ مجاراة مع أبيه وقومه الذين كانوا يعبدون الأصنام والكواكب، فإن المستدل على فساد قول يحكيه على رأي خصمه، ثم يكر عليه بالإبطال.

ويرى أبو السعود أن سلوك هذه الطريقة في بيان استحالة ربوبية الكواكب دون بيان استحالة إلٰهية الأصنام راجع إلى أن هذا أخفى بطلاناً واستحالة من الأول، فلو صدع بالحق من أول الأمر كما فعله في حق عبادة الأصنام لتمادوا في المكابرة والعناد، ولجوا في طغيانهم يعمهون.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾؛ أي: الأرباب المنتقلين من مكان إلى مكان المتغيرين من حال إلى حال، المحتجبين بالأستار، فإنهم بمعزل من استحقاق الربوبية قطعاً[1].

وقوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا﴾؛ أي: مبتدئاً في الطلوع إثر غروب الكوكب ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ على الأسلوب السابق ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ كما أفل النجم ﴿قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي﴾ إلى جنابه الذي هو الحق الذي لا محيد عنه ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ فإن شيئاً مما رأيته لا يليق بالربوبية.

وهذا ـ فيما يقول أبو السعود ـ مبالغة منه عليه السلام في إظهار النصفة.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ﴾؛ أي: مبتدئة في الطلوع ﴿قَالَ﴾؛ أي: على النهج السابق: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، وإنما لم يؤنث لما أن المشار إليه والمحكوم عليه بالربوبية هو الجرم المشاهد من حيث هو لا من حيث هو مسمى باسم من الأسامي فضلاً عن حيثية تسميته بالشمس، أو لتذكير الخبر وصيانة الرب عن وصمة التأنيث.

---

(١) راجع المصدر السابق ٣/ ١٥٣.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾ تأكيد لما رامه عليه السلام من إظهار النصفة مع إشارة خفية إلى فساد دينهم من جهة أخرى ببيان أن الأكبر أحق بالربوبية من الأصغر ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتۡ﴾ هي أيضاً كما أفل الكوكب والقمر ﴿قَالَ﴾ مخاطباً للكل صادعاً بالحق بين أظهرهم ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾؛ أي: من الذي تشركونه من الأجرام المحدثة المتغيرة من حالة إلى أخرى المسخرة لمحدثها، أو من إشراككم.

ثم يذكر العلامة أبو السعود أن ترتيب هذا الحكم ونظيريه على الأفول دون البزوغ والظهور من ضروريات سَوق الاحتجاج على هذا المساق الحكيم:

فإن كلّاً منهما وإن كان في نفسه انتقالاً منافياً لاستحقاق معروضه للربوبية قطعاً، لكن لما كان الأول حالة موجبة لظهور الآثار ملائمة لتوهم الاستحقاق في الجملة رتب عليها الحكم الأول على الطريقة المذكورة، وحيث كان الثاني حالة مقتضية لانطماس الآثار وبطلان الأحكام المنافيين للاستحقاق المذكور منافاة بيّنة يكاد يعترف بها كل مكابر رتب عليها ما رتب[١].

ثم لما تبرأ عليه السلام منهم توجه إلى مبدع هذي المصنوعات ومنشئها قال: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ التي هذه الأجرام التي تعبدونها من أجزائها «والأرض» التي تغيب هي فيها ﴿حَنِيفٗاۖ﴾؛ أي: مائلاً عن الأديان الباطلة، والعقائد الزائغة كلها.

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ في شيء من الأفعال والأقوال[٢].

---

(١) راجع: المصدر السابق ٣/ ١٥٤.

(٢) راجع: المصدر السابق ٣/ ١٥٤.

الحافظ ابن كثير (ت٧٧٤هـ):

ومن الملاحظ أن هؤلاء المفسِّرين الذين تخيَّرتهم إنما هم من كبار المفسرين بالرأي، وليس معنى ذلك أن هذا الرأي الصحيح الذي ارتضاه هؤلاء إنما هو وقف عليهم فقط دون أصحاب التفسير بالمأثور.

وإنما وجدنا الحافظ ابن كثير وهو صاحب «العمدة» في التفسير بالمأثور ـ وهو من هو من بين المفسرين بالمأثور ـ بعد أن أشار إلى اختلاف المفسرين في هذا المقام: هل هو مقام نظر أو مناظرة، انتهى إلى الثاني وقرر ذلك في وضوح وحزم فقال:

والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه مبيّناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبيّن في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية التي هي على صور الملائكة السماوية ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذي هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر وغير ذلك مما يحتاجون إليه.

وبيّن في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة، وهي: القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل، وأشدهن إضاءة وأشرفهن عندهم الشمس ثم القمر ثم الزهرة.

فبيّن أولاً صلوات الله وسلامه عليه أن هذه الزهرة لا تصلح للإلٰهية فإنها مسخرة مقدرة بسير معين لا تزيغ عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تملك لنفسها تصرفاً، بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرة، ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال، ومثل هذه لا تصلح للإلٰهية.

ثم انتقل إلى القمر فبيّن فيه مثل ما بيّن في النجم، ثم انتقل إلى

الشمس كذلك، فلما انتفت الإلٰهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾؛ أي: أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن، فإن كانت آلهة فكيدوني بها جميعاً ثم لا تنظرون، ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾؛ أي: إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدِّرها ومدبِّرها الذي بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤][١].

وإذا كان هذا هو ما ذكره ابن كثير في «تفسيره»، فإنه ذهب أيضاً في «تاريخه» إلى أن هذا المقام الذي قال فيه سيدنا إبراهيم هذا القول: ﴿هَـٰذَا رَبِّي﴾ هو مقام مناظرة لقومه، وبيان لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة لا تصلح للألوهية، ولا أن تعبد مع الله ﷻ؛ لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبرة مسخرة، تطلع تارة، وتأفل تارة أخرى، فتغيب عن هذا العالم، والرب تعالى لا يغيب عنه شيء، ولا تخفى عليه خافية، بل هو الدائم الباقي بلا زوال، لا إلٰه إلا هو ولا رب سواه.

فبيّن لهم أولاً عدم صلاحية الكوكب (قيل: هو الزهرة)، ثم ترقى منها إلى القمر الذي هو أضوأ منها، وأبهى من حسنها، ثم ترقى إلى الشمس التي هي أشد الأجرام ضياءً وسناءً وبهاءً، فبيّن أنها مسخرة مقدرة مربوبة كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» ٢/ ١٥١.

ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً﴾؛ أي: طالعة، ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ۗ﴾.

أي: لست أبالي في هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله، فإنها لا تنفع شيئاً ولا تسمع ولا تعقل، بل هي مربوبة مسخرة كالكواكب ونحوها، أو مصنوعة منحوتة منجورة[1].

ثالثاً: من المفسرين المعاصرين:

وإذا كنت قد تخيَّرت هؤلاء المفسرين من القدامى، فليس معنى ذلك أيضاً: أن المحدثين من المفسرين لم يسهموا في هذا المجال، وأن هذه المساهمة كانت وقفاً على القدماء فقط.

كلا، بل إن منهم من أسهم في هذا المجال بجهد مشكور وفضل غير منكور، ومن هؤلاء أتخير العالِمَين الفاضلين:

الشيخ محمد رشيد رضا صاحب «تفسير المنار»، والشيخ الطاهر ابن عاشور صاحب تفسير «التحرير والتنوير».

العلاّمة الشيخ محمد رشيد رضا (١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م):

فإذا ما بدأنا بالشيخ رشيد رضا، فإننا نجده في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يقول:

وكما أَرينا إبراهيم الحق في أمر أبيه وقومه وهو أنهم كانوا على ضلال بيِّن في عبادتهم للأصنام، كنا نريه المرة بعد المرة ملكوت

(١) راجع: «البداية والنهاية» ١/ ١٣٤، ١٣٥.

السماوات والأرض على هذه الطريقة التي يعرف بها الحق:

فهي رؤية بصرية تتبعها رؤية البصيرة العقلية، وإنما قال: «نريه» دون أريناه لاستحضار صورة الحال الماضية التي كانت تتجدد وتتكرر بتجدد رؤية آياته تعالى في ذلك الملكوت العظيم كما يعلم من التعليل الآتي، والتفصيل المترتب على هذا الإجمال في الآيات:...

أما التعليل فقوله تعالى: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾.

قيل: إن المعنى ولأجل أن يكون من أهل اليقين الراسخين فيه أريناه ما أرينا، وبصَّرناه من أسرار الملكوت ما بصَّرنا.

وقيل: إن هذا عطف على تعليل حذف لتغوص الأذهان على استخراجه من قرائن الحال، وأسلوب المقال؛ أي: نريه ذلك ليعرف سنننا في خلقنا، وحكمنا في تدبير ملكنا، وآياتنا الدالة على ربوبيتنا وألوهيتنا، ليقيم بها الحجة على المشركين الضالين، وليكون في خاصة نفسه من الواقفين على عين اليقين، وهو من الإيجاز البديع، حيث جمع به الخليل إبراهيم بين العلم النظري والعلم اللّدُنِّي.

وأما ما يترتب على ذلك من الاهتداء إلى وجه الحجة والاستدلال فقوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا...﴾.

والمعنى: أن الله تعالى لما بدأ يريه ملكوت السماوات والأرض تلك الإراءة التي عللها بما تقدم آنفاً، كان من أول أمره في ذلك أنه لما أظلم عليه الليل، وستره أو ستر عنه ما حوله من عالم الأرض، نظر في ملكوت السماء فرأى كوكباً عظيماً ممتازاً على سائر الكواكب بإشراقه وجذب النظر إليه ـ يدل على ذلك تنكير الكوكب ـ وقد روي عن ابن عباس أنه «المشتري» الذي هو أعظم آلهة بعض عبّاد الكواكب من قدماء اليونان والروم، وكان قوم إبراهيم سلفهم وأئمتهم في هذه العبادة، وعن قتادة أنه الزهرة.

فماذا قال لما رآه ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾؛ أي: مولاي ومدبر أمري.

ثم أشار الشيخ رشيد رضا إلى الذي جزم به الجمهور في هذا القول، فذكر أن الخليل عليه السلام كان مناظراً لقومه، فقال ما قال، تمهيداً للإنكار عليهم، فحكى مقالتهم أولاً حكاية استدرجهم بها إلى سماع حجته على بطلانها.

إذ أوهمهم أنه موافق لهم على زعمهم، ثم كرَّ عليه بالنقض بانياً دليله على قاعدة الحس ونظر العقل[1].

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾؛ أي: فلما غرب هذا الكوكب واحتجب، قال: لا أحب من يغيب ويحتجب، ويحول بينه وبين محبه الأفق أو غيره من الحجب.

وأشار بقوله: ﴿ٱلْآفِلِينَ﴾ إلى أن هذا الكوكب فرد من أفراد جنس كله يغيب ويأفل، والعاقل السليم الفطرة والذوق لا يختار لنفسه حب شيء يغيب عنه ويوحشه، فَقَدَ جماله وكماله، حتى في الحب الذي هو دون حب العبادة، فإن أحب شيئاً من ذلك بجانب الشهوة دون الاختيار، فلا يلبث أن يسلو عنه بنزوح الدار والاحتجاب عن الأبصار، إلا أن يصير حبه من هوس الخيال، وفنون الجنون والخبال.

وأما حب العبادة الذي هو أعلى الحب وأكمله؛ لأنه من مقتضى الفطرة السليمة والعقل الصحيح، فلا يجوز إلا أن يكون للرب الحاضر القريب، السميع البصير الرقيب، الذي لا يغيب ولا يأفل، ولا ينسى ولا يذهل، الظاهر في كل شيء بآياته وتجليه، الباطن في كل شيء بحكمته ولطفه الخفي فيه ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾، ولكن تشاهده البصائر بآثار صفاته في الخلق والتقدير،

---

(١) راجع: «تفسير المنار» ٧/ ٤٦٢ ـ ٤٦٥.

وسلطانه في التصرف والتدبير، وما كان ليخفى على الخليل الأول ما قاله الخليل الثاني في مقام الإحسان: وما ملَّته إلا عين مِلَّته في الإسلام والإيمان وهو: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»، فكيف يعبد هذه الكواكب التي تأفل وتحجب عن عابديها، ويخفى حالهم عليها؟![1].

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾؛ أي: فلما رأى القمر طالعاً من وراء الأفق أول طلوعه ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾: على طريق الحكاية لما كانوا يقولون تمهيداً لإبطاله كما تقدم.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ أي: فلما أفل القمر كالكوكب وهو أكبر منه منظراً، وأبهى نوراً في الأرض، قال مسمعاً من حوله من قومه: لئن لم يهدني ربي الذي خلقني إلى العبادة التي ترضيه بإعلام خاص من لدنه لأكونن من القوم الضالين عما يجب أن يعبد به، فيتبعون فيه أهواءهم أو اجتهادهم فلا يكونون عابدين له بما يرضيه.

ولا يقتضي أن كل ضال يعبد الأصنام أو الكواكب، بل هذا تعريض آخر بضلال قومه يقرب من التصريح، وإرشاد إلى توقف هداية الدين على الوحي الإلٰهي، ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾؛ أي: قال مشيراً إليها على الطريقة التي بيّناها فيما قبله: هذا الذي أرى الآن أو الذي أشير إليه ربي.

وأما قوله صلوات الله وسلامه عليه ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ فهو تأكيد لإظهار النصفة للقوم، ومبالغة في تلك المجاراة الظاهرة لهم، وتمهيد قوي لإقامة الحجة البالغة عليهم، واستدراج لهم إلى التمادي في الاستماع

(١) راجع: المصدر السابق ٧/ ٤٦٥، ٤٦٦.

بعد ذلك التعريض الذي كان يخشى أن يصدهم عنه، ومعناه: أن هذا أكبر من القمر والكوكب قدراً، وأعظم ضياءً، ونوراً، فهو إذاً أجدر منهما بالربوبية، وإن كان المدار فيها على التفاضل والخصوصية.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾؛ أي: فلما أفلت كما أفل غيرها، واحتجب ضوؤها المشرق وذهب سلطانها، وكانت الوحشة بذلك أشد من الوحشة باحتجاب الكوكب والقمر، صرح عليه الصلاة والسلام بالنتيجة المرادة من ذلك التعريض، فتبرأ من شرك قومه، الذي أظهر مجاراتهم عليه في ليلته ويومه، ثم قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٧٩)﴾.

حيث تبرأ من شركهم وقفَّى على تلك البراءة ببيان عقيدته الحق وهي التوحيد الخالص فقال: إني وجهت وجهي وقصدي وجعلت توجهي في عبادتي للرب الخالق الذي فطر السماوات والأرض...

وينتهي الشيخ رشيد رضا إلى أن التعبير بفاطر السماوات والأرض هو وجه الحجة في الآية:

فإن ما فتن به القوم من تأثير النيرات في الأرض ـ إن صح ـ لم يعد أن يكون خاصية لبعض أجرام السماء وهي لم توجد نفسها ولا صفاتها وخواصها، فالواجب أن ينظر في أمرها من حيث هي جزء أو أجزاء من مجموع العالم، وحينئذ يراها الناظر المتفكر خاضعة لتدبير من فطر العالم الكبير التي هي بعضه، ويعلم أنه هو الحقيق بالعبادة من دونها؛ لأنه هو الرب الحق المدبر لها ولغيرها[1].

هذا وقد عاب الشيخ رشيد رضا على من فسَّروا الأفول بالانتقال من مكان إلى مكان، وجعلوا هذا هو المنافي للربوبية لدلالته على

---

(١) راجع: المصدر السابق ٧/ ٤٦٦ ـ ٤٧٠.

الحدوث أو الإمكان، ويرى أن هذا تفسير للشيء بما قد يباينه، حيث إن العرب قد استعملوا الأفول بمعنى الغيوب والخفاء، وقد يتحول الشيء وينتقل من مكان إلى آخر وهو ظاهر غير محتجب.

وبيّن أيضاً غلط من فسّروا الأفول بالتغير ليجعلوه علة الحدوث المنافي للربوبية أيضاً، معلِّلاً ذلك بأن الشمس والقمر والنجوم لا تتغير بأفولها.

ثم بيّن أن الصحيح هو ما ذهب إليه المتأخرون من علماء الفلك من أن أفولها إنما يكون بسبب حركة الأرض لا بحركتها هي، وأن حركتها على محاورها وحركة السيارات من الغرب إلى المشرق ليست من سبب أفولها المشاهد في شيء.

وينتهي في هذه النقطة إلى أن الكلام فيه تعريض لطيف من الخليل بجهل قومه في عبادة الكواكب بأنهم يعبدون ما يحتجب عنهم، ولا يدرون شيئاً من أمر عبادتهم، ولا يظهر هذا التعريض على قول هؤلاء في تفسير الأفول، فإن قوم إبراهيم لم يكونوا على شيء من هذه النظريات الكلامية، بل كانوا يعبدون الأفلاك قائلين بربوبيتها، وبقدمها مع حركتها[1].

العلّامة الشيخ الطاهر ابن عاشور (١٣٩٤هـ) الموافق ١٩٧٣م:

أما فيما يتعلق بالمفسِّر الثاني من المفسِّرين المعاصرين، وهو الشيخ الإمام الطاهر ابن عاشور، فإنه يذكر في تفسيره أن قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ تفريع على قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بقرينة قوله: ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾.

فإن الكوكب من ملكوت السماوات، وقوله في المعطوف عليه:

(١) راجع: المصدر السابق ٧/ ٤٦٦.

﴿نُرِيَ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فهذه الرؤية الخاصة التي اهتدى بها إلى طريق عجيب في إبكات قومه ملجئ إياهم للاعتراف بفساد معتقدهم، هي فرع من تلك الإراءة التي عمَّت ملكوت السماوات والأرض؛ لأن العطف بالفاء يستدعي مزيد الاتصال بين المعطوف والمعطوف عليه لما في معنى الفاء من التفريع والتسبب.

ثم يذكر أن جملة ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً جواباً لسؤال ينشأ عن مضمون جملة ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾[1].

وهو أن يسأل سائل:

فماذا كان عندما رآه، فيكون قوله: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ جواباً لذلك.

واسم الإشارة هنا لقصد تمييز الكوكب من بين الكواكب، ولكن إجراؤه على نظيريه في قوله حين رأى القمر وحين رأى الشمس ﴿هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ يعين أن يكون القصد الأصلي منه هو الكتابة بالإشارة عن كون المشار إليه أمراً مطلوباً مبحوثاً عنه، فإذا عثر عليه أشير إليه، وذلك كالإشارة في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾.

وتعريف الجزءين مفيد للقصر؛ لأنه لم يقل: هذا رب، فدل هذا على أن إبراهيم عليه السلام أراد استدراج قومه، فابتدأ بإظهار أنه لا يرى تعدد الآلهة ليصل بهم إلى التوحيد، واستبقى واحداً من معبوداتهم، ففرض استحقاقه الإلٰهية، كيلا ينفروا من الإصغاء إلى استدلاله[2].

---

(١) ويذكر ابن عاشور أن ظاهر قوله: ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ أنه حصلت له رؤية الكواكب عرضاً من غير قصد للتأمل، وإلا فإن الأفق في الليل مملوء كواكب، وأن الكوكب كان حين رآه واضحاً في السماء مشرقاً بنوره، وذلك أنور ما يكون في وسط السماء، فالظاهر أنه رأى كوكباً من بينها شديد الضوء.

(٢) راجع: «تفسير التحرير والتنوير» ٧/٣١٧ ـ ٣١٩.

ثم استدل ابن عاشور من خلال تكرار قوله: ﴿قَالَ﴾ والذي يفيد أنه كان يخاطب غيره، على أن إبراهيم عليه السلام قال ذلك على سبيل المجادلة لقومه وإرخاء العنان لهم، ليصلوا إلى تلقي الحجة ولا ينفروا من أول وهلة، وأنه قد جمع جمعاً من قومه وأراد الاستدلال عليهم[1].

وقوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾؛ أي: خالقي ومدبري فهو مستحق عبادتي، قاله على سبيل الفرض جرياً على معتقد قومه ليصل بهم إلى نقض اعتقادهم، فأظهر أنه موافق لهم ليهشوا إلى ذلك، ثم يكر عليهم بالإبطال إظهاراً للإنصاف وطلب الحق، ويؤكد ابن عاشور على هذا التفسير ويبين ضرورة قول سيدنا إبراهيم به، وينبري للرد على من يقول بخلافه فيذكر أنه «لا يريبك في هذا أن صدور ما ظاهره كفر على لسانه عليه السلام؛ لأنه لما رأى أن ذلك طريق إلى إرشاد قومه، وإنقاذهم من الكفر، واجتهد فرآه أرجى للقبول عندهم، ساغ له التصريح به لقصد الوصول إلى الحق وهو لا يعتقده.

ولا يزيد قوله هذا قومه كفراً؛ كالذي يكره على أن يقول كلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان، فإنه إذا جاز ذلك لحفظ نفس واحدة، وإنقاذها من الهلاك كان جوازه لإنقاذ فريق من الناس من الهلاك في الدنيا والآخرة أولى.

وينتهي ابن عاشور في «تفسيره» لهذه الآية إلى أنه قد يكون إبراهيم عليه السلام فعل ذلك بإذن من الله تعالى بالوحي»[2].

ثم يذكر ابن عاشور في قوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾: «أن الأفول خاص بغياب النيرات السماوية، ومعناه: المغيب الذي يكون بغروب الكوكب وراء الأفق بسبب الدورة اليومية للكرة الأرضية، حيث

---

(١) سبق تفصيل قوله هذا في الحديث عن الحجة السادسة.

(٢) راجع: المصدر السابق ٧/٣١٩، ٣٢٠.

لا يقال: أفَلَت الشمس أو أفل النجم إذا احتجب بسحاب.

والحب في قوله: ﴿لَآ أُحِبُّ﴾ بمعنى: الرضا والإرادة؛ أي: لا أرضى بالآفل إلٰهاً، أو لا أريد الآفل إلٰهاً، وقد علم أن متعلق المحبة هو إرادته إلٰهاً له بقوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾.

وجاء بالآفلين بصيغة جمع الذكور العقلاء المختص بالعقلاء بناء على اعتقاد قومه أن الكواكب عاقلة متصرفة في الأكوان، ولا يكون الموجود معبوداً إلا وهو عالم.

ثم بيّن وجه الاستدلال بالأفول على عدم استحقاق الإلٰهية بأن الأفول مغيب وابتعاد عن الناس، وشأن الإلٰه أن يكون دائم المراقبة لتدبيره عباده، فلما أفل النجم كان في حالة أفوله محجوباً عن الاطلاع على الناس.

وقد بنى هذا الاستدلال على ما هو شائع عند القوم من كون أفول النجم مغيباً عن هذا العالم؛ يعني: أن ما يغيب لا يستحق أن يُتخذ إلٰهاً؛ لأنه لا يغني عن عباده فيما يحتاجونه حين مغيبه.

ويرى أن الاستدلال بالأفول ليس منظوراً فيه إلى التغير؛ لأنه قومه لم يكونوا يعلمون الملازمة بين التغير وانتفاء صفة الإلٰهية؛ ولأن الأفول ليس تغيُراً في ذات الكوكب، بل هو عرض للأبصار المشاهدة له، أما الكوكب فهو باق في فلكه ونظامه، يغيب ويعود إلى الظهور، وقوم إبراهيم يعلمون ذلك فلا يكون ذلك مقنعاً لهم.

ومن أجل هذا فإن الخليل قد احتج بحالة الأفول دون حالة البزوغ، فإن البزوغ وإن كان طرأ بعد أفول، لكن الأفول السابق غير مشاهد لهم، فكان الأفول إذن أخصر في الاحتجاج من أن يقول: إن هذا البازغ كان من قبل آفلاً.

ثم يضيف ابن عاشور إلى ذلك بأن قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن

لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾، قصد به سيدنا إبراهيم تنبيه قومه للنظر في معرفة الرب الحق وأنه واحد، وأن الكوكب والقمر كليهما لا يستحقان ذلك، مع أنه عرض في كلامه بأن له رباً يهديه وهم لا ينكرون عليه ذلك لأنهم قائلون بعدة أرباب.

وفي هذا تهيئة لنفوس قومه لما عزم عليه من التصريح بأن له رباً غير الكواكب، ثم عرَّض بقومه أنهم ضالون وهيَّأهم قبل المصارحة للعلم بأنهم ضالون:

لأن قوله: ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ يدخل على نفوسهم الشك في معتقدهم أن يكون ضلالاً.

ولأجل هذا التعريض لم يقل: لأكوننَّ ضالّاً، وقال: ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ يعني: قومه.

أما قوله للشمس: ﴿هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ فإن جملة ﴿هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ جارية مجرى العلة لجملة ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ المقتضية نقض ربوبية الكوكب والقمر، وحصر الربوبية في الشمس ونفيها عن الكوكب والقمر، ولذلك حذف المفضل عليه لظهوره؛ أي: هو أكبر منها؛ يعني: أن الأكبر الأكثر إضاءة أولى باستحقاق الإلٰهية[1].

وقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ إقناع لهم بأن لا يحاولوا موافقته إياهم على ضلالهم؛ لأنه لما انتفى استحقاق الإلٰهية عن أعظم الكواكب التي عبدوها فقد انتفى عما دونها بالأحرى.

وتسمية عبادتهم الأصنام إشراكاً؛ لأن قومه كانوا يعترفون بالله ويشركون معه في الإلٰهية غيره، كما كان إشراك العرب وهو ظاهر؛ أي: القرآن، حيث ورد فيها الاحتجاج عليهم بخالق السماوات والأرض،

---

(١) راجع: المصدر السابق ٧/ ٣٢٠ ـ ٣٢٢.

وهو المناسب لضرب المثل لمشركي العرب بشأن إبراهيم وقومه.

أما قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ ليومئ إلى علة توجهه إلى عبادته؛ لأن الكواكب من موجودات السماء، والأصنام من موجودات الأرض فهي مفطورة لله تعالى.

وأفادت جملة: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تأكيداً لجملة ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾، وإنما عُطفت لأنها قُصد منها التبري من أن يكون من المشركين[1].

وبذلك فإن الإمام ابن عاشور في «تفسيره» لهذه الآيات الكريمة يكون قد جرى فيه على أن قول إبراهيم لـمَّا رأى النيرات: «الكوكب والقمر والشمس» ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ هو مناظرة لقومه واستدراج لهم، وأنه كان موقناً بنفي إلٰهيتها: حيث كان يرى أن هذا هو المناسب لصفة النبوة أن يكون أوحي إليه ببطلان الشرك، وبالحجج التي احتج بها على قومه[2].

ولعل القارئ بعد عرض هذه الشبهة ونقدها هذا النقد الشامل الموسع يكون قد أدرك مدى تهافتها وسقوطها.

بل أستطيع أن أزعم بأن هذه الشبهة قد تلاشت وانمحت تماماً.

وإذا أردنا تعبيراً مناسباً مستوحًى من الموضوع فنقول: إنها قد أفلت، بمعنى أنها غابت واحتجبت إلى غير رجعة.

وبذلك تسقط دعوى النافين لعصمة الخليل إبراهيم عليه السلام، وتتأكد هذه العصمة، وتظل دائماً لصيقة به، ثابتة له، لا تنفك عنه ولا تزول.



---

(١) راجع: المصدر السابق ٧/ ٣٢٢ ـ ٣٢٤.

(٢) راجع: المصدر السابق ٧/ ٣٢٤.



الفصل الثاني

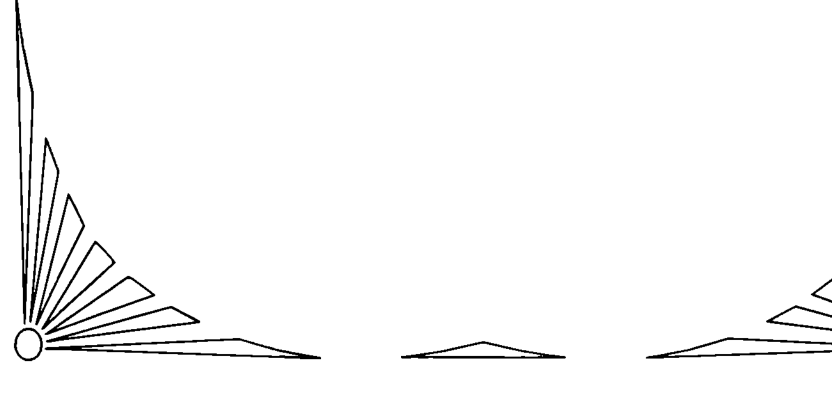
الشبهة الثانية

حول تصورهم لقول الخليل: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾

تمهيد.

المبحث الأول: اتجاهات العلماء المختلفة في فهم قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾.

المبحث الثاني: بطلان ما ذهب إليه الطبري، ومن ذهب مذهبه.



تمهيد

تتمثل هذه الشبهة في ما تمسَّك به النافون لعصمة الخليل إبراهيم عليه السلام من خلال فهمهم لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

حيث زعموا أن طلب الخليل هذا وسؤاله من ربه أن يريه كيفية إحيائه للموتى يدلَّان على أنه كان يشك في قدرة الله عز وجل على إحياء الموتى، ومعنى أنه يشك في ذلك يدل على أنه لم يكن موقناً في اعتقاده تجاه هذه القدرة الإلٰهية، وأن كل هذا يؤدي ـ والعياذ بالله ـ إلى نقص في الاعتقاد، وينفي عنه العصمة.

وقد أشار الإمام ابن حزم إلى هذه الشبهة ضمن حديثه عن الشبهات التي احتج بها نفاة العصمة عن الخليل عليه السلام، فبيّن أنهم استشهدوا على ما ذهبوا إليه «بطلبه إذ طلب رؤية إحياء الموتى ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾»(١).

كذلك الفخر الرازي ذكرها ضمن شبهات النافين لعصمة الخليل عليه السلام في كتابه «**عصمة الأنبياء**» حيث قال عنهم تمسَّكوا بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ...﴾، وهذا يدل على أنه لم يكن موقناً بقدرة الله على إحياء الأموات(٢).

---

(١) راجع: «الفصل» ٤/ ٥.

(٢) راجع: «عصمة الأنبياء» ص٧٤.

المبحث الأول

اتجاهات العلماء المختلفة في فهم قوله:

﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾

ولكي يتسنى لنا الرد على هذه الشبهة، وبيان بطلانها، لا بد من الإشارة أولاً إلى ما ذهب إليه العلماء في فهم الآية وتفسيرها من اتجاهات مختلفة!

يقول الطبري: واختلف أهل التأويل في سبب مسألة إبراهيم ربه أن يريه كيف يحيي الموتى.

الاتجاه الأول:

فقال بعضهم: كانت مسألته ذلك ربه: أنه رأى دابة قد تقسَّمتها السباع والطير، فسأل ربه أن يريه كيفية إحيائه إياها، مع تفرق لحومها في بطون طير الهواء وسباع الأرض، ليرى ذلك عياناً، فيزداد يقيناً برؤيته ذلك عياناً إلى علمه به خبراً، فأراه الله ذلك مثلاً بما أخبر أنه أمره به.

وممن قال بهذا الرأي الضحاك وابن جريج وابن زيد والحسن:

جاء في «تفسير الطبري» عن الضحاك قوله في قول الله تعالى على لسان الخليل عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ قال: مر إبراهيم على دابة ميت قد بلي وتقسَّمته الرياح والسباع، فقام ينظر فقال: سبحان الله! كيف يحيي الله هذا؟ وقد علم أن الله قادر على ذلك، فذلك قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

أما ابن جريج فقد قال: بلغني أن إبراهيم بينا هو يسير على الطريق، وإذا هو بجيفة حمار عليها السباع والطير قد تمزَّعت لحمها،

وبقي عظامها، فلما ذهبت السباع وطارت الطير على الجبال والآكام، وقف وتعجب، ثم قال: رب قد علمت لتجمعنَّها من بطون هذه السباع والطير! ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ﴾! ولكن ليس الخبر كالمعاينة[1].

أما ابن زيد فقد قال: مرَّ إبراهيم بحوت نصفه في البر ونصفه في البحر، فما كان منه في البحر فدواب البحر تأكله، وما كان منه في البر فالسباع ودواب البر تأكله، فقال له الخبيث (يعني: إبليس لعنه الله): يا إبراهيم، متى يجمع الله هذا من بطون هؤلاء؟ فقال: يا ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[2].

أما فيما يتعلق بالحسن فقد نقل عنه القرطبي قوله: رأى جيفة نصفها في البر توزعها السباع، ونصفها في البحر توزعها دواب البحر، فلما رأى تفرقها أحب أن يرى انضمامها، فسأله ليطمئن قلبه برؤية كيفية الجمع كما رأى كيفية التفريق[3].

وجاء في «تفسير الرازي» أن كلّاً من الحسن والضحاك وقتادة وعطاء وابن جريج قالوا: إن إبراهيم عليه السلام رأى جيفة مطروحة في شط البحر، فإذا مد البحر أكل منها دواب البحر، وإذا ذهبت السباع جاءت الطيور فأكلت وطارت، فقال إبراهيم: رب أرني كيف تجمع أجزاء الحيوان من بطون السباع والطيور ودواب البحر، فقيل: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ﴾ ولكن المطلوب من السؤال أن يصير العلم بالاستدلال ضرورياً[4].

---

(١) راجع: «تفسير الطبري» ٥/ ٤٨٥، ٤٨٦، حققه وعلق حواشيه محمود شاكر، دار المعارف، الطبعة الثانية؛ و«تفسير البغوي» ١/ ٢٤٧.

(٢) راجع: «تفسير الطبري» ٥/ ٤٨٦.

(٣) راجع: «الجامع لأحكام القرآن» ٣/ ٣٠٠.

(٤) راجع: «مفاتيح الغيب» ٧/ ٣٨.

الاتجاه الثاني:

يقول الطبري: وقال آخرون: بل كان سبب مسألته ربه ذلك، المناظرة والمحاجة التي جرت بينه وبين نمروذ في ذلك.

وممن قال بذلك محمد بن إسحاق حيث ذكر أنه: «لما جرى بين إبراهيم وبين قومه ما جرى مما قصَّه الله في سورة الأنبياء»، قال: نمروذ ـ فيما يذكرون ـ لإبراهيم: أرأيت إلٰهك هذا الذي تعبد وتدعو إلى عبادته، وتذكر من قدرته التي تعظمه بها على غيره، وما هو؟

قال له إبراهيم: ربي الذي يحيي الموتى! قال نمروذ: أنا أحيي وأميت!

فقال له إبراهيم: كيف تحيي وتميت؟

«ثم ذكر ما قصّ الله من محاجَّته إياه»، قال: فقال إبراهيم عند ذلك: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾: من غير شك في الله تعالى ذكره ولا في قدرته، ولكنه أحب أن يعلم ذلك وتاق إليه قلبه، فقال: ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾؛ أي: ما تاق إليه إذا هو علمه[1].

وقد عقَّب الإمام الطبري على هذين الاتجاهين بأنهما قولان متقاربا المعنى: في أن مسألة إبراهيم ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، كانت ليرى عياناً ما كان عنده من علم ذلك خبراً[2].

لكن كلّاً من الرازي والآلوسي نقلا عن ابن إسحاق هذا رواية أخرى مؤداها أن سبب السؤال منازعة النمروذ إياه في الإحياء حيث رد عليه لما زعم أن العفو إحياء، وتوعده بالقتل إن لم يحيي الله تعالى

---

(١) راجع: «تفسير الطبري» ٥/ ٤٨٦، ٤٨٧.

(٢) راجع المصدر السابق ٥/ ٤٨٧.

الميت بحيث يشاهده حيث قال له: قل لربك حتى يحيي وإلا قتلتك، فسأل الله تعالى ذلك، وبناء على هذا فإن قوله: ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ معناه: بنجاتي من القتل، أو ليطمئن قلبي بقوة حجتي وبرهاني، وإن عدولي منها إلى غيرها ما كان بسبب ضعف تلك الحجة، بل كان بسبب جهل المستمع[1].

ويرى أبو السعود أن ما قيل من أن نمرود لما قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم عليه السلام: إن إحياء الله تعالى برد الأرواح إلى الأجساد، فقال نمرود: هل عاينته؟ فلم يقدر على أن يقول نعم فانتقل إلى تقرير آخر، ثم سأل ربه أن يريه ذلك، يرى أن ذلك كله مما يأباه تعليل السؤال بالاطمئنان[2].

---

(١) راجع: «التفسير الكبير» ٧/٣٨؛ و«روح المعاني» ٣/٢٦، ومن أفضل ما قرأت في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾، ما ذكره ابن كثير رحمه الله حيث قال: «أي: إذا كنتَ كما تدَّعي من أنك تحيي وتميت، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود: في خلق ذراته وتسخير كواكبه وحركاته، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إلٰهاً كما تدعي تحيي وتميت فأت بها من المغرب؟ فلما علم عجزه وانقطاعه وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام بهت؛ أي: أخرس، فلا يتكلم، وقامت عليه الحجَّة: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: لا يلهمهم حجة ولا برهاناً، بل حجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد.

ويرى ابن كثير: أن هذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين من أن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثاني انتقال من دليل إلى أوضح منه، ومنهم من قد يطلق عبارة ترديه، وليس كما قالوه، بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثاني ويبين بطلان ما ادعاه نمروذ في الأول والثاني، ولله الحمد والمنة». راجع: «تفسير القرآن العظيم» ١/٣١٣.

(٢) راجع: «إرشاد العقل السليم» ١/٢٥٦.

الاتجاه الثالث:

يقول الطبري: وقال آخرون: بل كانت مسألته ذلك ربه عند البشارة التي أتته من الله بأنه اتخذه خليلاً، فسأل ربه أن يريه عاجلاً من العلامة له على ذلك، ليطمئن قلبه بأنه قد اصطفاه لنفسه خليلاً، ويكون ذلك لما عنده من اليقين مؤيداً.

حيث نقل عن كل من ابن عباس وسعيد بن جبير والسدي أن الله تعالى أوحى إليه إني متخذ بشراً خليلاً، فاستعظم ذلك إبراهيم ﷺ وقال: إلٰهي ما علامات ذلك؟

فقال: علامته أنه يحيي الموتى بدعائه، فلما عظم مقام إبراهيم عليه السلام في درجات العبودية وأداء الرسالة، خطر بباله: إني لعلي أن أكون ذلك الخليل، فسأل إحياء الميت، فقال الله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ على أنني خليل لك[1].

تعقيب:

من الواضح أن هذه الاتجاهات الثلاثة تعتمد على روايات موقوفة على بعض الصحابة والتابعين.

بل إن هناك آراء أخرى تمثل اتجاهات أخرى تعتمد أيضاً على روايات مأثورة، لكني قد اقتصرت في مجال الروايات المأثورة على أشهرها فقط، وإن كان الاتجاه الأول يمثل رأي الجمهور.

يذكر الواحدي أنه قد اختلف في سبب سؤال الخليل لربه: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾.

ثم يقول: «فالأكثرون على أنه رأى جيفة بساحل البحر يتناولها

---

(١) راجع: «تفسير الطبري» ٥/ ٤٨٧؛ و«تفسير الرازي» ٧/ ٣٨؛ و«تفسير البغوي» ٣/ ٢٤٧؛ و«تفسير القرطبي» ٣/ ٣٠٠؛ و«روح المعاني» ٣/ ٢٦.

السباع والطير ودواب البحر فتفكر كيف يجتمع ما تفرق من تلك الجيفة، وتطلعت نفسه إلى مشاهدة ميت يحييه به، ولم يكن شاكّاً في إحياء الموتى ولكن أحب رؤية ذلك، كما أن المؤمنين يحبون أن يروا النبي ﷺ والجنة، ويحبون رؤية الله تعالى مع الإيمان بكل ذلك وزوال الشكوك عنه»[1]، وهذا تعليل طيب.

وإذا كانت هذه الاتجاهات الثلاثة تنفي عن الخليل إبراهيم الشك فإنها بذلك تتفق في مضمونها مع عصمة الأنبياء، لكنها تبقى روايات مأثورة تتطلب التوثيق حتى يمكن القطع بها.

ولذلك فإن الشيخ رشيد رضا يذكر أن العلماء قد ذكروا أسباباً لهذا السؤال لا يقبل مثلها إلا بالنقل الصحيح، ولا يحتاج إلى شيء منها في فهم الكلام[2].

الاتجاه الرابع:

يذكر الرازي أن هناك قولاً سمَّاه: قول المتكلمين، ويتلخص في أن العلم الاستدلالي مما يتطرق إليه الشبهات والشكوك، ومن أجل ذلك طلب الخليل عليه السلام علماً ضرورياً يستقر القلب معه استقراراً لا يتخالجه شيء من الشكوك والشبهات[3].

ولعل أول من قال بذلك إنما هو الزمخشري حيث ذكر في كتابه «الكشاف»: أن معنى قول الخليل ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾؛ أي: بصِّرني، وأن الله قال له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ رغم علمه أنه أثبت الناس إيماناً، ليجيب بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجليلة للسامعين، ومعنى ﴿بَلَىٰ﴾ إيجاب لما بعد النفي معناه: بلى آمنت.

---

(١) راجع: «أسباب النزول» للواحدي ص...؛ و«شرح النووي» لمسلم ٢/ ١٨٤.

(٢) راجع: «تفسير المنار» ٣/ ٤٥. (٣) راجع: «التفسير الكبير» ٧/ ٣٩.

وقوله: ﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ معناه: ليزيد سكوناً وطمأنينة بمضامة علم الضرورة إلى علم الاستدلال.

وذلك لأن تظاهر الأدلة أسكن للقلوب، وأزيد للبصيرة واليقين.

ولأن علم الاستدلال يجوز معه التشكيك بخلاف العلم الضروري، فأراد بطمأنينة القلب العلم الذي لا مجال فيه للتشكيك[١].

وقد تعقب ابن المنيِّر الزمخشري في هذا، فبيّن أن قوله بأن علم الاستدلال يتطرق إليه التشكيك بخلاف العلم الضروري كلام لم يصدر عن رأي منور، ولا فكر محرر، وذلك أن العلم الموقوف على سبب لا يتصور فيه تشكيك ما دام سببه مذكوراً في نفس العالم.

وإنما الذي يقبل التشكيك قَبولاً مطلقاً هو الاعتقاد وإن كان صحيحاً، وسببه باق في الذكر.

وبهذا ينحط الاعتقاد الصحيح عن ذروة العلم[٢].

وقد أشار القاضي عياض إلى مثل ما ذهب إليه الزمخشري ضمن الوجوه التي عدّدها في تفسير قول الخليل عليه السلام، فذكر أن هذا الوجه يتمثل في أنه عليه السلام سأل زيادة يقين وقوة طمأنينة، وإن لم يكن في الأول شك؛ إذ العلوم الضرورية والنظرية قد تتفاضل في قوتها، وطريان الشكوك على الضروريات ممتنع، ومجوَّز في النظريات، فأراد الانتقال من النظر والخبر إلى المشاهدة والترقي من علم اليقين إلى عين اليقين، فليس الخبر كالمعاينة، ولهذا قال سهل بن عبد الله: سأل كشف غطاء العيان ليزداد بنور اليقين تمكناً في حاله[٣].

---

(١) راجع: «الكشاف» ١/ ١٥٩.

(٢) راجع: «الانتصاف على الكشاف» ١/ ١٥٩.

(٣) راجع: «الشفا» ٢/ ٦٩٦.

وجاء في «شرح النووي لصحيح مسلم»: أن العلماء قد ذكروا في سببه أوجهاً أظهرها أنه أراد الطمأنينة بعلم كيفية الإحياء مشاهدة بعد العلم بها استدلالاً، فإن علم الاستدلال قد تتطرق إليه الشكوك في الجملة بخلاف علم المعاينة فإنه ضروري، وهذا مذهب الإمام أبي منصور الأزهري وغيره[1].

الاتجاه الخامس:

يذهب أصحاب هذا الاتجاه في تفسير قول الخليل إبراهيم عليه السلام إلى أنه قد قاله بعد أن وقع في الشك تجاه قدرة الله عز وجل على إحياء الموتى.

جاء في «تفسير الطبري»: وقال آخرون: قال ذلك لربه؛ لأنه شك في قدرة الله على إحياء الموتى.

ويذكر الطبري أن من قال بذلك الإمام ابن عباس رضي الله عنهما حيث يقول: حدثنا الحسن بن يحيى قال: أخبرنا عبد الرازق قال: أخبرنا معمر عن أيوب في قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ قال: قال ابن عباس: ما في القرآن آية أرجى عندي منها.

كذلك فإنه ينقل عن جماعة عن سعيد بن المسيب قوله: أتَّعَدَ عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو أن يجتمعا، قال: ونحن يومئذ شببة، فقال أحدهما لصاحبه: أي آية في كتاب الله أرجى لهذه الأمة؟ فقال عبد الله بن عمرو: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ حتى ختم الآية، فقال ابن عباس: أما إن كنت تقول: أنها، وإنَّ أرجى منها لهذه الأمة قول إبراهيم صلى الله عليه وسلم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

---

(١) راجع ٢/ ١٨٤.

ثم ينقل عن عطاء بن أبي رباح قوله في تفسير الآية حيث قال: دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾ «ليريه».

ثم رجح الطبري هذا القول معتمداً على ما أورده أصحابه من روايات، مستشهداً كذلك بحديث صحيح مرفوع إلى النبي ﷺ حيث يقول:

«وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية، ما صحَّ به الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قاله، وهو قوله: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**»، ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾؟ وأن تكون مسألته ربه ما سأله أن يريه من إحياء الموتى لعارض من الشيطان عرض في قلبه».

ثم استدل على ذلك بما ذكر عن ابن زيد من أن الخليل إبراهيم لما رأى الحوت الذي بعضه في البر وبعضه في البحر، قد تعاوره دواب البر ودواب البحر وطير الهواء، ألقى الشيطان في نفسه فقال: متى يجمع الله هذا من بطون هؤلاء؟

فسأل إبراهيم حينئذ ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، ليعاين ذلك عياناً، فلا يقدر بعد ذلك الشيطان أن يلقي في قلبه مثل الذي ألقى فيه عند رؤيته ما رأى من ذلك.

فقال له ربه: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾؟ يقول: أوَلم تصدق يا إبراهيم بأني على ذلك قادر؟ قال: بلى يا رب! لكن سألتك أن تريني ذلك ليطمئن قلبي فلا يقدر الشيطان أن يلقي في قلبي مثل الذي فعل عند رؤيتي هذا الحوت[1].

---

(١) راجع: «تفسير الطبري» ٥/٤٨٩ ـ ٤٩٢.

وبناء على ذلك فإن الطبري يرى أن معنى قوله: ﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾: ليسكن ويهدأ باليقين الذي يستيقنه، ويذكر أن هذا التأويل الذي قاله في ذلك، هو تأويل الذين وجهوا معنى قوله: ﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ إلى أنه: ليزداد إيماناً، أو: إلى أنه: ليوقن، وليزداد يقيناً.

ومعنى قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ أوَلم تصدق، أوَلم توقن[١]؟

وقد اعتمد المنكرون لعصمة الأنبياء على كلام الطبري ومن نقل عنهم فذكروا أن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى...﴾. يدل على أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم يجوز عليهم الكفر والجهل بالله[٢]، تعالى الله عمَّا يقولون علواً كبيراً، وحاشا لأنبيائه ورسله من أن ينسب إليهم كفر أو جهل به سبحانه.

وهذا هو ما سأبينه في الصفحات القادمة.



(١) راجع المصدر السابق ٥/ ٤٩٢.

(٢) راجع: «متشابه القرآن» للقاضي عبد الجبار ص١٣٥، مكتبة دار التراث، القاهرة.

المبحث الثاني

بطلان ما ذهب إليه الطبري ومن ذهب مذهبه، وبيان القول الصحيح في هذا الشأن

أشار الإمام ابن عطية إلى ما ذهب إليه الإمام الطبري في «تفسيره»، حيث حكى عنه قوله، وسبب ترجيحه لهذا القول، ثم عقّب عليه بقوله:

«وما ترجم به الطبري عندي مردود، وما أدخل تحت الترجمة متأوَّل»، بمعنى: أنه رد ما ذهب إليه الطبري، وقام بتأويل ما استدل به على ما ذهب إليه:

فأما قول ابن عباس: «هي أرجى آية» فمن حيث فيها الإدلال على الله تعالى وسؤال الإحياء في الدنيا، وليست مظنة ذلك، ويجوز أن يقول: هي أرجى آية لقوله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾؛ أي: أن الإيمان كاف لا يحتاج معه إلى تنقير وبحث.

وأما قول عطاء: «دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس» فمعناه: من حيث المعاينة على نحو ما ذهب إليه القرطبي:

فبعد أن أشار إلى أن الناس قد اختلفوا في سؤال الخليل عليه السلام: هل صدر عن شك منه أو لا؟ بيّن أن جمهور العلماء يذهبوا إلى أنه لم يكن الخليل عليه السلام شاكاً في إحياء الله الموتى قط، وإنما طلب المعاينة؛ وذلك أن النفوس مستشرفة إلى رؤية ما أخبرت به، ولهذا قال عليه السلام: «**ليس الخبر كالمعاينة**»، رواه ابن عباس لم يروه غيره، قاله أبو عمر، قال الأخفش: لم يرد رؤية القلب وإنما أراد رؤية العين، وقال الحسن

وقتادة وسعيد بن جبير والربيع: سأل ليزداد يقيناً إلى يقينه[1].

وجاء في «تفسير أبي السعود» أن قوله: ﴿رَبِّ﴾ كلمة استعطاف قُدمت بين يدي الدعاء مبالغة في استدعاء الإجابة.

وقوله: ﴿أَرِنِي﴾ من الرؤية البصرية؛ أي: اجعلني مبصراً ﴿كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ بأن تحييها وأنا أنظر إليها.

وإنما سأله عليه السلام ليتأيد إيقانه بالعيان، ويزداد قلبه اطمئناناً على اطمئنان.

﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾؛ أي: ألم تعلم ولم تؤمن بأني قادر على الإحياء كيف أشاء حتى تسألني إراءته؟ قاله عز وعلا وهو أعلم بأنه عليه السلام أثبت الناس إيماناً، وأقواهم يقيناً ليجيب بما أجاب به فيكون ذلك لطفاً للسامعين.

﴿قَالَ بَلَىٰ﴾ علمت وآمنت بأنك قادر على الإحياء على أي كيفية شئت ﴿وَلَٰكِن﴾ سألت ما سألت ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ بمضامة العيان إلى الإيمان والإيقان، وأزداد بصيرة بمشاهدته على كيفية معينة[2].

وذكر البغوي في «تفسيره» أن قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ معناه: ليسكن قلبي إلى المعاينة والمشاهدة، حيث أراد أن يصير له علم اليقين عين اليقين؛ لأن الخبر ليس كالمعاينة[3].

ويبين القاضي عبد الجبار أن طلب الخليل من ربه أن يريه عياناً من غير تدريج أن يحيي الموتى لا يدل على أنه لم يؤمن ولم يعرف ربه،

---

(١) راجع: «الجامع لأحكام القرآن» ٣/ ٢٩٧، ٢٩٨.

(٢) راجع: «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم» ١/ ٢٥٦.

(٣) راجع: «معالم التنزيل» للبغوي ١/ ٢٤٧، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م؛ راجع أيضاً: «روح المعاني» للألوسي ٣/ ٢٦.

لكنه أراد بذلك الازدياد من الإيمان، فهو بمنزلة أن يطلب منه تعالى شرح الصدر بالألطاف والتأييد، وهذا مما يحسن طلبه[1].

وأما قول النبي ﷺ: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**» الذي استشهد به الطبري على ما ذهب إليه، فإن الحافظ ابن كثير بيّن أنه ليس المراد ههنا بالشك ما قد يفهمه من لا علم له بلا خلاف[2].

أما الحافظ ابن حجر في شرحه له في كتاب «فتح الباري» فقد قال: واختلف السلف في المراد هنا، فذكر أن بعضهم قد حمل على ظاهره، وقال: كان ذلك قبل النبوة[3].

وحمله أيضاً الطبري على ظاهره، وجعل سبب حصوله وسوسة الشيطان، ولكنها لم تستقر، ولا زلزلت الإيمان الثابت.

وبعد أن فصّل الحافظ ابن حجر ما ذهب إليه الطبري ـ والذي سبق أن عرضنا له ـ ذكر أن العلماء قد اختلفوا في معنى قوله ﷺ: «**نحن أحق بالشك...**» فقال بعضهم: معناه: نحن أشد اشتياقاً إلى رؤية ذلك من إبراهيم.

وقيل: معناه: إذا لم نشك نحن فإبراهيم أولى أن لا يشك؛ أي: لو كان الشك متطرقاً إلى الأنبياء لكنت أنا أحق به منهم، وقد علمتم أني لم أشك فاعلموا أنه لم يشك، وإنما قال ذلك تواضعاً منه، أو من قبل أن يعلمه الله بأنه أفضل من إبراهيم، وهو كقوله في حديث أنس عند مسلم أن رجلاً قال للنبي ﷺ: يا خير البرية، قال: «**ذاك إبراهيم**»[4].

---

(١) راجع: «متشابه القرآن» ص١٣٥.

(٢) راجع: «تفسير القرآن العظيم» ١/ ٣١٥.

(٣) سبق أن بينت بطلان هذا الرأي في الحديث عن الشبهة الأولى.

(٤) راجع: «فتح الباري» ٦/ ٤٧٥؛ والحديث في البخاري رقم (٣٣٧٢)، كتاب أحاديث الأنبياء، باب رقم (١١) ٦/ ٤٧٣.

وقد أشار الإمام النووي إلى هذا القول في شرحه لـ«صحيح الإمام مسلم» فذكر أن العلماء قد اختلفوا في معنى «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**» على أقوال كثيرة أحسنها وأصحها ما قاله الإمام أبو إبراهيم المزني صاحب الشافعي وجماعات من العلماء معناه: أن الشك مستحيل في حق إبراهيم.

فإن الشك في إحياء الموتى لو كان متطرقاً إلى الأنبياء لكنت أنا أحق به من إبراهيم، وقد علمتم أني لم أشك، فاعلموا أن إبراهيم عليه السلام لم يشك.

وإنما خص إبراهيم عليه السلام لكون الآية قد يسبق إلى بعض الأذهان الفاسدة منها احتمال الشك.

وإنما رجح إبراهيم على نفسه ﷺ تواضعاً وأدباً، أو قبل أن يعلم ﷺ أنه خير ولد آدم[1].

ونقل البغوي قولاً آخر للمزني عن محمد بن إسحاق بن خزيمة حيث قال: لم يشك النبي ﷺ ولا الخليل إبراهيم عليه السلام في أن الله قادر على أن يحيي الموتى، وإنما شكَّا في أنه هل يجيبهما إلى ما سألا.

وقال أبو سليمان الخطابي: ليس في قوله: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**» اعتراف بالشك على نفسه ولا على إبراهيم، لكن فيه نفي الشك عنهما بقوله: إذا لم أشك أنا في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، فإبراهيم أولى بأن لا يشك، وقال ذلك على سبيل التواضع والهضم من النفس.

---

(١) «شرح صحيح مسلم» للنووي ٢/ ١٨٣؛ والحديث في «صحيح مسلم»، رقم (٢٣٨)، كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة رقم (٦٩)، طبعة محمد فؤاد عبد الباقي (١/ ١٣٣).

وانتهى إلى أنه يستفاد من هذا الحديث الإعلام بأن المسألة من إبراهيم عليه السلام لم تَعْرِض من جهة الشك، ولكن من قبيل زيادة العلم بالعيان، فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيد الاستدلال[1].

ونقل صاحب «التحرير» قول جماعة من العلماء:

لما نزل قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ قالت طائفة: شك إبراهيم ولم يشك نبينا، فقال النبي ﷺ: «**نحن أحق بالشك منه**» فذكر نحو ما قدمته ثم قال:

ويقع لي فيه معنيان:

أحدهما: أنه خرج مخرج العادة في الخطاب:

فإن من أراد المدافعة عن إنسان قال للمتكلم فيه: ما كنت قائلاً لفلان أو فاعلاً معه من مكروه فقله لي وافعله معي، ومقصوده لا تقل ذلك فيه.

والثاني: أن معناه: أن هذا الذي تظنونه شكّاً أنا أولى به فإنه ليس بشك، وإنما هو طلب لمزيد اليقين.

وقيل: أراد بقوله نحن: «أمته الذين يجوز عليهم الشك وإخراجه هو منه بدلالة العصمة»[2].

ولذلك فإن القاضي عياض يذكر أن قول نبينا: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**» نفي لأن يكون إبراهيم قد شك، وإبعاد للخواطر الضعيفة أن تظن هذا بإبراهيم؛ أي: نحن موقنون بالبعث وإحياء الله الموتى.

فلو شك إبراهيم لكنا أولى بالشك منه:

إما على طريق الأدب، أو أن يريد أمته الذين يجوز عليهم الشك

---

(١) راجع: «معالم التنزيل» ١/ ٢٤٨.

(٢) راجع: «فتح الباري» ٦/ ٤٧٥؛ و«شرح النووي» ٢/ ١٨٣.

أو على طريق التواضع والإشفاق إن حملت قصة إبراهيم على اختبار حاله، أو زيادة يقينه[1].

وجاء في «**نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض**» في معنى قوله: «نفي لأن يكون إبراهيم قد شك، وإبعاد للخواطر الضعيفة أن يظن هذا بإبراهيم»، أن هذه الخواطر المراد بها ما يعرض للإنسان من الأفكار والشبه ويتجوز بها عن محله وهو القلب، وهي ضعيفة لأنها تدفع بأدنى تأمل لظهور بطلانها، وأن مقام الخليل يجل عن هذا الشك، وحاصل كلام النبي ﷺ أنه قصد نفي الشك عنه ببرهان قوي وقياس منطقي تقريره: لو شك إبراهيم كنت أنا شاكاً أيضاً بل أحق؛ أي: أولى وأقربه لذلك مني؛ لأنه لا يجوز على غيري من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وما كنت بدعاً من الرسل، وقد عُلم أني لم يقع مني شك فظاهر، فكذلك إبراهيم أيضاً، فنفاه بنفي لازمه، إلا أنه ﷺ أفضل من إبراهيم، ولا يلزم من نفي شيء عن المتفاضل نفيه عن المفضول، فكيف قال أنه أحق منه.

وأشار المصنف؛ أي: القاضي عياض إلى جوابه بقوله: «أي: نحن موقنون بالبعث وإحياء الله الموتى»، فلو شك إبراهيم ـ إشارة إلى أنه قياس استثنائي ـ لكنا أولى بالشك منه؛ أي: من إبراهيم[2].

وذكر ابن المنيِّر أنه لما كان الوهم قد يتلاعب ببعض الخواطر فيطرق إلى إبراهيم شكاً من هذه الآية، فإن النبي ﷺ قد قطع دابر هذا الوهم بقوله: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**»؛ أي: ونحن لم نشك، فلأن لا يشك إبراهيم أحرى وأولى[3].

---

(١) راجع: «الشفا» ٢/ ٦٩٥.

(٢) راجع: «نسيم الرياض» ٤/ ٥، ٦، دار الكتاب العربي، بيروت.

(٣) راجع: «الانتصاف» ١/ ١٥٨، مطبوع على «الكشاف».

ومن الأقوال التي ذكرها أيضاً الحافظ ابن حجر في معنى قول النبي ﷺ: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**» ما حكاه بعض علماء العربية أن أفعل ربما جاءت لنفي المعنى عن الشيئين نحو قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ [الدخان: ٣٧]؛ أي: لا خير في الفريقين، ونحو قول القائل: الشيطان خير من فلان؛ أي: لا خير فيهما، فعلى هذا يكون معنى قوله: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**» لا شك عندنا جميعاً[١].

والخلاصة: أن هذا الحديث الشريف مبني على نفي الشك عن الخليل إبراهيم عليه السلام، فمعنى قول النبي ﷺ: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**» ـ كما يقول ابن عطية ـ أنه لو كان شاكّاً لكنا نحن أحق به، ونحن لا نشك، فإبراهيم عليه السلام أحرى أن لا يشك.

والذي روي فيه عن النبي ﷺ أنه قال: «**ذلك محض الإيمان**»، إنما هو في الخواطر التي لا تثبت[٢]، وأما الشك فهو توقف بين أمرين لا مزية لأحدهما على الآخر، وذلك هو المنفي عن الخليل عليه السلام.

وإحياء الموتى إنما يثبت بالسمع، وقد كان إبراهيم عليه السلام أعلم به، يدلك على ذلك قوله: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾.

فالشك يبعد على من تثبت قدمه في الإيمان فقط، فكيف بمرتبة النبوة والخلَّة، والأنبياء معصومون من الكبائر ومن الصغائر التي فيها رذيلة إجماعاً[٣].

---

(١) راجع: «فتح الباري» ٦/ ٤٧٥؛ راجع أيضاً: «روح المعاني» للألوسي ٣/ ٢٧.

(٢) إشارة إلى ما ورد في «صحيح مسلم» من أن رسول الله ﷺ سئل عن الوسوسة قال: «**تلك محض الإيمان**»، وحينما جاء ناس من أصحابه فسألوه إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: «**وقد وجدتموه**»؟ قالوا: نعم، قال: ذاك صريح الإيمان. راجع: «صحيح مسلم بشرح النووي» ٢/ ١٥٣.

(٣) راجع: «الجامع لأحكام القرآن» ٣/ ٢٩٨، ٢٩٩.

ولذلك فإن الإمام ابن حزم يذهب إلى أن هذا الحديث النبوي الشريف ـ الذي احتج به هؤلاء المثبتون للشك من الخليل عليه السلام ـ إنما هو حجة لنا على نفي الشك عن إبراهيم، فمن ظن أن النبي ﷺ شك قط في قدرة ربه عز وجل على إحياء الموتى فقد كفر.

ذلك لأن معنى قول نبينا ﷺ: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**» معناه: لو كان الكلام من إبراهيم عليه السلام شكّاً لكان من لم يشاهد من القدرة ما شاهد إبراهيم عليه السلام أحق بالشك.

فإذا كان من لم يشاهد من القدرة ما شاهد إبراهيم غير شاك، فإبراهيم عليه السلام أبعد من الشك.

ثم يقول أبو محمد: ومن نسب هاهنا إلى الخليل عليه السلام الشك فقد نسب إليه الكفر، ومن كفَّر نبياً فقد كفر، وأيضاً فإن كان ذلك شكّاً من إبراهيم عليه السلام وكنا نحن أحق بالشك منه فنحن إذاً شكاك جاحدون كفار، وهذا كلام نعلم والحمد لله بطلانه من أنفسنا، بل نحن ولله الحمد مؤمنون مصدِّقون بالله تعالى وقدرته على كل شيء يسأل عنه السائل[1].

وقد وصف الإمام الرازي من نسبوا الشك إلى الخليل بأنهم قوم من الجهال، حينما قالوا بأن إبراهيم ﷺ كان شاكّاً في معرفة المبدأ وفي معرفة المعاد:

أما شكه في معرفة المبدأ فقوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، وقوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾[2].

وأما شكه في المعاد فهو في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ...﴾.

---

(١) راجع: «الفصل في الملل والأهواء والنحل» ٤/٦.

(٢) سبق الحديث عن ذلك في الشبهة الأولى.

وهذا القول ـ فيما يرى الرازي ـ سخيف، بل كُفر؛ وذلك لأن الجاهل بقدرة الله تعالى على إحياء الموتى كافر، فمن نسب النبي المعصوم إلى ذلك فقد كفَّر النبي المعصوم، فكان هذا بالكفر أولى.

ذلك لأن الشك في قدرة الله على الإحياء من النبي يوجب الشك في النبوة، فكيف يعرف نبوة نفسه[1].

وجاء في «تفسير القرطبي» أنه لا يجوز على الأنبياء صلوات الله عليهم مثل هذا الشك فإنه كفر، والأنبياء متفقون على الإيمان بالبعث.

وقد أخبر الله تعالى أن أنبياءه وأولياءه ليس للشيطان عليهم سبيل فقال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾، وقال اللَّعين: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

وإذا لم يكن عليهم سلطنة فكيف يشكِّكهم، فقلوب الأنبياء والرسل عليهم السلام معقودة على طريق التوحيد، والعلم بالله وصفاته، والإيمان به، وبما أوحى إليه.

ولا بد أن يكونوا على غاية المعرفة ووضوح العلم واليقين والانتفاء عن الجهل بشيء من ذلك، أو الشك: أو الريب فيه، والعصمة من كل ما يضاد المعرفة بذلك واليقين.

هذا ما وقع إجماع المسلمين عليه ـ كما قرره القاضي عياض ـ ولا يصح بالبراهين الواضحة أن يكون في عقود الأنبياء سواه.

ثم يقول: ولا يعترض على هذا بقول إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾، إذ لم يشك إبراهيم في إخبار الله تعالى له بإحياء الموتى، ولكن أراد طمأنينة القلب، وترك المنازعة لمشاهدة الإحياء، فحصل له العلم الأول بوقوعه، وأراد العلم الثاني بكيفيته ومشاهدته[2].

---

(١) راجع: «مفاتيح الغيب» ٧/ ٣٩.

(٢) راجع: «الشفا» ٢/ ٦٩٥.

وجاء في «**شرح المواقف**» أن سؤال الخليل ﷺ لم يكن عن الشك في الإحياء أو القدرة عليه، بل في الآية تصريح بأنه طلبه لأن في عين اليقين من الطمأنينة ما ليس في علم اليقين؟

فإن للوهم بإحداث الوساوس والدغادغ سلطاناً على القلب عند علم اليقين دون عين اليقين.

أو أنه إنما سأل عن كيفية الإحياء لا عن الإحياء نفسه؛ لأن الإحاطة بالكيفية المفصَّلة أقوى وأرسخ من المعرفة الإجمالية المفضية إلى التردد بين الكيفيات المتعددة مع الطمأنينة في أصل الإحياء والقدرة عليه[1].

وبحسب تعبير القرطبي: «إنما سأل أن يشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفريقها وإيصال الأعصاب والجلود بعد تمزقها، فأراد أن يترقى من علم اليقين إلى عين اليقين، فقوله: ﴿أَرِنِي كَيْفَ﴾ طلب مشاهدة الكيفية»[2].

وبتعبير الآلوسي: ولكن سألت ليطمئن؛ أي: يسكن قلبي بمضامة الأعيان إلى الإيمان والإيقان بأنك قادر على ذلك.

وبهذا فإنه لا يعود نقص على إبراهيم من هذا السؤال، ولا ينافي منصب النبوة أصلاً[3].

ولذلك فقد استدل الفخر الرازي على فساد ما ذهب إليه من رمى الخليل ﷺ بالشك من وجهين:

---

(١) راجع: «شرح المواقف» للإيجي والجرجاني، تصحيح وتعليق الدكتور محمد عبد الرحمٰن بيطار، ص١٤٥.

(٢) راجع: «الجامع لأحكام القرآن» ٣/ ٢٩٩.

(٣) راجع: «روح المعاني» ٣/ ٢٦.

أحدهما: قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ﴾، ولو كان شاكّاً لم يصح ذلك.

الوجه الثاني: قوله تعالى: ﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، وذلك كلام عارفٍ طالبٍ لمزيد من اليقين(١).

معنى ذلك: أن ما تحتوي عليه الآية القرآنية الكريمة من طلب الخليل وسؤاله لربه، ثم ما رد به عليه ربه، وإقراره بما أجاب به عليه، كل هذه أدلة برهانية على نفي الشك عن الخليل إبراهيم عليه السلام.

ومن أجل هذا، فإن ابن المنيِّر في تعقيبه على الكشاف يذكر أن الأولى في هذه الآية أن يذكر فيها المختار في تفسيرها من المباحث الممتحنة بالفكر المحرَّر، والنكت المفصحة بالرأي المخمَّر، فما وافق من كلام المصنف ما يذكره فالحمد لله، وما خالفه فالحق فيما ذكرناه، والله الموفق فنقول:

أما سؤال الخليل عليه السلام بقوله له: ﴿كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾؛ فليس عن شك والعياذ بالله في قدرة الله على الإحياء، ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء، ولا يشترط في الإيمان الإحاطة بصورتها فإنما هي طلب علم ما لا يتوقف الإيمان على علمه، ويدل على ذلك ورود السؤال بصيغة كيف، وموضوعها السؤال عن الحال، ونظير هذا السؤال أن يقول القائل: كيف يحكم زيد في الناس، فهو لا يشك أنه يحكم فيهم، ولكنه سأل عن كيفية حكمه لا ثبوته(٢).

ثم يتساءل ابن المنيِّر بقوله: إذا كان السؤال مصروفاً إلى الكيفية التي لا يضر عدم تصورها ومشاهدتها بالإيمان، ولا تخِلُّ به، فما موقع قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾؟

---

(١) راجع: «مفاتيح الغيب» ٧/٣٩.

(٢) راجع: «الانتصاف على الكشاف» ١/١٥٨.

ويجيب على هذا بأنه قد وقع على لطيفة لبعض الحذاق: وهي أن هذه الصيغة تستعمل ظاهراً في السؤال عن الكيفية كما مر، وقد تستعمل في الاستعجاز.

مثاله: أن يدّعي مدّع أنه يحمل ثقلاً من الأثقال وأنت جازم بعجزه عن حمله فتقول له: أرني كيف تحمل هذا؟ فلما كانت هذه الصيغة قد يعرض لها هذا الاستعمال الذي أحاط علم الله تعالى بأن إبراهيم مبرءاً منه أراد بقوله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ أن ينطق إبراهيم بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ آمنت ليدفع عنه ذلك الاحتمال اللفظي في العبارة الأولى ليكون إيمانه مخلصاً، نص عليه بعبارة يفهمها كل من يسمعها فهماً لا يلحقه فيه شك[1].

ولعله يقصد بذلك الإمام ابن عطية الذي يفصل ما أشار إليه بقوله: إذا تأملت سؤاله عليه السلام وسائر ألفاظ الآية لم تعط شكّاً.

وذلك أن الاستفهام بكيف، إنما هو سؤال عن حالة شيء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسؤول، نحو قولك: كيف علم زيد؟ وكيف نسج الثوب؟ ونحو هذا.

ومتى قلت: كيف ثوبك؟ وكيف زيد؟ فإنما السؤال عن حال من أحواله.

وقد تكون «كيف» خبراً عن شيء شأنه أن يستفهم عنه بـ«كيف»، نحو قولك: كيف شئت فكن. ونحو قول البخاري: كيف كان بدء الوحي. و«كيف» في هذه الآية إنما هي استفهام عن هيئة الإحياء، والإحياء متقرر.

ولكن لما وجدنا بعض المنكرين لوجود شيء قد يعبرون عن إنكاره بالاستفهام عن حالة لذلك الشيء يعلم أنها لا تصح، فيلزم من ذلك أن الشيء في نفسه لا يصح.

---

(١) راجع المصدر السابق ١/١٥٨.

مثال ذلك: أن يقول مدَّع: أنا أرفع هذا الجبل؛ فيقول المكذب له: أرني كيف ترفعه، فأرني كيف ترفعه! فلما كانت عبارة الخليل عليه السلام بهذا الاشتراك المجازي، خلص الله له ذلك، وحمله على أن بيّن له الحقيقة فقال: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ﴾، فكمل الأمر، وتخلص من كل شك.

ثم علّل عليه السلام سؤاله بالطمأنينة[1] في قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

ولذلك فإن ابن المنيِّر قد تساءل مرة أخرى بقوله: «قد تبين لي وجه الربط بين الكلام على التقدير المبين فما موقع قول إبراهيم: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾».

وذلك يشعر ظاهراً بأنه كان عند السؤال فاقداً للطمأنينة؟

وأجاب على هذا التساؤل بقوله: معناه ولكن ليزول عن قلبي الفكر في كيفية الحياة؛ لأني إذا شاهدتها سكن قلبي عن الجولان في كيفياتها المتخيلة، وتعينت عندي بالتصوير المُشاهَد، وجاءت الآية مطابقة لسؤاله؛ لأنه شاهد صورة حياة الموتى تقديره الذي يحيي ويميت.

وينتهي ابن المنيِّر إلى القول بأن «هذا أحسن ما يجري لي في تفسير هذه الآية وربك الفتاح العليم»[2].

وهكذا تبين لنا أن ما نصَّت عليه الآية الكريمة إنما هو تبرئة للخليل عليه السلام من الشك، وتنزيه ساحته الطاهرة عنه، حتى إن الإمام ابن حزم يذكر أن قوله عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ لم يقرره ربنا عز وجل وهو شك في إيمان إبراهيم عبده وخليله ورسوله عليه السلام، تعالى الله عن ذلك.

---

(١) راجع: «الجامع لأحكام القرآن» ٣/ ٢٩٩.

(٢) راجع: «الانتصاف» ١/ ١٥٨، ١٥٩.

ولكنه قرر الإيمان في قلبه وإن لم ير كيفية إحياء الموتى، فأخبر عليه السلام عن نفسه أنه مؤمن مصدق، وإنما أراد أن يرى الكيفية فقط ويعتبر بذلك، وما شك إبراهيم عليه السلام في أن الله يحيي الموتى، وإنما أراد أن يرى الهيئة، كما أننا لا نشك في صحة وجود الفيل والتمساح والكسوف وزيادة النهر والخليفة، ثم يرغب من لم ير ذلك منا في أن يرى كل ذلك ولا يشك في أنه حق.

لكن ليرى العجب الذي يتمثله ولم تقع عليه حاسة بصره فقط[1].

وإذا كان الإمام ابن حزم في هذا الكلام قد ضرب مثلاً بالفيل والتمساح وغيرهما، فإن الإمام محمد عبده قد ضرب مثلاً بالتلغراف في معرِض ردِّه على من فهموا من سؤال إبراهيم عليه السلام لربه أنه كان قلقاً مضطرباً في اعتقاده بالبعث، وذلك شك فيه، فقال عنهم: «وما أبلدَ أذهانهم، وأبعدَ أفهامهم عن إصابة المرمى، وقد ورد في حديث الصحيحين: «نحن أولى بالشك من إبراهيم»؛ أي: أننا نقطع بعدم شكه كما نقطع بعدم شكنا أو أشد قطعاً.

نعم؛ ليس في الكلام ما يُشعر بالشك، فإنه ما من أحد إلا وهو يؤمن بأمور كثيرة إيماناً يقينياً وهو لا يعرف كيفيتها ويود لو يعرفها.

فهذا التلغراف الذي ينقل الخبر من المشرق إلى المغرب في دقيقة واحدة يوقن به كل الناس في كل بلد يوجد فيه، ويقل فيهم العارف بكيفية نقله للخبر بهذه السرعة، أفيقال فيمن طلب بيان هذه الكيفية إنه شاك بوجود التلغراف[2]؟

ثم يذكر صاحب «تفسير المنار» أن طلب المزيد من العلم والرغبة

---

(١) راجع: «الفصل» ٤/٦.

(٢) راجع: «تفسير المنار» ٣/٤٦.

في استكناه الحقائق والتشويق إلى الوقوف على أسرار الخليقة مما فطر الله عليه الإنسان.

وأكمل الناس علماً وفهماً أشدهم للعلم طلباً، وللوقوف على المجهولات تشوُّفاً، ولن يصل أحد من الخلق إلى الإحاطة بكل شيء علماً، وقتل كل موجود فقهاً وفهماً.

وقد كان طلب الخليل عليه السلام رؤية كيفية إحياء الموتى بعينيه من هذا القبيل، فهو طلب للطمأنينة فيما تنزع إليه نفسه القدسية من معرفة خفايا أسرار الربوبية، لا طلب للطمأنينة في أصل عقد الإيمان بالبعث الذي عرفه بالوحي والبرهان دون المشاهدة والعيان[1].

إنه التشوُّف إذن إلى ملابسة سر الصنعة الإلٰهية، وحين يجيء هذا التشوف من الخليل إبراهيم الأوّاه الحليم، المؤمن الراضي الخاشع العابد القريب، حين يجيء هذا التشوف من سيدنا إبراهيم عليه السلام فإنه يكشف عما يختلج أحياناً من الشوق والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الإلٰهية في قلوب أقرب المقربين! ذلك لأنه تشوف لا يتعلق بوجود الإيمان وثباته وكماله واستقراره، وليس طلباً للبرهان أو تقوية للإيمان، وإنما هو أمر آخر، له مذاق آخر.

إنه أمر الشوق الروحي، إلى ملابسة السر الإلٰهي في أثناء وقوعه العلمي.

ومذاق هذه التجربة في الكيان البشري مذاق آخر غير مذاق الإيمان بالغيب، ولو كان هو إيمان إبراهيم الخليل، الذي يقول لربه، ويقول له ربه، وليس وراء هذا إيمان، ولا برهان للإيمان.

ولكنه أراد أن يرى يد القدرة وهي تعمل، وليحصل على مذاق هذه

---

(١) راجع: المصدر السابق ٣/٤٦، وقس على ذلك ما استُحدثَ في عالمنا من ثورة الاتصالات مثل التليفاكس وشبكة الإنترنيت، والفضائيات وغيرها، مما لم يكن موجوداً في زمن الإمام محمد عبده رحمه الله.

الملابسة فيستروح بها، ويتنفس في جوها، ويعيش معها.. وهي أمر آخر غير الإيمان الذي ليس بعده إيمان[1].

﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾.

وقد أجمع أهل التفسير على أن الخليل إبراهيم عليه السلام قد امتثل لما أمره به ربه حيث رُوي أنه بهذه الآية قد أمر بذبحها ونتف ريشها وتقطيعها جزءاً جزءاً وخلط دمائها ولحومها، وأن يمسك رؤوسها، ثم أُمر بأن يجعل أجزاءها على الجبال، على كل جبل، ربعاً من كل طائر ثم يصيح بها: تعالين بإذن الله.

قال ابن عباس: وأخذ رؤوسهن بيده ثم أمره الله عز وجل أن يدعوهن فدعاهن كما أمره الله عز وجل، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض حتى قام كل طائر على حدته، وأتينه يمشين سعياً، ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها، وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم عليه السلام، فإذا قدم له غير رأسه يأباه، فإذا قدم له رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته.

ولهذا قال: ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: عزيز لا يغلبه شيء ولا يمتنع من شيء، وما شاء كان بلا ممانع؛ لأنه القاهر لكل شيء حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره[2].

وقد أخرج ابن المنذر عن الحسن قال: إن الخليل عليه السلام نادى أيتها العظام المتمزقة، واللحوم المتفرقة، والعروق المتقطعة، اجتمعي يرد الله

---

(١) راجع: «في ظلال القرآن» ٣/ ٣٠١، ٣٠٢.

(٢) راجع: «تفسير ابن كثير» ١/ ٣١٥؛ و«مفاتيح الغيب» ٧/ ٤٣.

تعالى فيكن أرواحكن، فوثب العظم إلى العظم، وطارت الريشة إلى الريشة، وجرى الدم إلى الدم حتى رجع إلى كل طائر دمه ولحمه وريشه[1].

وقد خالف أبو مسلم ما أجمع عليه المفسِّرون؛ حيث ذكر أن إبراهيم عليه السلام لما طلب إحياء الميت من الله تعالى أراه الله تعالى مثالاً قرَّب به الأمر عليه، واحتج على ما ذهب إليه بوجوه قام الإمام الرازي بإبطالها والرد عليها بعد أن بيّن أن كل المفسرين السابقين على أبي مسلم قد أجمعوا على أنه قد حصل ذبح تلك الطيور، وتقطيع أجزائها، فيكون إنكار ذلك إنكاراً للإجماع[2].

وذكر الإمام الآلوسي أن ما قاله أبو مسلم لا يخفى أنه خلاف إجماع المسلمين، وضربٌ من الهذيان لا يركن إليه أرباب الدين، وعدول عما يقتضيه ظاهر الآية المؤيد بالأخبار الصحيحة والآثار الرجيحة إلى ما تمجُّه الأسماع، ولا يدعو إليه داع، فالحق اتباع الجماعة ويد الله تعالى معهم[3].

وإنما اقتصر سبحانه على حكاية أوامره جلّ شأنه من غير تعرض لامتثال خليله عليه السلام، ولا لما ترتب عليه من عجائب آثار قدرته ـ التي ذكرنا النزر منها ـ للإيذان بأن ترتب تلك الأمور على الأوامر الجليلة، واستحالة تخلفها عنها من الجلاء والظهور بحيث لا حاجة له إلى الذكر أصلاً.

---

(١) راجع: «روح المعاني» ٣/ ٢٩.

(٢) راجع: «حجج أبي مسلم والرد عليها بالتفصيل في تفسير الرازي» ٧/ ٤١، ٤٢؛ ومن الجدير بالذكر أن الشيخ رشيد رضا قد أيد مذهب أبي مسلم في «تفسيره». راجع: «تفسير المنار» ٣/ ٤٨، ٤٩.

(٣) راجع: «روح المعاني» ٣/ ٣٠.

وناهيك بالقصة دليلاً على فضل الخليل، ويمن الضراعة في الدعاء، وحسن الأدب في السؤال، حيث أراه الله تعالى ما سأله في الحال على أيسر على ما يكون من الوجوه، وأرى عزيراً ما أراه بعدما أماته مائة عام[1].



(١) راجع المصدر السابق، و«تفسير أبي السعود» ١/ ٢٥٧.



الفصل الثالث

الشبهة الثالثة

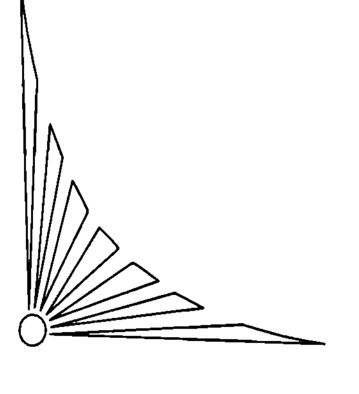
في عبارات وردت على لسانه عليه السلام

تمهيد:

المبحث الأول: القول الأول: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾.

المبحث الثاني: القول الثاني: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾.

المبحث الثالث: القول الثالث: قوله عليه السلام عن سارة: «هي أختي».



تمهيد

تتمثل الشبهة الثالثة في فهم النافين لعصمة الخليل إبراهيم عليه السلام لما ورد على لسانه في القرآن الكريم، وفيما حكته عنه السنّة النبوية الشريفة.

فيما يتعلق أولاً بما ورد عنه في القرآن الكريم من أقوال نطق بها، فإن الله سبحانه يحكي عنه في سورة الصافات: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٨، ٨٩]، ويقول عنه في سورة الأنبياء بعد أن قال له قومه: ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٢، ٦٣].

وقد صوَّر الإمام الفخر الرازي رأي القائلين بهذه الشبهة فذكر أنهم تمسَّكوا بقوله تعالى مخبراً عن إبراهيم: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾، والاستدلال هنا من وجهين: **الأول**: تمسُّك بعلم النجوم وهو غير لازم، **الثاني**: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ «وهو كذب».

وتمسكوا بقوله تعالى مخبراً عن إبراهيم لما قال له قومه: ﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وإنما عنى بالكبير الصنم، وهذا كذب؛ لأن إبراهيم عليه السلام هو الذي كسر الأصنام، فإضافة كسرها إلى غيره لا يكون إلا كذباً[1].

وقبل أن نبيّن بطلان اعتمادهم على هذه الآيات، واستدلالهم بها على ما ذهبوا إليه، لا بد أن نتحدث ثانياً عن ما ورد في السُّنة بشأن

---

(١) راجع كتابه: «عصمة الأنبياء» ص٦٨ ـ ٧٠، نشر مكتبة الثقافة الدينية ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

هذين القولين، والقول الثالث الخاص بالسيدة سارة زوج الخليل عليه السلام، حيث قال عنها: «هذه أختي» ولم تكن أخته في الحقيقة.

جاء في «**جامع الأصول في أحاديث الرسول**» لابن الأثير عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات: ثنتين في ذات الله، قوله:** ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، **وقوله:** ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٣].

وواحدة في شأن سارة، فإنه قدم أرض جبار، ومعه سارة، وكانت أحسن الناس، فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلماً غيري وغيرك، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار، فأتاه، فقال: لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك، فأرسل إليها، فأُتي بها، فقام إبراهيم إلى الصلاة، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها، فقُبضت يده قبضة شديدة، فقال لها: ادعي الله أن يطلق يدي ولا أضرك، ففعلت، فعاد، فقبضت أشد من القبضة الأولى، فقال لها مثل ذلك، ففعلت، فعاد، فقبضت أشد من القبضتين الأوليين، فقال: ادعي الله أن يطلق يدي، فلك [الله] أن لا أضرك، ففعلت، وأطلقت يده، ودعا الذي جاء بها فقال له: إنك إنما جئتني بشيطان، ولم تأتني بإنسان، فأخرجها من أرضي، وأعطها هاجر، قال: فأقبلت تمشي، فلما رآها إبراهيم انصرف، فقال [لها]: مهيم[1]، قالت: خيراً، كفَّ الله يد الفاجر، وأخدم خادماً[2]، قال أبو هريرة: فتلك أمكم يا بني ماء السماء»، أخرجه البخاري ومسلم.

وفي رواية للبخاري موقوفاً على أبي هريرة: «ما كذب إبراهيم إلا

---

(١) مهيم: كلمة يقال معناها: ما أمرك وما حالك.

(٢) خادم: الخادم يقع على العبد والأمة.

ثلاث كذبات، ثنتان منها في ذات الله: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ قال: وبينا هو ذات يوم وسارة، إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: إن هاهنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه، فسأله عنها؟ فقال: من هذه؟ قال: أختي. فأتى سارة، فقال: يا سارة، ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني. فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده... وذكر نحو ما تقدم في منعه ودعائها إلى آخره... وفيه: فأخدمها هاجر، وقول أبي هريرة: تلك أمكم يا بني ماء السماء».

وله في أخرى مسنداً قال: قال رسول الله ﷺ: «**هاجر إبراهيم عليه السلام بسارة، فدخل بها قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة، فقيل له: دخل إبراهيم بامرأة هي أحسن النساء. فأرسل إليه: أن يا إبراهيم: من هذه التي معك؟ قال: أختي. ثم رجع إليها فقال: لا تكذبي حديثي، فإني أخبرتهم أنك أختي، والله، إنْ على الأرض مؤمن غيري وغيرك. فأرسل بها إليه، فقام إليها، فقامت تتوضأ وتصلي، فقالت: اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك وأحصنت[1] فرجي إلا على زوجي، فلا تسلط عليّ يد الكافر. فغُطَّ، حتى ركض رجله، فقالت: اللهم إن يمت يقال: هي قتلته. فأُرسل، ثم قام إليها، فقامت تتوضأ وتصلي، وتقول: اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فرجي، فلا تسلط عليّ هذا الكافر. فغط حتى ركض برجله،** فقال أبو هريرة: **فقالت: اللهم إن يمت، يقال: هي قتلته. فأُرسل في الثانية أو الثالثة، فقال: والله ما أرسلتم إليَّ إلا شيطاناً، ارجعوها إلى إبراهيم وأعطوه هاجر. فرجعت إلى إبراهيم، فقالت: أشعرت أن الله كبت الكافر وأخدم وليدة**».

واختصره أبو داود قال: «إن إبراهيم لم يكذب قط إلا ثلاث

---

(١) أحصنت المرأة فرجها: إذا حمته من الزنا.

كذبات، ثنتان في ذات الله قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وبينا هو يسير في أرض جبار من الجبابرة، إذ نزل منزلاً، فأتى الجبار، فقيل له: إنه نزل هاهنا رجل معه امرأة هي أحسن الناس، قال: فأرسل إليه، فسأله عنها؟ فقال: إنها أختي: فلما رجع إليها، قال: إن هذا سألني عنك، فأنبأته أنك أختي، وإنه ليس اليوم مسلم غيري وغيرك، فإنك أختي في كتاب الله، فلا تكذبيني عندهم». وساق الحديث: هكذا قال أبو داود.

واختصره الترمذي أيضاً، وهذا لفظه، قال:

قال رسول الله ﷺ: «**لم يكذب إبراهيم في شيء قط إلا في ثلاث، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ولم يكن سقيماً، وقوله لسارة: أختي، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾**»[1].

وفي «مسند الإمام أحمد» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «**لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: قوله حين دعي إلى آلهتهم فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وقوله لسارة: إنها أختي، قال: ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة فقيل: دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس، قال: فأرسل إليه الملك أو الجبار: من هذه معك؟ قال: أختي،**

---

(١) رواه البخاري ٦/ ٢٧٧ ـ ٢٨٠ في الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، وفي البيوع، باب شراء المملوك من الحربي وهبته وعتقه، وفي الهبة، باب إذا قال: أخدمتك هذه الجارية على ما يتعارف الناس فهو جائز، وفي النكاح، باب اتخاذ السراري، وفي الإكراه، باب إذا استكرهت المرأة على الزنا فلا حد عليها؛ ومسلم رقم (٢٣٧١) في الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ؛ وأبو داود رقم (٢٢١٢) في الطلاق، باب في الرجل يقول لامرأته: يا أختي؛ والترمذي رقم (٣١٦٥) في التفسير، باب ومن سورة الأنبياء. راجع: «جامع الأصول» المجلد العاشر، ص٦٠٥ ـ ٦٠٨.

قال: فأرسل بها، قال: فأرسل بها إليه وقال: لا تكذبي قولي فإني قد أخبرته إنك أختي إن ليس على الأرض مؤمن غيري وغيرك، فلما دخلت عليه قام إليها فأقبلت تتوضأ وتصلي وتقول: اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط عليّ الكافر».

قال: فغط[1] حتى ركض برجله.

قال أبو الزناد: قال أبو سلمة بن عبد الرحمٰن عن أبي هريرة أنها قالت: اللهم إن يمت، يقال: هي قتلته، قال: فأُرسل، قال: ثم قام إليها قال: فقامت تتوضأ وتصلي وتقول: اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فرجي إلا على زوجي، فلا تسلط علي الكافر.

قال: فغط حتى ركض برجله.

قال أبو الزناد وقال أبو سلمة عن أبي هريرة إنها قالت: اللهم إن يمت يقال: هي قتلته قال: فأُرسل.

قال: فقال في الثالثة أو الرابعة: ما أرسلتم إليّ إلا شيطاناً، ارجعوها إلى إبراهيم واعطوها هاجر، وقال: فرجعت فقالت لإبراهيم: أشعرت أن الله رد كيد الكافرين، وأخدم وليدة.

وعلَّق ابن كثير على هذا بقوله: «تفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط الصحيح»[2]، هذا وقد ورد الحديث عن الكذبات الثلاث في أحاديث الشفاعة، حيث أشير إليها في بعض هذه الأحاديث، وصرح بها في البعض الآخر.

---

(١) غط: كبس وعصر بشدة حتى ليكاد أن يختنق، وغط الشيء في الماء؛ أي: غمسه وغوصه فيه.

(٢) راجع: «البداية والنهاية» ١/ ١٤٢، ١٤٣؛ و«قصص الأنبياء» ١/ ١٣٢.

فقد ورد مثلاً في روايتَي البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قوله: إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض، فيأتون آدم، فيقولون: اشفع لذريتك، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بإبراهيم، فإنه خليل الله، فيأتون إبراهيم، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بموسى...

وفي رواية قتادة عن أنس عن رسول الله ﷺ أن نوحاً يقول: «**ائتوا إبراهيم الذي اتخذه الله خليلاً، فيأتون إبراهيم، فيقول: لست هناكم، وذكر خطيئته التي أصاب، فيستحي ربه منها**»[(١)]....

وفي رواية أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قوله: «**فيأتون إبراهيم فيقولون: أنت نبي الله، وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني كنت كذبت ثلاث كذبات... فذكرها.. نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري،...**»[(٢)].

وفي رواية أخرى: زاد في قصة إبراهيم، فقال: وذكر قوله في الكوكب: هذا ربي، وقوله لآلهتهم: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾[(٣)].

وفي رواية مسلم عن أبي حذيفة وأبي هريرة رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ: «**أن آدم عليه السلام حينما يقول: اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله، قال: فيقول إبراهيم: لست بصاحب ذلك، إنما كنت خليلاً من وراء وراء...**»[(٤)].

أما في رواية الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن

---

(١) راجع: «جامع الأصول» حديث رقم (٨٠١٥) ١٠/ ٤٧٧ وما بعدها.

(٢) راجع المصدر السابق حديث رقم (٨٠١٦)، رواه البخاري ومسلم والترمذي.

(٣) راجع المصدر السابق.

(٤) حديث رقم (١٧ ـ ١٨) من المصدر السابق.

رسول الله ﷺ: «**فإن إبراهيم عليه السلام يقول: إني كذبت ثلاث كذبات**»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**ما منها كذبة إلا ماحل بها عن دين الله...**»، وماحل من المماحلة، ومعناها: المخاصمة والمجادلة(١).

وفي «مسند الإمام أحمد» عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ: «**أن الناس حينما يقولون للخليل إبراهيم عليه السلام: اشفع لنا إلى ربنا فليقض بيننا، فيقول: إني لست هناكم، إني كذبت في الإسلام ثلاث كذبات، والله إن حاول بهن إلا عن دين الله: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾، وقوله لامرأته حين أتى على الملك: «أختي»، وإنه لا يهمني اليوم إلا نفسي،...**»(٢).

وبذلك فإنه يتبين لنا من خلال ما عرضناه من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة أن هناك أقوالاً ثلاثة صدرت عن الخليل إبراهيم عليه السلام، ونطق بها:

المبحث الأول: القول الأول: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾.

المبحث الثاني: القول الثاني: قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾.

المبحث الثالث: القول الثالث: قوله عن زوجه سارة: «هي أختي».



---

(١) راجع المصدر السابق.

(٢) حديث رقم (٢٥٤٦) ٤/ ١٨٧، ١٨٨، وحديث رقم (٢٦٩٢) ٤/ ٢٤١، ٢٤٢، تحقيق الشيخ أحمد شاكر وقد علق على الحديث الأخير بقوله: «إسناده صحيح» وهو مكرر (٢٥٤٦).
راجع أيضاً: «مسند الإمام أحمد»، طبعة مؤسسة الرسالة ضمن الموسوعة الحديثية التي أشرف على إصدارها الدكتور عبد الله التركي، المجلد الرابع، حديث رقم (٢٥٤٦) ص٣٣٠ ـ ٣٣٣، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

المبحث الأول

القول الأول: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾

يقول الله تعالى في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾، ثم قال: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾.

نقل المفسرون عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره أن قوم إبراهيم عليه السلام كانوا يتعاطون علم النجوم فعاملهم بذلك على مقتضى عادتهم لئلا ينكروا عليه، وذلك أنه أراد أن يكايدهم في أصنامهم ليلزمهم الحجة في أنها غير معبودة، وكان لهم من الغد يوم عيد يخرجون إليه، وأراد أن يتخلف عنهم ليبقى خالياً في بيت الأصنام فيقدر على كسرها، فاعتلَّ بالسقم، وذلك أنهم كلَّفوه أن يخرج معهم إلى عيدهم، فنظر في النجوم يريهم أنه مستدل بها على حاله، فلما نظر إليها قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾[1].

يذكر الحافظ ابن كثير أن إبراهيم عليه السلام إنما قال لقومه ذلك ليقيم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم، فإنه كان قد أزف خروجهم إلى عيد لهم، فأحب أن يختلي بآلهتهم ليكسرها، فقال لهم كلاماً هو حق في نفس الأمر فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه[2].

---

(١) راجع: «تفسير الطبري» ٢٣/٤٦؛ و«تفسير الرازي» ٢٦/١٤٧؛ و«فتح القدير» للشوكاني ٤/٥٢٨.

(٢) راجع: «تفسير القرآن العظيم» ٤/١٣.

ويترتب على ذلك سؤالان:

الأول: أن النظر في علم النجوم غير جائز، فكيف أقدم عليه الخليل إبراهيم عليه السلام؟

الثاني: إنه عليه السلام ما كان سقيماً، فلما قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ كان ذلك كذباً، فكيف ذلك؟

وللعلماء في الجواب على هذين السؤالين اتجاهات مختلفة:

حيث ذهب **أصحاب الاتجاه الأول** إلى ذكر عدة وجوه قاموا فيها بتفسير هذا القول دون أن يشيروا من قريب أو من بعيد إلى الأحاديث المذكورة والخاصة بالكذبات الثلاث والتي سبقت الإشارة إليها.

أما أصحاب الاتجاه الثاني، فإنهم قاموا بتفسير هذا القول ـ ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ـ وتوجيهه بعيداً عن ما ورد في الأحاديث المذكورة، لكنهم لم يتجاهلوه، بل على العكس من ذلك فقد كان لهم موقف واضح ومحدد من هذه الأحاديث ومن أمثالها.

وأما **أصحاب الاتجاه الثالث**، فإنهم قاموا بتفسير ما ورد في الآيات الكريمة من قول الخليل: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ على ضوء ما ورد في هذه الأحاديث المذكورة، حيث ربطوا بين ما ورد فيها وبين ما فهموه من الآيات الكريمة.

الاتجاه الأول:

ذكر أصحاب هذا الاتجاه عدة أجوبة مختلفة أذكر **منها ما يلي:**

الوجه الأول: ويتمثل في أنه نظر نظرة في النجوم في أوقات الليل والنهار، وكانت تأتيه سقامة كالحمى في بعض ساعات الليل والنهار، فنظر ليعرف هل هي في تلك الساعة، وقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، فجعله عذراً

في تخلفه عن العيد الذي لهم، وكان صادقاً فيما قال؛ لأن السقم كان يأتيه في ذلك الوقت، وإنما تخلف لأجل تكسير أصنامهم[(١)].

وقد أشار إلى ذلك أبو السعود فذكر أنه «قيل: كانت له عليه الصلاة والسلام حمى لها نوبة معينة في بعض ساعات الليل، فنظر ليعرف هل هي تلك الساعة فإذا هي قد حضرت فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وكان صادقاً في ذلك فجعله عذراً في تخلفه عن عيدهم»[(٢)].

الوجه الثاني: إن قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ۝٨٨﴾ هو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ إلى آخر الآيات، وكان ذلك النظر لأجل أن يتعرف أحوال هذه الكواكب هل هي قديمة أو محدثة، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ يعني: سقيم القلب، غير عارف بربي، وكان ذلك قبل البلوغ[(٣)].

وقد نسب الآلوسي مثل هذا القول إلى أبي مسلم، فبيّن أنه ذكر أن المعنى: نظر وتفكّر في النجوم ليستدل بأحوالها على حدوثها، وأنها لا تصلح أن تكون آلهة، فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾؛ أي: سقيم النظر، حيث لم يحصل له كمال اليقين.

وهذا لعمري ـ فيما يقول الآلوسي ـ يسلب عن أبي مسلم الإسلام، وفيه من الجهل بمقام الأنبياء لا سيما الخليل عليه وعليهم السلام ما يدل على سقم نظره، نعوذ بالله تعالى من خذلانه ومكره[(٤)].

ومن العلماء المحدثين الذين ربطوا بين قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ۝٨٩﴾ وبين ما ورد في سورة الأنعام عن

---

(١) راجع: «التفسير الكبير» ٢٦/ ١٤٧.

(٢) راجع: «إرشاد العقل السليم» ٤/ ٤١٣.

(٣) راجع: «تفسير الرازي» ٢٦/ ١٤٧، راجع الحديث عن الشبهة الأولى.

(٤) راجع: «روح المعاني» ٢٣/ ١٠٢.

سيدنا إبراهيم عليه السلام وقوله عن الكوكب والقمر والشمس: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي...﴾ الأستاذ عبد الكريم الخطيب حيث ذكر أن النظرة التي نظرها إبراهيم في النجوم، هي ما أشار إليه سبحانه في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ...﴾.

وبيّن أن سقم إبراهيم هنا هو سقم نفسي، لما اعتراه من حيرة خلال تلك التجربة التي عاناها مع هذه الكواكب التي ظل يرصدها ليلة بعد ليلة، ويرعى مسيرتها، ويتأمل وجهها مشرقة وغاربة.

فإذا أشرق واحد منها لقيه حفياً به، راجياً أن يكون الوجه الذي يرى فيه ربه الذي يعبده، ثم إذا رآه يغرب خاب ظنه فيه، فنفض يديه منه، كما ينفض المرء يديه من ميت دفنه في التراب....

وهكذا ظل إبراهيم يستقبل وجوه الكواكب، كوكباً كوكباً، ويدفنها واحداً واحداً.

وهكذا أيقن ـ بفطرته، وتجربته ـ أن إلٰهه ليس من عالم المنظور في الأرض أو في السماء... إنه سبحانه القوة القائمة على هذا الوجود، والسلطان المتصرف فيه، والإلٰه الذي لا يتحول ولا يتبدل، ولا يقع في حدود النظر.

لكنه يعود فيذكر أن هذه النظرة التي نظرها إبراهيم إلى النجوم هنا، غير تلك النظرة التي جاء ذكرها في الآيات السابقة، والتي كانت نظرة متسائلة متطلعة، سأل فيها النجم والقمر والشمس، وإنما كانت نظرته مذكرة له بما كان منه، وهو في سبيل البحث عن الله، قبل أن تأتيه الرسالة، وكأنه يدعو بهذه النظرة قومه إلى أن يسلكوا الطريق الذي سلك، وأن يهتدوا إلى الله بعقولهم كما اهتدى، إن كانوا يستنكفون من اتباعه، والأخذ بما يدعوهم إليه، ولكن لم تكن لهم عقول تعقل، ولا

آذان تسمع، فولوا عنه مدبرين[١].

ومن الواضح أن التكلف باد في هذا الرباط، وخاصة أنه قد سبق بيان بطلان هذا الاتجاه في تفسير قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، عند حديثنا عن الشبهة الأولى.

الوجه الثالث: يرى القائلون بهذا الوجه أن قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ معناها: إني مريض القلب بسبب إطباق ذلك الجمع العظيم على الكفر والشرك، فقد قال الله تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾[٢].

وقد أشار القاضي عياض إلى هذا الوجه فذكر أنه قيل: سقيم القلب بما أشاهده من كفركم وعنادكم[٣]، وكذلك المباركفوري حيث قال: «سقيم القلب لما فيه من الغيظ باتخاذ النجوم آلهة أو بعبادتكم للأصنام»[٤].

وقد تبنى هذا الوجه الأستاذ سيد قطب فتوسَّع فيه وذكر أنه يروى أنه كان للقوم عيد ـ ربما كان هو عيد النيروز ـ يخرجون فيه إلى الحدائق والخلوات، بعد أن يضعوا الثمار بين يدي آلهتهم لتباركها، ثم يعودون بعد الفسحة والمرح فيأخذون طعامهم المبارك! وأن إبراهيم عليه السلام بعد أن يئس من استجابتهم له، وأيقن بانحراف فطرتهم الانحراف الذي لا صلاح له، اعتزم أمراً، وانتظر هذا اليوم الذي يبعدون فيه عن المعابد والأصنام لينفذ ما اعتزم، وكان الضيق بما هم فيه من انحراف قد بلغ منه أقصاه وأتعب قلبه وقواه، فلما دعي إلى مغادرة المعبد، قلَّب نظره إلى السماء وقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، لا طاقة لي بالخروج إلى المتنزهات

---

(١) راجع تفاصيل ذلك في كتابه: «التفسير القرآني للقرآن» ٢٣/٩٩٦ ـ ٩٩٨.

(٢) راجع: «التفسير الكبير» ٢٦/١٤٧.

(٣) راجع: «الشفا» ٢/٧٧٩.

(٤) راجع: «تحفة الأحوذي» ٩/٥، دار الكتب العلمية، بيروت.

والخلوات، فإنما يخرج إليها طلاب اللذة والمتاع، أخلياء القلوب من الهم والضيق، وقلب إبراهيم لم يكن في راحة، ونفسه لم تكن في استرواح.

ويرى الأستاذ سيد قطب أن الخليل قال ذلك معبراً عن ضيقه وتعبه، وأفصح عنه ليتركوه وشأنه، ولم يكن هذا كذباً منه، إنما كان له أصل في واقع حياته في ذلك اليوم، وإن الضيق ليمرض ويسقم ذويه. وكان القوم معجلين ليذهبوا مع عاداتهم وتقاليدهم ومراسم حياتهم في ذلك العيد، فلم يتلبثوا ليفحصوا عن أمره، بل تولوا عنه مدبرين، مشغولين بما هم فيه، وكانت هذه هي الفرصة التي يريد.

لقد أسرع إلى آلهتهم المدَّعاة، وأمامها أطايب الطعام وبواكير الثمار، فقال في تهكم: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، ولم تجبه الأصنام بطبيعة الحال.

فاستطرد في تهكمه وعليه طابع الغيظ والسخرية ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۝٩٢﴾ وهي حالة نفسية معهودة، أن يوجه الإنسان كلامه إلى ما يعلم حقيقته، ويستيقن أنه لا يسمع ولا ينطق!

إنما هو الضيق بما وراء الآلهة المزعومة من القوم وتصورهم السخيف! ولم تجبه الآلهة مرة أخرى!!

وهنا أفرغ شحنة الغيظ المكتوم حركة لا قولاً، ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ۝٩٣﴾ وشفى نفسه من السقم والهم والضيق[1].

الوجه الرابع: إن قوم إبراهيم عليه السلام كانوا أصحاب النجوم يعظمونها، ويقضون بها على غائب الأمور، فلذلك نظر إبراهيم في النجوم؛ أي: علم النجوم وفي معانيه، لا أنه نظر بعينه إليها، وهو كما يقال: فلان نظر في الفقه، وفي النحو، وإنما أراد أن يوهمهم أنه يعلم

---

(١) راجع: «في ظلال القرآن» ٢٣/ ٢٩٩٢، ٢٩٩٣.

ما يعلمون، ويتعرف من حيث يتعرفون، حتى إذا قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ سكنوا إلى قوله.

أما قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ فمعناه: سأسقم، كقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾؛ أي: ستموت[(١)].

وقد أشار إلى هذا الرأي كل من الزمخشري وأبي السعود حيث ذكرا أن معنى قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾؛ أي: نظر في علمها أو في كتبها أو في أحكامها، فقد روي عن بعض الملوك أنه سئل عن مشتهاه، فقال: حبيب أنظر إليه، ومحتاج أنظر له، وكتاب أنظر فيه، ولا مانع مِنْ ذلك المعنى في حق الخليل ﷺ، حيث كان قصده إيهامهم حين أرادوا أن يخرجوا به ﷺ إلى معبدهم ليتركوه، فإن القوم كانوا نجّامين فأوهمهم أنه قد استدل بأمارة في علم النجوم على أنه سقيم؛ أي: مشارف للسقم، وهو الطاعون، وكان أغلب الأسقام عليهم ـ وكانوا يخافون العدوى ـ ليتفرقوا عنه، فهربوا منه إلى معبدهم وتركوه في بيت الأصنام، وذلك قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾؛ أي: هاربين مخافة العدوى، ففعل بالأصنام ما فعل[(٢)].

وتأييداً لهذا الرأي فإن القرطبي نقل قول ابن زيد عن أبيه بأن ملكهم قد أرسل إليه إن غداً عيدنا فاخرج معنا، فنظر إلى نجم طالع فقال: إن هذا يطلع مع سقمي ويذكر أن علم النجوم كان مستعملاً عندهم منظوراً فيه، فأوهمهم هو من تلك الجهة، وأراهم من معتقدهم عذراً لنفسه، وذلك أنهم كانوا أهل رعاية وفلاحة، وهاتان المعيشتان يحتاج فيها إلى نظر في النجوم[(٣)].

---

(١) راجع: «تفسير الرازي» ٢٦/ ١٤٧.

(٢) راجع: «الكشاف» ٣/ ٣٠٤؛ و«إرشاد العقل السليم» ٤/ ٤١٣، ٤١٤.

(٣) راجع: «الجامع لأحكام القرآن» ١٥/ ٩٢.

ويتساءل الزمخشري: فإن قلت: كيف جاز له أن يكذب، قلت: قد جوزه بعض الناس في المكيدة في الحرب والتقية وإرضاء الزوج، والصلح بين المتخاصمين والمتهاجرين، والصحيح أن الكذب حرام إلا إذا عرَّض وورَّى، والذي قاله إبراهيم ﷺ معراض من الكلام، ولقد نوى به أن من في عنقه الموت سقيم.

ومنه المثل: كفى بالسلامة داء، وقول لبيد: «فدعوت ربي بالسلامة جاهداً ليصحَّني فإذا السلامة داء، وقد مات رجل فجأة فالتف عليه الناس وقالوا: مات وهو صحيح، فقال أعرابي: أصحيح مَن الموت في عنقه»[1].

وقد أشار البيضاوي إلى مثل ذلك، فذكر أن معنى قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾ رأى مواقعها واتصالاتها، أو نظر في علمها أو في كتابها، ولا مانع منه لأن قصده إيهامهم.

وجاء في «**حاشية الشهاب**» عليه أنه ذكر ذلك لأن ما يستدل به على حدوث أمر ليس هو رؤية اجرامها فقط، بل مع ما يستدل به من أحوالها كاتصال بعضها ببعض، وتقابلها وتقارنها ومواقعها.

فالمراد بالنظر فيها التأمل في أحوالها، أو في علمها المشروح فيه ما شاهده من ذلك، أو في كتب النجوم وأحكامها، ولذا عدَّاه بـ«في» كما قيل:

هل من كتاب أو أخ أو فتى   أنظر فيه أو له أو إليه[2]

وهنا يأتي هذا التساؤل:

---

(١) راجع: «الكشاف» ٣/ ٣٠٤.

(٢) راجع: «حاشية الشهاب علي البيضاوي» ٨/ ٨٦، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

كيف ينظر الخليل في النجوم، وهو نبي معصوم؟

ويجيب الخفاجي بأن ذلك ليس بممنوع شرعاً، وكون النجوم تدل على بعض الأمور لجعل الله لها علامة عليه جائز، وإنما الممتنع اعتقاد أنها مؤثرة بنفسها، والجزم بكلية أحكامها[٢].

ولذلك فإن الآلوسي بعد أن أشار إلى هذا الرأي ذكر أن النظر في النجوم للاستدلال على بعض الأمور ليس بممنوع شرعاً إذا كان باعتقاد أن الله تعالى جعلها علامة عليه، والممنوع الاستدلال باعتقاد أنها مؤثرة بنفسها، والجزم بكلية أحكامها.

ويرى أن هذا البحث من أهم المباحث، فإنه لم يزل معترك العلماء والفلاسفة الحكماء، ثم قام بتحقيق الحق فيه وبيان كدره وصافيه[١].

وبيّن بطلان من زعم أن للنجوم تأثيراً يعرفه المنجم كالسعادة والنحوسة، وطول العمر وقصره، وسعة العيش وضيقه، إلى غير ذلك مما لا يخفى على من راجع كتب أحكام طوالع المواليد، وطوالع السنين والكسوف والخسوف والأعمال ونحوها، وهو مما لا ينبغي أن يعوَّل عليه، أو يُلتفت إليه، فليس له دليل عقلي أو نقلي، بل الأدلة قائمة ببطلانه، متكفلة بهدم أركانه، والقائلون به يعد اتفاقهم على أن الخير والشر، والإعطاء والمنع، وما أشبه ذلك يكون في العالم بالكواكب على حسب السعود والنحوس... اختلفوا في كثير من الأصول، وتكلموا بكلام يضحك منه أرباب العقول[٢].

معنى ذلك: أن ما ذكر عن إبراهيم خليل الرحمٰن من أنه تمسك بعلم النجوم حين قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ هو الكذب والافتراء على خليل

---

(١) راجع تفاصيل ذلك في: «روح المعاني» ٢٣/ ١٠٢ ـ ١٢٣؛ أي: أكثر من عشرين صحيفة.

(٢) راجع: المصدر السابق ص١٠٣ ـ ١٠٥.

الرحمٰن ﷺ، فإنه ليس في الآية أكثر من أنه نظر نظرة في النجوم ثم قال لهم: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾.

فمن ظن من هذا أن علم أحكام النجوم من علم الأنبياء، وأنهم كانوا يراعونه ويعانونه فقد كذب على الأنبياء[1]، ونسبهم إلى ما لا يليق، وهو من جنس من نسبهم إلى الكهانة والسحر، وزعم أن تلقيهم الغيب من جنس تلقي غيرهم، وإن كانوا فوقهم في ذلك لكمال نفوسهم وقوة استعدادها وقَبولها لفيض العلويات عليها.

وهؤلاء لم يعرفوا الأنبياء ولا آمنوا بهم.

وإنما هم عندهم بمنزلة أصحاب الرياضات الذين خُصُّوا بقوة الإدراك، وزكاة النفوس وزكاة الأخلاق، ونصبوا أنفسهم لإصلاح الناس وضبط أمورهم، ولا ريب أن هؤلاء أبعد الخلق عن الأنبياء وأتباعهم ومعرفتهم ومعرفة رسلهم وما أرسلهم به، هؤلاء في شأن، والرسل في شأن آخر، بل هم ضدهم في علومهم وأعمالهم وهديهم وإرادتهم وطرائقهم ومعادهم وفي شأنهم كله.

ولهذا نجد أتباع هؤلاء ضد أتباع الرسل في العلوم والأعمال والهدى والإرادات، ومتى بعث الله رسولاً يعاني التنجيم والنيرنجات والطلسمات والتداخين والبخورات، ومعرفة القرانات والحكم على

---

(١) راجع قول من قال بذلك في: «تفسير القرطبي» ١٥/ ٩٢ حيث زعم البعض أن علم النجوم كان من النبوة!!!، فلما حبس الله تعالى الشمس على يوشع بن نون أبطل ذلك، فكان نظر إبراهيم فيها علماً نبوياً.
ويزعم البعض الآخر أن علم النجوم كان باقياً إلى زمن عيسى عليه السلام، حتى دخلوا عليه في موضع لا يطلع عليه منه، فقالت لهم مريم: من أين علمتم بموضعه؟ قالوا: من النجوم، فدعا ربه عند ذلك فقال: اللهم لا تفهمهم في علمها، فلا يعلم النجوم أحد فصار حكمها في الشرع محظوراً.

الكواكب بالسعود والنحوس، والحرارة والبرودة، والذكورة والأنوثة.

وهل هذه إلا صنائع المشركين وعلومهم، وهل بعثت الرسل إلا بالإنكار على هؤلاء ومحقهم ومحق علومهم وأعمالهم من الأرض.

وهل للرسل أعداء بالذات إلا هؤلاء ومن سلك سبيلهم، وهذا معلوم بالاضطرار لكل من أحسن بالرسل صلوات الله وسلامه عليهم وصدقهم فيما جاءوا به، وعرف مسمى رسول الله، وعرف مرسله، وهل كان لإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام عدو مثل هؤلاء المنجمين الصابئين، وحرَّان كانت دار مملكتهم، والخليل أعدى عدوٍّ لهم، وهم المشركون حقاً. يذكر الإمام ابن القيم أنه إذا كانت الرسل قد بعثت بمحق الشرك من الأرض ومحق أهله وقطع أسبابه، وهدم بيوته، ومحاربة أهله، فكيف نظن بإمام الحنفاء، وشيخ الأنبياء، وخليل رب الأرض والسماء، أنه كان يتعاطى علم النجوم، ويأخذ منه أحكام الحوادث، سبحانك هذا بهتان عظيم.

وإنما كانت النظرة التي نظرها في علم النجوم من معاريض الأفعال كما كان قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وقوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾، وقوله عن امرأته سارة: «هذه أختي» من معاريض المقال، ليتوصل بها إلى غرضه من كسر الأصنام، كما توصل بتعريضه بقوله: «هذه أختي» إلى خلاصها من يد الفاجر، ولما غلظ فَهْمُ هذا عن كثير من الناس، وكثفت طباعهم عن إدراكه، ظنوا أن نظره في النجوم ليستنبط منها علم الأحكام، وعلم أن نجمه وطالعه يقضي عليه بالسقم، وحاشا لله أن يُظن ذلك بخليله صلى الله تعالى عليه وسلم، أو بأحد من أتباعه.

وهذا من جنس معاريض يوسف الصديق صلى الله تعالى عليه وسلم حين تفتيش أوعية أخيه عن الصاع، فإن المفتش بدأ بأوعيتهم مع علمه أنه ليس فيها، وأخّر وعاء أخيه مع علمه أنه فيها تعريضاً بأنه لا

يعرف في أي وعاء هي، ونفياً للتهمة عنه بأنه لو كان عالماً في أي الأوعية هي لبادر إليها، ولم يكلف نفسه تعب التفتيش لغيرها.

فلهذا نظر الخليل ﷺ في النجوم نظر تورية وتعريض محض ينفي به عنه تهمته قومه، ويتوصل به إلى كيد أصنامهم[1].

ولذلك فإن الإمام الألوسي قد ذهب إلى أن قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ۝٨٨﴾ معناه: أن الخليل عليه السلام قد تأمل نوعاً من التأمل في أحوالها، وهو في نفس الأمر على طرز تأمل الكاملين في خلق السماوات والأرض وتفكرهم في ذلك، إذ هو اللائق به عليه السلام، ولكنه أوهمهم أنه تفكر في أحوالها من الاتصال والتقابل ونحوهما من الأوضاع التي تدل بزعمهم على الحوادث ليرتب عليه ما يتوصل به إلى غرضه الذي يكون وسيلة إلى إنقاذهم مما هم فيه، والظاهر بعد اعتبار الإيهام أنه إيهام التفكر في أحكام طالع ولادته عليه السلام، وما يدل عليه بزعمهم ما تجدد له من الأوضاع في تلك الأوقات.

وهذا من معاريض الأفعال نظير ما وقع في قصة يوسف عليه السلام من تفتيش أوعية إخوته بني علاته قبل وعاء شقيقه، فإن المفتش بدأ بأوعيتهم مع علمه أن الصاع ليس فيها، وأخّر تفتيش وعاء أخيه مع علمه بأنه فيها، تعريضاً بأنه لا يعرف في أي وعاء هو، ونفياً للتهمة عنه لو بدأ بوعاء الأخ.

أما قوله: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ۝٨٩﴾ فمعناه: أنه أراد أنه سيسقم، ولقد صدق عليه السلام، فإن كل إنسان لا بد أن يسقم، وكفى باعتلال المزاج أول سريان الموت في البدن سقاماً، وقيل: أراد مستعد للسقم الآن أو خارج المزاج عن الاعتدال خروجاً قلّ من يخلو عنه، أو سقيم القلب لكفركم،

---

(١) راجع: «مفتاح دار السعادة» ٢/١٩٦ ـ ١٩٨، مكتبة المتنبي بالقاهرة.

والقوم توهموا أنه أراد قرب اتصافه بسقم لا يستطيع معه الخروج معهم إلى معبدهم، وهو على ما روي عن سفيان وابن جبير سقم الطاعون، فإنهما فسرا ﴿سَقِيمٌ﴾ بمطعون، وكان كما قيل أغلب الأسقام عليهم، وكانوا شديدي الخوف منه لاعتقادهم العدوى فيه(١).

الاتجاه الثاني:

يمثل هذا الاتجاه الإمام الرازي من القدماء، والشيخ عبد الوهاب النجار من المُحْدَثين.

فيما يتعلق بالإمام الرازي فإنه قد ذكر وجوهاً متعددة في تفسير قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ انتهى في كثير منها إلى أن قوله هذا لا يعد كذباً، حيث ذكر في أحد هذه الوجوه أنا لا نسلم أن النظر في علم النجوم والاستدلال بمقايستها حرام؛ لأن من اعتقد أن الله تعالى خصَّ كل واحد من هذه الكواكب بقوة وبخاصية لأجلها يظهر منه أثر مخصوص، فهذا العلم على هذا الوجه ليس بباطل، وأما الكذب فغير لازم لأنه ذكر قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ على سبيل التعريض، بمعنى أن الإنسان لا ينفك في أكثر أحواله عن حصول حالة مكروهة، إما في بدنه، وإما في قلبه، وكل ذلك سقم.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن الرازي قد حمل على من ربط بين هذا القول ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وبين ما ورد في الحديث الخاص بالكذبات الثلاث، فذكر أن بعضهم اعتبر هذا القول عن إبراهيم عليه السلام كذبة، ورووا فيه حديثاً عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما كذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات**».

ثم يذكر أنه قال لبعضهم: هذا الحديث لا ينبغي أن يقبل لأن نسبة الكذب إلى إبراهيم لا تجوز، فقال ذلك الرجل: فكيف يحكم بكذب

---

(١) راجع: «روح المعاني» ٢٣/ ١٠١.

الرواة العدول؟ فقال له الرازي: لما وقع التعارض بين نسبة الكذب إلى الراوي وبين نسبته إلى الخليل عليه السلام كان من المعلوم بالضرورة أن نسبته إلى الراوي أولى.

ثم يستدرك الرازي قائلاً: لِمَ لا يجوز أن يكون المراد بكونه كذباً خبراً شبيهاً بالكذب؟[1].

وقد علّل الآلوسي إنكار الرازي للحديث الوارد في ذلك ـ رغم أنه في «الصحيحين» ـ، وقوله: إسناد الكذب إلى راويه أهون من إسناده إلى الخليل عليه السلام، علّل ذلك بأنه راجع إلى ضيق محرابه ومجاله[2].

وقد تابع الشيخ عبد الوهاب النجار الإمام الرازي فيما ذهب إليه أيضاً، حيث ذكر أن ما حصل من إبراهيم هنا ليس كذباً، فقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ يحتمل أنه كان به سقم خفيف، أو أنه كان سقيم الباطن والضمير، قلق الخاطر، مألوماً في نفسه لرؤيته قومه يعبدون غير الله، ولا يصغون لعظة ولا نصيحة[3].

الاتجاه الثالث:

أما العلماء الذين ربطوا بين معنى هذه الآية الكريمة: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾، وبين ما ورد في الحديث الصحيح الخاص بالكذبات الثلاث فهم كثيرون، منهم قدماء ومنهم محدثون، منهم مفسرون ومنهم غير ذلك.

ومن هؤلاء العلماء القدماء غير المفسرين الإمام ابن حزم (ت٤٥٦هـ) الذي رد على الطاعنين في عصمة الخليل عليه السلام مستدلين على

---

(١) راجع: «التفسير الكبير» ٢٦/١٤٧، ١٤٨.

(٢) راجع: «روح المعاني» ٢٣/١٠٢.

(٣) راجع: «قصص الأنبياء» ص١٢١.

ما ذهبوا إليه بما ورد في الحديث من الكذبات الثلاث، رد عليهم بقوله: «أما الحديث: أنه عليه السلام كذب ثلاث كذبات، فليس كل كذب يكون معصية، بل منه ما يكون طاعة لله عز وجل، وفرضاً واجباً، يعصى من تركه، صح أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً**»».

فقد أباح عليه السلام كذب الرجل لامرأته فيما يستجلب به مودتها، وكذلك الكذب في الحرب، فقد أجمع أهل الإسلام على أن إنساناً لو سمع مظلوماً قد ظلمه سلطان وطلبه ليقتله بغير حق، ويأخذ ماله غصباً فاستتر عنده، وسمعه يدعو على من ظلمه قاصداً بذلك السلطان، فسأل السلطان ذلك السامع عما سمعه منه وعن موضعه، فإنه إن كتم ما سمع، وأنكر أن يكون سمعه، أو أنه يعرف موضعه أو موضع ماله، فإنه محسن مأجور مطيع لله عز وجل، وأنه إن صدقه فأخبره بما سمعه منه وبموضعه وموضع ماله، كان فاسقاً عاصياً لله عز وجل، فاعل كبيرة مذموماً نمَّاماً.

وقد أبيح الكذب في إظهار الكفر في التقية، وكل ما روي عن إبراهيم عليه السلام في تلك الكذبات فهو داخل في الصفة المحمودة، لا في الكذب الذي نهى عنه.

هذا ما يتعلق بالكذبات الثلاث بوجه عام.

أما ما يتعلق هنا بقوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ۝٨٩﴾، فقد ذكر ابن حزم أن هذا القول ليس كذباً، ولسنا ننكر أن تكون النجوم دلائل على الصحة والمرض، وبعض ما يحدث في العالم كدلالة البرق على تغول البحر، وكدلالة الرعد على تولد الكمأة، وكتولد المد والجزر على طلوع القمر وغروبه، وانحداره وارتفاعه، وامتلائه ونقصه، وإنما المنكر قول من قال: إن الكواكب

هي الفاعلة المدبرة لذلك، دون الله تعالى، أو مشتركة معه، فهذا كفر من قائله[1].

ومن هؤلاء العلماء أيضاً القاضي عياض (ت٥٤٤هـ) الذي أشار إلى ذلك الحديث في معرض حديثه عن عصمة النبي عليه السلام في أقواله وأفعاله.

حيث ذكر أنه فيما يتعلق بأقواله ﷺ، فقد قامت الدلائل الواضحة بصحة المعجزة على صدقه، وأجمعت الأمة فيما كان طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء منها بخلاف ما هو به لا قصداً وعمداً، ولا سهواً وغلطاً.

وأكد على ما وقع عليه إجماع المسلمين من أنه لا يجوز عليه خلف في القول في إبلاغ الشريعة، والإعلام بما أخبر به عن ربه، وما أوحاه إليه من وحيه، لا على وجه العمد، ولا على غير عمد، ولا في حالي الرضا والسخط، والصحة والمرض.

ذلك لأنه إذا قامت المعجزة على صدقه، وأنه لا يقول إلا حقاً، ولا يبلغ عن الله إلا صدقاً، وأن المعجزة قائمة مقام قول الله له: صدقت فيما تذكره عني، وهو قول: إني رسول الله إليكم لأبلغكم ما أرسلت به إليكم، وأبين لكم ما نزل عليكم... فلا يصح أن يوجد منه في هذا الباب خبر بخلاف مخبره على أي وجه كان.

ولو جوزنا عليه الغلط والسهو لما تميز لنا من غيره، ولا اختلط الحق بالباطل، فالمعجزة مشتملة على تصديقه جملة واحدة من غير خصوص، فتنزيه النبي عن ذلك كله واجب برهاناً وإجماعاً كما قاله

---

(١) راجع: «الفصل في الملل والأهواء والنحل» ٤/ ١٥، ١٦، الطبعة المحققة، دار الجيل، بيروت.

أبو إسحاق[١].

ثم يذكر القاضي عياض أن هذا القول فيما طريقه البلاغ، وأما ما ليس سبيله سبيل البلاغ من أخبار المعاد، ولا تضاف إلى وحي، بل في أمور الدنيا وأحوال نفسه، فالذي يجب اعتقاده تنزيه النبي ﷺ أن يقع خبره في شيء من ذلك بخلاف مخبره لا عمداً ولا سهواً ولا غلطاً، وأنه معصوم من ذلك في حال رضاه وفي سخطه، وجدّه ومزحه، وصحته ومرضه.

ودليل ذلك اتفاق السلف وإجماعهم عليه: وذلك أنا نعلم من دين الصحابة وعادتهم مبادرتهم إلى تصديق جميع أحواله، والثقة بجميع أخباره في أي باب كانت، وعن أي شيء وقعت، وأنه لم يكن لهم توقف ولا تردد في شيء منها، ولا استثبات عن حاله عند ذلك، هل وقع فيها سهو أو لا؟[٢].

ولننظر في أحوال أهل عصر النبي ﷺ من قريش وغيرها من الأمم، وسؤالهم عن حاله في صدق لسانه، وما عرفوا به من ذلك، واعترفوا به مما عرف، واتفق النقل على عصمة نبينا ﷺ منه قبل وبعد[٣].

وإذا كان هذا ما قرره القاضي عياض في شأن نبينا ﷺ، فإنه بلا ريب ينطبق على جميع الأنبياء والمرسلين ولا سيما على أبيهم وشيخهم الخليل إبراهيم عليه السلام.

ومن أجل ذلك فإنه قد دافع عنه في هذا المجال فقال: «وأما قصة

---

(١) راجع: «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» ٢/ ٧٤٥ ـ ٧٤٨.

(٢) راجع: المصدر السابق ٢/ ٧٦٨، ٧٦٩.

(٣) راجع: المصدر السابق ٢/ ٧٧٢.

كلمات إبراهيم المذكورة في الحديث، أنها كذباته الثلاث: المنصوصة في القرآن منها اثنتان: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾، وقوله للملِك عن زوجته: إنها أختي. فاعلم أكرمك الله أن هذه كلها خارجة عن الكذب، لا في القصد ولا في غيره، وهي داخلة في باب المعاريض، التي فيها مندوحة عن الكذب.

أما قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ فقال الحسن وغيره: معناه: سأسقم؛ أي: إن كل مخلوق معرَّض لذلك، فاعتذر لقومه من الخروج معهم إلى عيدهم بهذا، وقيل: بل سقيم بما قدر عليَّ من الموت، وقيل: سقيم القلب بما أشاهده من كفركم وعنادكم، وقيل: بل كانت الحمى تأخذه عند طلوع نجم معلوم، فلما رآه اعتذر بعادته.

وكل هذا ليس فيه كذب، بل هو خبر صحيح صدق[١].

فالأنبياء معصومون من الكذب، ذلك لأن الكذب متى عُرف من أحد في شيء من الأخبار بخلاف ما هو على أي وجه كان، استريب بخبره، واتهم في حديثه، ولم يقع قوله في النفوس موقعاً.

ولهذا ترك المحدثون والعلماء الحديث عمن عرف بالوهم والغفلة وسوء الحفظ، وكثرة الغلط، مع ثقته.

وأيضاً، فإن تعمَّد الكذب في أمور الدنيا معصية، والإكثار منه كبيرة بإجماع، مسقط للمروءة، وكل هذا مما ينزّه عنه منصب النبوة، والمرة الواحدة منه فيما يستبشع ويستشنع ويشيع. مما يخل بصاحبها، ويزري بقائلها، لاحقة بذلك[٢].

وينتهي القاضي عياض إلى أن الصواب تنزيه النبوة عن قليل الكذب وكثيره، سهوه وعمده، إذ عمدة النبوة البلاغ والإعلام والتبيين، وتصديق

---

(١) راجع: «الشفا» ٢/ ٧٧٨، ٧٧٩.
(٢) راجع: المصدر السابق ٢/ ٧٧١.

ما جاء به النبي ﷺ، وتجويز شيء من هذا قادح في ذلك، ومشكك فيه، مناقض للمعجزة.

ويرى أنه لا بد أن نقطع عن يقين بأنه لا يجوز على الأنبياء خلف في القول في وجه من الوجوه، لا بقصد ولا بغير قصد، ولا نتسامح مع من سامح في تجويز ذلك عليهم حال السهو مما ليس طريقه البلاغ، نعم، وبأنه لا يجوز عليهم الكذب قبل النبوة، ولا الاتسام به في أمورهم، وأحوال دنياهم؛ لأن ذلك كان يزري ويريب، وينفر القلوب عن تصديقهم بعد[1].

ومن العلماء المفسِّرين الذين ربطوا بين ما قيل في قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وبين ما ورد بشأن ذلك في حديث الكذبات الثلاث الإمام القرطبي، الذي أشار إلى قول الضحاك في قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ على أنه بمعنى: سأسقم سقم الموت؛ لأن من كتب عليه الموت يسقم في الغالب ثم يموت، وعلق عليه بقوله: «وهذا تورية وتعريض، كما قال للملك لما سأله عن سارة: هي أختي؛ يعني: أخوة الدين».

ثم بيّن القرطبي أن الحديث الصحيح الذي يقول فيه النبي ﷺ: **«لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام إلا ثلاث كذبات»**، يدل على أنه لم يكن سقيماً، وإنما عرّض لهم، وقد قال جل وعز: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾، فالمعنى إني سقيم فيما أستقبل، فتوهموا هم أنه سقيمٌ الساعة. ويرى القرطبي أن هذا من معاريض الكلام، ومنه المثل السائر: «كفى بالسلامة داء».

وقول لبيد:

فدعوت ربي بالسلامة جاهداً ليصحيني فإذا السلامة داءُ

---

(١) راجع: المصدر السابق ص٧٧٢.

وقد مات رجل فجأة فالتف عليه الناس فقالوا: مات وهو صحيح! فقال أعرابي: أصحيح مَن الموت في عنقه!؟

وينتهي القرطبي إلى أن إبراهيم عليه السلام صادق، ولكن لما كان الأنبياء لقرب محلهم، واصطفائهم، عد هذا ذنباً، ولهذا قال: «والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين»(١).

ومن هؤلاء العلماء أيضاً: العلامة الحافظ ابن كثير (٧٧٤هـ) حيث أشار إلى حديث: «**لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام غير ثلاث كذبات**»، فذكر أنه حديث مخرج في الصحاح والسنن من طرق، ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله، حاشا وكلا، ولما.

وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزاً، وإنما هو من المعاريض في الكلام لمقصد شرعي ديني كما جاء في الحديث: «إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب»(٢).

ومن المفسرين المحدثين الذين يمثلون هذا الاتجاه أيضاً العلامة الآلوسي الذي بعد أن بيّن أن قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾؛ يُعد من معاريض الأفعال، أشار إلى قوله عليه السلام: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وقوله في زوجته سارة هي أختي من معاريض الأقوال؛ كقول نبينا ﷺ لمن قال له في طريق الهجرة: ممن الرجل؟ قال: من ماء، حيث أراد عليه الصلاة والسلام ذكر مبدأ خلقه، ففهم السائل أنه بيان قبيلته؛ كقول صاحبه الصديق وقد سئل عنه عليه الصلاة والسلام في ذاك أيضاً: هو هاد يهديني، حيث أراد شيئاً، وفهم السائل شيئاً آخر، ولا يعد ذلك كذباً في الحقيقة.

---

(١) راجع: «تفسير القرطبي» ١٥/ ٩٣.

(٢) راجع: «تفسير القرآن العظيم» ٤/ ١٣.

وأجاب الآلوسي عن سبب تسمية هذا القول بالكذب في بعض الأحاديث الصحيحة، فذكر أنه سُمِّي بذلك بالنظر لما فهم الغير منه، لا بالنسبة إلى ما قصده المتكلم.

والسر في جعله ذنباً في حديث الشفاعة: قيل: لأنه يتكشف لإبراهيم عليه السلام أنه كان منه خلاف الأولى، لا أن كل تعريض كذلك، فإنه قد يجب[1].

فإذا ما انتقلنا إلى العلماء من شراح الحديث النبوي نجد أن الإمام النووي في شرحه لـ«صحيح مسلم» يعلق على حديث: «**لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات**»، فينقل عن المازري قوله: «ما الكذب فيما طريقه البلاغ عن الله تعالى، فالأنبياء معصومون منه سواء كثيره وقليله»، وأما ما لا يتعلق بالبلاغ ويعد من الصفات كالكذبة الواحدة في حقير من أمور الدنيا، ففي إمكان وقوعه منهم وعصمتهم منه القولان المشهوران للسلف والخلف.

وارتضى قول القاضي عياض بأن الكذب فيما يتعلق بالبلاغ لا يتصور وقوعه منهم، سواء جوَّزنا الصغائر منهم وعصمتهم منه أم لا، وسواء قلّ الكذب أم كثر؛ لأن منصب النبوة يرتفع عنه، وتجويزه يرفع الوثوق بأقوالهم.

وأما قوله ﷺ ثنتين في ذات الله تعالى، وواحدة في شأن سارة فمعناه: أن الكذبات المذكورة إنما هي بالنسبة إلى فهم المخاطب والسامع، وأما في نفس الأمر فليست كذباً مذموماً لوجهين:

أحدهما: أنه ورَّى بها فقال في سارة أختي في الإسلام، وهو صحيح في باطن الأمر.

---

(١) راجع: «روح المعاني» ٢٣/١٠١، ١٠٢.

والوجه الثاني: أنه لو كان كذباً لا تورية فيه لكان جائزاً في دفع الظالمين.

وقد اتفق الفقهاء على أنه لو جاء ظالم يطلب إنساناً مختفياً ليقتله، أو يطلب وديعة لإنسان ليأخذها غصباً، وسأل عن ذلك وجب على من علم ذلك إخفاؤه، وإنكار العلم به، وهذا كذب جائز، بل واجب لكونه في دفع الظلم، فنبه النبي ﷺ على أن هذه الكذبات ليست داخلة في مطلق الكذب المذموم.

ثم ينقل النووي عن المازري قوله بأنه قد تأول بعضهم هذه الكلمات وأخرجها عن كونها كذباً، وقوله بأنه لا معنى للامتناع من إطلاق لفظ أطلقه رسول الله ﷺ. ثم علَّق على هذا القول بأنه فيما يتعلق بإطلاق لفظ الكذب عليها فلا يمتنع لورود الحديث به.

وأما تأويلها فصحيح لا مانع منه[١].

وأما فيما يتعلق بقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ فمعناه: سأسقم لأن الإنسان عرضة للأسقام، وأراد بذلك الاعتذار عن الخروج معهم إلى عيدهم، وشهود باطلهم وكفرهم، وقيل: سقيم بما قُدِّر عليَّ من الموت، وقيل: كانت تأخذه الحمى في ذلك الوقت[٢].

وفي شرحه لـ«صحيح الترمذي المسمَّى **بعارضة الأحوذي**»، يذكر ابن العربي في شرحه لحديث: «**لم يكذب إبراهيم...**»: أن الكذب هو الخبر عن الشيء بخلاف مخبره، كان بقصد أو بغير قصد، مأذوناً فيه أو غير مأذون، ولم يحرم لعينه، ولا قبح لذاته؛ لأنه قد يوجد الكذب في الشريعة واجباً؛ كتخليص المسلم من الظالم، وقد يوجد مستحباً ككذب يدفع الضرر عن الكاذب في أحد القولين، وفي القول الآخر أنه واجب، وقد يكون مباحاً ككذب الرجل لأهله، وأكد ابن العربي على ما حققه في

---

(١) راجع: «شرح صحيح مسلم» ١٥/ ١٢٤، المطبعة المصرية ومكتبتها.

(٢) راجع: المصدر السابق ص١٢٤، ١٢٥.

كتب أخرى من أن الأنبياء معصومون عن المعاصي وخصوصاً الكذب، وخصوص الخصوص في تبليغ الشرائع.

فإذا كان في التبليغ لم يجز بقصد وبغير قصد، وأما الناس فإذا جوَّزنا لهم الكذب، فلا يجوز إلا بالتعريض لا بالقصد إليه صريحاً في المواطن التي يجوز فيها الكذب، حيث قال رسول الله ﷺ: «**لا يحل الكذب إلا في ثلاث: يحدث الرجل امرأته ليرضيها، والكذب في الحرب، والكذب ليصلح بين الناس**».

وينتهي ابن العربي إلى أنه فيما يتعلق بالخليل إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه فإنه لم يقصد الكذب، ولا جرى في خبره كذب، حيث يرى أن قوله هنا: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ليس بكذب، لأنه ما أعظم سقمه بما كان يرى من الكفر والباطل[1].

ثم جاء الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني صاحب «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» فذكر أن دلالة العقل تصرف ظاهر إطلاق الكذب على إبراهيم، وذلك أن العقل قطع بأن الرسول ينبغي أن يكون موثوقاً به ليعلم صدق ما جاء به عن الله، ولا ثقة مع تجويز الكذب عليه، فكيف مع وجود الكذب منه، وإنما أطلق عليه ذلك لكونه بصورة الكذب عند السامع، وعلى تقديره فلم يصدر ذلك من إبراهيم عليه السلام ـ يعني: إطلاق الكذب على ذلك ـ إلا في حال شدة الخوف لعلو مقامه، وإلا فالكذب المحض في مثل تلك المقامات يجوز، وقد يجب لتحمل أخف الضررين دفعاً لأعظمهما.

وأما تسميته إياها كذبات فلا يريد أنها تذم، فإن الكذب وإن كان قبيحاً مخلّاً لكنه قد يحسن في مواضع وهذا منها[2].

---

(١) راجع: «عارضة الأحوذي» ١١/١٨ حديث رقم (٣١٦٦)، وحديث رقم (١٩٣٨) ج٨.

(٢) راجع: «فتح الباري» ٦/ ٤٥١ حديث رقم (٣٣٥٨).

ثم يقول ابن حجر في موضوع آخر:

وأما إطلاقه الكذب على الأمور الثلاثة فلكونه قال قولاً يعتقده السامع كذباً، لكنه إذا حُقق لم يكن كذباً؛ لأنه من باب المعاريض المحتملة للأمرين فليس بكذب محض، فقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ يحتمل أن يكون أراد إني سقيم؛ أي: سأسقم، واسم الفاعل يستعمل بمعنى المستقبل كثيراً، ويحتمل أنه أراد أني سقيم بما قدِّر عليَّ من الموت، أو سقيم الحجة على الخروج معكم.

وحكى النووي عن بعضهم أنه كان تأخذه الحمَّى في ذلك الوقت وهو بعيد؛ لأنه لو كان كذباً لم يكن كذباً لا تصريحاً ولا تعريضاً[١].

ولا شك أنني أرجح ما ذهب إليه أصحاب الاتجاه الثالث، حيث بينوا المراد من الآية الكريمة على ضوء ما ذكره المصطفى ﷺ في الحديث المتفق عليه، وهذا هو ما ينبغي أن يكون، وهو ما ذهب إليه الإمام الطبري وهو شيخ المفسرين ـ في هذه الآية حيث قال ـ:

«واختلف في وجه قيل إبراهيم لقومه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وهو صحيح: فروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات...**».

وقال آخرون: إن قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ كلمة فيها معراض، ومعناها: أن كل من كان في عقبه الموت فهو سقيم، وإن لم يكن به حين قالها سقم ظاهر.

وينتهي الطبري إلى أن الخبر عن رسول الله ﷺ بخلاف هذا القول، وقول رسول الله ﷺ هو الحق دون غيره»[٢].

وإذا كنا نوافق الطبري فيما ذهب إليه من ضرورة تفسير قوله: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ على ضوء ما ورد في الأحاديث النبوية، إلا أنني لا أرى

---

(١) راجع المصدر السابق.

(٢) «تفسير الطبري» ٢٣/ . . .

مانعاً من تأويل هذا القول تأويلاً لا يتصادم مع نصوص السُّنة النبوية، وهو ما ذهب إليه الإمام ابن عطية حيث ارتضى رأي الفرقتين اللتين أشار إليهما ولم يجد بأساً من الجمع بين الرأيين والتوفيق بينهما، حيث إن ما ورد في حديث الكذبات الثلاث لا يرد ما ذهبوا إليه من تأويل.

يقول ابن عطية: «واختلف في قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾: فقالت فرقة: هي كذبة في ذات الله، أخبرهم عن نفسه أنه مريض، وأن الكوكب أعطاه ذلك. وقال ابن عباس وغيره: أشار لهم إلى مرض وسقيم يعدي كالطاعون، ولذلك تولوا مدبرين لكفرهم به واحتقارهم لأمره، وعلى هذا التأويل ـ في أنها كذبة ـ يجيء الحديث: «**لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات....**»».

وقال فرقة: ليست بكذبة، ولا يجوز الكذب عليه، ولكنها من المعاريض، أخبرهم بأنه سقيم في المال، أو على عُرف ابن آدم؛ لأن ابن آدم لا بد أن يسقم ضرورة.

وقيل ـ على هذا ـ أراد ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ النفس من أموركم وكفركم، فظهر لهم من كلامه أنه أراد سقماً بالجسم حاضراً، وهكذا هي المعاريض.

وينتهي ابن عطية ـ وهذا هو وجه الاستشهاد به هنا ـ إلى أن هذا التأويل لا يرده الحديث وذكر الكذبات؛ لأنه قد يقال لهذا كذب على الاتساع بحسب اعتقاد المخبر، والكذب الذي هو قصد قول الباطل، والإخبار بضد ما في النفس بغير منفعة شرعية هو الذي لا يجوز على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام[١].



---

(١) راجع: «المحرر الوجيز في تفسير كتاب العزيز» ١٢/ ٣٧٤ ـ ٣٧٦، تحقيق وتعليق عبد الله. . . . والسيد عبد العال إبراهيم، طبع على نفقة أمير دولة قطر، الدوحة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

المبحث الثاني

القول الثاني: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾

يقول الله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥١ ـ ٥٨].

هذا جانب من دعوة الخليل إبراهيم عليه السلام لقومه حتى يعبدوا الله وحده، ويتركوا ما هم عليه من عبادة الأصنام، يذكر الرازي أن القوم لما أوهموا أن الخليل إنما يمازح بما خاطبهم به في أصنامهم، أظهر عليه السلام ما يعلمون به أنه مجد في إظهار الحق الذي هو التوحيد، وذلك بالقول أولاً وبالفعل ثانياً.

أما الطريقة القولية فهي قوله: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾[1].

وأما الطريقة الفعلية فهي قوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾، فإن القوم لما لما ينتفعوا بالدلالة العقلية عدل إلى أن أراهم عدم الفائدة في عبادتها.

---

(١) راجع تفاصيل هذه الطريقة في: «تفسير الرازي» ١٨/ ١٨١، ١٨٢.

حيث أقسم الخليل قسماً أسمعه بعض قومه ليكيدن أصنامهم أو ليحرصن على أذاهم وتكسيرها بعد أن يولوا مدبرين؛ أي: إلى عيدهم، وكان لهم عيد يخرجون إليه.

قال السدي: كانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها ثم عادوا إلى منازلهم، فلما كان هذا الوقت قال آزر لإبراهيم عليه السلام: لو خرجت معنا فخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أشتكي رجلي، فلما مضوا وبقي ضعفاء الناس نادى وقال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾، واحتج هذا القائل بقوله تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۝٦٠﴾.

وهناك قول آخر عن الكلبي يذكر فيه أن الخليل عليه السلام كان من أهل بيت ينظرون في النجوم نظر قبل يوم العيد إلى السماء فقال لأصحابه: أراني أشتكي غداً فذلك قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وأصبح من الغد معصوباً رأسه، فخرج القوم لعيدهم ولم يتخلف أحد غيره فقال: أما والله لأكيدن أصنامكم، وسمع رجل منهم هذا القول فحفظه عليه، ثم إن ذلك الرجل أخبر غيره وانتشر ذلك في جماعة، فلذلك قال تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۝٦٠﴾.

وكلا الوجهين ممكن(١).

ثم تمام القصة أن إبراهيم عليه السلام لما دخل بيت الأصنام وجد سبعين صنماً مصطفَّة، وثَمَّ صنم عظيم مستقبل الباب وكان من ذهب، وكان في عينيه جوهرتان تضيئان بالليل، فكسرها كلها بفأس في يده حتى لم يبق إلا هذا الصنم الكبير، ثم علق الفأس في عنقه.

ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨﴾.

---

(١) راجع: «تفسير ابن كثير» ٣/ ١٨٢؛ و«تفسير الرازي» ٢٢/ ١٨٢.

ومعناه: أنه قد جعلها حطاماً حيث كسرها كلها إلا كبيراً لهم؛ يعني: إلا الصنم الكبير عندهم كما قال: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾، وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾، ذكروا أنه وضع القدوم في يد كبيرهم لعلهم يعتقدون أنه هو الذي غار لنفسه وأنف أن معه هذه الأصنام الصغار فكسرها.

والمعنى فيما يذكر الرازي: لعلهم يرجعون إليه كما يرجع إلى العالم في حل المشكلات فيقولون: ما لهؤلاء مكسورة، وما لك صحيحاً والفأس على عاتقك؟! وإنما قال ذلك بناء على كثرة جهالاتهم، فلعلهم كانوا يعتقدون فيها أنها تجيب وتتكلم، أو أنه قال ذلك ـ مع علمه أنهم لا يرجعون إليه ـ استهزاء بهم، وإن قياس حال من يسجد له ويؤهل للعبادة أن يرجع إليه في حل المشكلات[1].

والخلاصة: أن الخليل عليه السلام ترك كبير الأصنام ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ فيسألونه كيف وقعت الواقعة، وهو حاضر فلم يدفع عن صغار الآلهة!، ولعلهم حينئذ يراجعون القضية كلها، فيرجعون إلى صوابهم، ويدركون منه ما في عبادة هذه الأصنام من سخف وتهافت.

وعاد القوم ليروا آلهتهم جذاذاً إلا ذلك الكبير!، ولكنهم لم يرجعوا إليه يسألونه، ولا إلى أنفسهم يسألونها: إن كانت هذه آلهة فكيف وقع لها ما وقع دون أن تدفع عن أنفسها شيئاً، وهذا كبيرها كيف لم يدفع عنها؟ لم يسألوا أنفسهم هذا السؤال؛ لأن الخرافة قد عطلت عقولهم عن التفكير، ولأن التقليد قد غلَّ أفكارهم عن التأمل والتدبر، فإذا هم يدعون هذا السؤال الطبيعي لينقموا على من حطم آلهتهم، وصنع بها هذا الصنيع: ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

---

(١) راجع: «التفسير الكبير» ٢٢/١٨٢، ١٨٣.

عندئذ تذكر الذين سمعوا إبراهيم ينكر على أبيه ومن معه عبادة هذه التماثيل، ويتوعدهم أن يكيد لآلهتهم بعد انصرافهم عنها! ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنهم كرهوا أن يأخذوه بغير بيّنة، فأرادوا أن يجيئوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون عليه بما قاله فيكون حجة عليه بما فعل.

ثانيهما: أي يحضرون فيبصرون ما يصنع به، فيكون ذلك زاجراً لهم عن الإقدام على مثل فعله.

ولا مانع من مراد مجموع الوجهين فيشهدون عليه بفعله، ويشهدون عقابه[١].

﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: (فأتوا بإبراهيم)، فلما أتوا به قالوا: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا﴾ من الكسر بها يا إبراهيم؟ فأجابهم إبراهيم: بل فعله كبيرهم هذا وعظيمهم، فاسألوا الآلهة: من فعل بها ذلك وكسرها إن كانت تنطق أو تعبر عن نفسها؟![٢].

معنى ذلك: أن القوم حينما جاءوا بالخليل عليه السلام وسألوه، طلبوا منه الاعتراف بذلك ليقدموا على إيذائه، فظهر منه ما انقلب الأمر عليهم حتى تمنوا الخلاص منه، حيث قال لهم: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وقد

---

(١) راجع: «تفسير الرازي» ٢٢/١٨٣، ١٨٤؛ و«في ظلال القرآن» ١٧/٢٣٨٦.

(٢) راجع: «تفسير الطبري» ١٧/ ٣٠.

علق الفأس على رقبته لكي يورد هذا القول، فيظهر جهلهم في عبادة الأوثان[1].

هذا وقد زعم الطاعنون في عصمة الخليل إبراهيم عليه السلام أن قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا﴾ كـذب، وأن هـذا الـكـذب مُـخِـلٌّ بـعـصـمـة الأنبياء عليهم السلام.

وقد انبرى العلماء المحققون للدفاع عن سيدنا إبراهيم الخليل مثبتين له العصمة، ولكن بوجوه مختلفة وفي اتجاهات متباينة.

حيث ذهب **أصحاب الاتجاه الأول** إلى إثبات أن قوله هذا ليس من الكذب في شيء، وذكروا عدة تأويلات تبين معناه بعيداً عن الكذب، وأنه من المعاريض ودون أن يشيروا من قريب أو من بعيد إلى حديث الكذبات الثلاث؛ بمعنى: أنهم لم يقوموا بتأويل ما ورد في الحديث، ولم يقوموا أيضاً بإنكاره، وإنما أغفلوه إغفالاً تاماً، ولا ندري هل تم هذا الإغفال عن عمد أو لا؟

وهناك أصحاب الاتجاه الثاني الذين يعيبون على المفسرين أنهم قد شغلوا أنفسهم بمحاولة الربط بين مفهوم الآية، وبين ما ورد في الحديث بشأن الكذب، ويرى أن المسألة لا تحتاج إلى مثل هذا، لكنه لا يشير أيضاً إلى الحديث، ولا يعلق عليه بأدنى تعليق.

وهناك **أصحاب الاتجاه الثالث** الذين أنكروا أن يكون هذا القول كذباً، معتمدين على تأويلات تبرز معناه بعيداً عن الكذب، لكنهم أضافوا إلى أصحاب الاتجاهين السابقين أنهم أنكروا هذه الأحاديث حيناً، مثبتين لها لكن على أنها آحاد حيناً آخر، وما دامت آحاداً فلا يؤخذ بها، ولا يعتمد عليها.

---

(١) راجع: «تفسير الرازي» ٢٢/ ١٨٤، ١٨٥.

وهناك **أصحاب الاتجاه الرابع** الذين اعتمدوا على ما ورد في الأحاديث الصحيحة بشأن هذا القول، وفسروا على ضوئها، مبينين أن هذا القول كما صرح به النبي ﷺ هو نوع من الكذب، لكنه من النوع المصرح به، والمعفو عنه، مثبتين أنه بهذه الصورة لا يخل بعصمة الخليل إبراهيم عليه السلام، ولا ينال من درجته، ولا يغض من منزلته عند الله عز وجل، وفي عقيدة أبنائه المسلمين.

الاتجاه الأول:

ذكر أصحاب هذا الاتجاه عدة آراء، **نذكر منها ما يلي**:

الرأي الأول: يذكر الزمخشري أن قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ من معاريض الكلام، ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعاني، والقول فيه أن قصد إبراهيم صلوات الله عليه لم يكن إلا أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه، وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم[1].

وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتاباً بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط: أأنت كتبت هذا، وصاحبك أمي لا يحسن الخط، ولا يقدر إلا على خرمشة فاسدة، فقلت له: بل كتبته أنت، كأن قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به لا نفيه عنك، وإثباته للأمي أو المخرمش؛ لأن إثباته والأمر دائر بينكما للعاجز منكما، استهزاء به، وإثبات للقادر[2].

وقد أشار البيضاوي إلى رأي الزمخشري هذا، فذكر أن الخليل

---

(١) راجع: «الكشاف» ٣/ ١٥.

(٢) راجع: «تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب» ٦/ ٤٥١، ٤٥٢.

إبراهيم عليه السلام أسند الفعل إليه تقريراً لنفيه مع الاستهزاء والتبكيت على أسلوب تعريضي، كما لو قال لك من لا يحسن الخط فيما كتبته بخط رشيق: أأنت كتبت هذا؟ فقلت: بل كتبته أنت.

وأشار الآلوسي أيضاً إلى رأي الزمخشري فقال: «وقيل إنه عليه السلام لم يقصد بذلك إلا إثبات الفعل لنفسه على الوجه الأبلغ مضمناً فيه الاستهزاء والتضليل، كما إذا قال لك أمي فيما كتبته بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط: أأنت كتبت هذا؟ فقلت له: بل كتبته أنت، فإنك لم تقصد نفيه عن نفسك، وإثباته للأمي، وإنما قصدت إثباته وتقريره لنفسك مع الاستهزاء بمخاطبك.

وقد تعقب الزمخشري صاحبُ «**الفرائد**» بأنه إنما يصح إذا كان الفعل دائراً بينه عليه السلام وبين كبيرهم ولا يحتمل ثالثاً.

ورد بأنه ليس بشيء؛ لأن السؤال في ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ﴾ تقرير لا استفهام كما سمعت عن العلامة، وصرح به الشيخ عبد القاهر، والإمام السكاكي، فاحتمال الثالث مندفع»[1].

ولذلك فإن الشهاب الخفاجي في حاشيته على البيضاوي يذكر أن قوله: «تقريراً لنفيه»؛ أي: لنفي فعل الصنم الكبير للكسر، وهذا بناء على أن الفعل دائر بين ذلك الصنم، وبين إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وإذا دار فعل بين قادر عليه، وعاجز عنه، وأثبت للعاجز على طريق التهكم لزم منه انحصاره في الآخر كما في المثال المذكور، ولا ثالث لهما؛ لأنهم جزموا بأن الكاسر إبراهيم عليه الصلاة والسلام، حيث قالوا: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا﴾ تقريراً، فاحتمال الثالث كما قيل مندفع.

وحاصله: أنه إثبات لنفيه على الوجه الأبلغ مضمناً فيه الاستهزاء

---

(١) راجع: «روح المعاني» ١٧/ ٦٥.

والتضليل على طريق الكناية التعريضية[١].

ولو سلم أن الاستفهام على ظاهره فقرينة الإسناد في الجواب إلى ما لا يصلح له بكلمة الإضراب كافية؛ لأن معناه أن السؤال لا وجه له، وأنه لا يصلح لهذا الفعل غيري.

نعم؛ يرد أن توجيههم بذلك نحو التأمل في حال آلهتهم، وإلزامهم الحجة كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾؛ أي: إن كانوا ممن يمكن أن ينطقوا غير ظاهر على هذا.

ولذلك فإن أبا السعود قد عقب على كلام الزمخشري بأنه بمعزل عن التحقيق؛ لأن خلاصة المعنى في المثال المذكور مجرد تقرير الكتابة لنفسك، وادعاء ظهور الأمر مع الاستهزاء بالسائل، وتجهيله في السؤال لابتنائه على أن صدورها عن غيرك محتمل عنده مع استحالته عندك.

ولا ريب في أن مراده عليه السلام من إسناده الكسر إلى الصنم ليس مجرد تقريره لنفسه، ولا تجهيلهم في سؤالهم لابتنائه على احتمال صدوره عن الغير عندهم، بل إنما مراده عليه السلام توجيههم نحو التأمل في أحوال أصنامهم كما ينبئ عنه قوله: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾؛ أي: إن كانوا ممن يمكن أن ينطقوا[٢].

الرأي الثاني: يرى أصحاب هذا الرأي أن إبراهيم عليه السلام قد غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مزينة، وكان غيظه من كبيرها أشد لما رأى من زيادة تعظيمهم له، فأسند الفعل إليه؛ لأنه هو السبب في استهانته بها، وتحطيمه لها، والفعل كما يسند إلى مباشره يسند إلى الحامل عليه[٣].

---

(١) راجع: «حاشية الشهاب» المسمَّاة: «عناية القاضي وكفاية الراضي» ٦/ ٤٥٢.

(٢) راجع: «إرشاد العقل السليم» ٣/ ٥٢٥، نشر دار الفكر.

(٣) راجع: «الكشاف» ٣/ ١٥؛ و«التفسير الكبير» ٢٢/ ١٨٥.

وقد ارتضى هذا الرأي كل من العلامة أبي السعود، والعلامة الآلوسي حيث ذكرا أن قول الخليل عليه السلام ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ مشيراً إلى الذي لم يكسره، بأنه بذلك يكون قد سلك مسلكاً تعريضياً يؤديه إلى مقصده الذي هو إلزامهم الحجة على ألطف وجه وأحسنه، بحملهم على التأمل في شأن آلهتهم مع ما فيه من التوقي من الكذب، حيث أبرز الكبير قولاً في معرض المباشر للفعل بإسناده إليه، كما أبرزه في ذلك المعرض فعلاً: بجعل الفأس في عنقه.

وقد قصد إسناده إليه بطريق التسبب إليه، حيث كانت تلك الأصنام غاظته عليه السلام حين أبصرها مصطفة مرتبة للعبادة من دون الله سبحانه، وكان غيظ كبيرها أكبر وأشد حسب زيادة تعظيمهم له، فأسند الفعل إليه باعتبار أنه الحامل عليه، والأصل: فعلته لزيادة غضبي من زيادة تعظيم هذا، وإنما لم يكسره، وإن كان مقتضى غضبه ذلك لتظهر الحجة[(١)].

ويؤكد أبو السعود على أنه لا ريب في أن مراده عليه السلام من إسناد الكسر إلى الصنم ليس مجرد تقريره لنفسه، ولا تجهيلهم في سؤالهم لابتنائه على احتمال صدوره عن الغير عندهم، بل إنما مراده عليه السلام توجيههم نحو التأمل في أحوال أصنامهم كما ينبئ عنه قوله: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾؛ أي: إن كانوا ممن يمكن أن ينطقوا.

وإنما لم يقل عليه السلام إن كانوا يسمعون أو يعقلون مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضاً لما أن نتيجة السؤال هو الجواب، وأن عدم نطقهم أظهر، وتبكيتهم بذلك أدخل.

وقد حصل ذلك أولاً حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: راجعوا عقولهم وتذكروا أن ما لا يقدر على دفع

---

(١) راجع: «إرشاد العقل السليم» ٦/ ٧٥، نشر دار المصحف؛ و«روح المعاني» ١٧/ ٦٥.

المضرة عن نفسه، ولا على الإضرار بمن كسره بوجه من الوجوه يستحيل أن يقدر على دفع مضرة عن غيره أو جلب منفعة له، فكيف يستحق أن يكون معبوداً.

﴿فَقَالُوٓاْ﴾؛ أي: قال بعضهم لبعض فيما بينهم: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ أي: بهذا السؤال لأنه كان على طريقة التوبيخ المستتبع للمؤاخذة[1].

الرأي الثالث: أن يكون قوله تعالى: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ حكاية لما يلزم على مذهبهم، كأنه قال لهم: ما تنكرون أن يفعله كبيرهم، فإن من حق مَن يُعبد ويدَّعى إلٰهاً أن يقدر على هذا وأشد منه.

وقد أشار الآلوسي إلى هذا الرأي فذكر أنه «قيل في توجيه ذلك أيضاً أنه حكاية لما يلزم من مذهبهم جوازه؛ يعني: أنهم لما ذهبوا إلى أنه أعظم الآلهة فعظم ألوهيته يقتضي أن لا يعبد غيره معه، ويقتضي إفناء من شاركه في ذلك، فكأنه قيل فعله هذا الكبير على مقتضى مذهبكم والقضية ممكنة»[2].

لكن كلاًّ من ابن العربي والقرطبي وابن كثير والشوكاني قد ارتضى هذا الرأي، وآثره على غيره من الآراء الأخرى.

يذكر الإمام ابن العربي أنه قد اختلف الناس في ظاهر المقصود بقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾، فمنهم من قال: هذا تعريض، وفي التعاريض مندوحة عن الكذب، ومنهم من قال: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾... ﴿إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾، فشرط النطق في الفعل.

والأول أصح: لأنه عدده على نفسه، فدل على أنه خرج مخرج

---

(١) راجع: «إرشاد العقل السليم» ٦/ ٧٥.

(٢) راجع: «روح المعاني» ١٧/ ٦٥؛ و«التفسير الكبير» ج٢٢.

التعريض، وذلك أنهم كانوا يعبدونهم ويتخذونهم آلهة دون الله، وهم كما قال إبراهيم لأبيه: يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً؟

فقال إبراهيم: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، ليقولوا إنهم لا ينطقون، ولا يفعلون ولا ينفعون ولا يضرون.

فيقول لهم: فلِمَ تعبدون؟ فتقوم الحجة عليهم منهم، ولهذا يجوز عند الأئمة فرض الباطل مع الخصم حتى يرجع إلى الحق من ذات نفسه، فإنه أقرب في الحجة وأقطع للشبهة، كما قال لقومه، هذا ربي، على معنى الحجة عليهم حتى إذا أفل منهم تبيّن حدوثه، واستحالة كونه إلٰهاً[(١)].

ثم تابعه القرطبي في رأيه، ونقله عنه مع شيء من التصرف في التعبير وزاد عليه في التعليق والتعقيب.

فهذا هو القرطبي يذكر أن الخليل عليه السلام أراد بقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾... ﴿إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ أن يبيّن أنَّ من لا يتكلم ولا يعلم لا يستحق أن يُعبد، وكان قوله من المعاريض، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب؛ أي: سلوهم إن نطقوا فإنهم يصدقون، وإن لم يكونوا ينطقون فليس هو الفاعل.

وفي ضمن هذا الكلام اعتراف بأنه هو الفاعل، ويرى القرطبي أن هذا هو الصحيح؛ لأنه عدده على نفسه، فدل أنه خرج مخرج التعريض، وذلك أنهم كانوا يعبدونهم ويتخذونهم آلهة من دون الله، كما قال إبراهيم لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾... الآية، فقال إبراهيم: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ ليقولوا إنهم لا ينطقون ولا ينفعون ولا

---

(١) راجع: «أحكام القرآن» ٢/ ١٢٦٤، ١٢٦٥.

يضرون، فيقول لهم: فلم تعبدونهم؟ فتقوم عليهم الحجة منهم.

ولهذا يجوز عند الأمة فرض الباطل مع الخصم حتى يرجع إلى الحق من ذات نفسه، فإنه أقرب في الحجة، وأقطع للشبهة، كما قال لقومه: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ وهذه أختي، و﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾[1].

أما الحافظ ابن كثير فقد اقتصر على هذا الرأي دون أن يشير إلى غيره من الآراء، حيث بيّن أن الخليل عليه السلام إنما أراد بقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ أن يبادر قومه من تلقاء أنفسهم، فيعترفوا أنهم لا ينطقون، وأن هذا لا يصدر عن هذا الصنم لأنه جماد، ولذلك فإنه يرى أنهم حينما قالوا فأتوا به على أعين الناس؛ أي: على رؤوس الأشهاد في الملأ الأكبر بحضرة الناس كلهم، كان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام، وذلك بأن يبيّن في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم في عبادة هذه الأصنام التي لا تدفع عن نفسها ضراً، ولا تملك لها نصراً، فكيف يطلب منها شيء من ذلك[2].

أما الشوكاني فقد ارتضى هذا الرأي مبيّناً أنه هو الرأي الأولى من غيره، حيث ذكر أن إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ مقيماً للحجة على قومه مبكِّتاً لهم، مشيراً إلى الصنم الذي تركه ولم يكسره بدليل قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾؛ أي: إن كانوا ممن يمكنه النطق، ويقدر على الكلام، ويفهم ما يقال له، فيجيب عنه بما يطابقه.

فأراد عليه السلام أن يبيّن لهم أن من لا يتكلم ولا يعلم ليس بمستحق للعبادة، ولا يصح في العقل أن يطلق عليه أنه إلٰه، فأخرج الكلام مخرج

---

(١) راجع: «تفسير القرطبي» ١١/ ٣٠٠.

(٢) راجع: «تفسير القرآن العظيم» ٣/ ١٨٢، ١٨٣؛ راجع أيضاً: «البداية والنهاية» ١/ ١٣٧.

التعريض لهم بما يوقعهم في الاعتراف بأن الجمادات التي عبدوها ليست بآلهة.

لأنهم إذا قالوا: إنهم لا ينطقون، قال لهم: فكيف تعبدون من يعجز عن النطق، ويقصر عن أن يعلم بما يقع عنده في المكان الذي هو فيه؟

فهذا الكلام من باب فرض الباطل مع الخصم حتى تلزمه الحجة، ويعترف بالحق، فإن ذلك أقطع لشبهته وأدفع لمكابرته(١).

الرأي الرابع: يُحكى أنه عليه السلام قال: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾: غضب أن تعبد معه هذه الصغار وهو أكبر منها فيكون حينئذ تمثيلاً أراد به عليه السلام تنبيههم على غضب الله تعالى عليهم لإشراكهم بعبادته الأصنام.

وقد أشار القرطبي إلى هذا الرأي، فذكر أن الخليل عليه السلام قال لقومه على جهة الاحتجاج عليهم ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾؛ أي: إنه غار وغضب من أن يُعبد هو ويعبد الصغار معه، ففعل هذا بها لذلك، إن كانوا ينطقون فاسألوهم، فعلَّق فعل الكبير بنطق الآخرين، تنبيهاً لهم على فساد اعتقادهم، كأنه قال: بل هو الفاعل إن نطق هؤلاء.

وقد أشار إلى ذلك الرأي أيضاً العلامة الشوكاني على أنه رأي مرجوح، فذكر أنه قيل: «أراد إبراهيم عليه السلام بنسبة الفعل إلى ذلك الكبير من الأصنام أنه فعل ذلك لأنه غار وغضب من أن يعبد وتعبد الصغار التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تنفع ولا تدفع، ولا تستحسن في العقل مع وجود خالقها وخالقهم».

ثم جاء الإمام الطاهر ابن عاشور فتبنَّى هذا الرأي، وتوسَّع في عرضه والتدليل عليه، فذكر أن قوله تعالى: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ يفهم على النحو التالي:

---

(١) راجع: «فتح القدير» ٣/ ٦٦٥.

قوله تعالى: ﴿بَلْ﴾ إبطال لأن يكون الخليل عليه السلام هو الفاعل لذلك، فنفى أن يكون فعل ذلك؛ لأن ﴿بَلْ﴾ تقتضي نفي ما دل على كلامهم من استفهامه.

وقوله تعالى: ﴿فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ الخبر مستعمل في معنى التشكيك؛ أي: فعله كبيرهم، إذ لم يقصد إبراهيم نسبة التحطيم إلى الصنم الأكبر؛ لأنه لم يدع أنه شاهد ذلك، ولكنه جاء بكلام يفيد ظنه بذلك، حيث لم يبق صحيحاً من الأصنام إلا الكبير.

وفي تجويز أن يكون كبيرهم هذا الذي حطمهم إخطار، دليل انتفاء تعدد الآلهة؛ لأنه أوهمهم أن كبيرهم غضب من مشاركة تلك الأصنام له في المعبودية، وذلك تدرج إلى دليل الوحدانية.

فإبراهيم في إنكاره أن يكون هو الفاعل أراد إلزامهم الحجة على انتفاء ألوهية الأصنام المحطمة بطريق الأولى على نية أن يكر على ذلك كله بالإبطال، ويوقنهم بأنه الذي حطم الأصنام، وأنها لو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها، ولو كان كبيرهم كبير الآلهة لدفع عن حاشيته وحرفائه، ولذلك قال: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ تهكماً بهم، وتعريضاً بأن ما لا ينطق ولا يُعرب عن نفسه غير أهل للإلٰهية، وشمل ضميرهم ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ﴾ جميع الأصنام، ما تحطم منها، وما بقي قائماً.

والقوم وإن علموا أن الأصنام لم تكن تتكلم من قبل إلا أن إبراهيم أراد أن يقنعهم بأن حدثاً عظيماً مثل هذا يوجب أن ينطقوا بتعيين من فعله بهم، وهذا نظير استدلال علماء الكلام على دلالة المعجزة على صدق الرسول بأن الله لا يخرق عادة لتصديق الكاذب، فخلقه خارق للعادة عند تحدي الرسول دليل على أن الله أراد تصديقه[1].

---

(١) راجع: «تفسير التحرير والتنوير» ١٧/ ١٠٠، ١٠١.

الرأي الخامس: وقيل: إن الكلام تم عند قوله: ﴿فَعَلَهُۥ﴾، والضمير المستتر فيه يعود على (فتى) أو إلى إبراهيم، ولا يخفى أن كلّاً من فتى وإبراهيم مذكور في كلام لم يصدر بمحضر من إبراهيم عليه السلام حتى يعود عليه الضمير، وأن الإضراب ليس في محله حينئذ، والمناسب في الجواب نعم، ولا مقتضى للعدول عن الظاهر هنا كما قيل.

وقد عزي إلى الكسائي، وروي عنه أنه جعل الوقف على ﴿فَعَلَهُۥ﴾ أيضاً، إلا أنه قال: الفاعل محذوف؛ أي: فعله من فعله.

وتعقبه أبو البقاء بأنه بعيد؛ لأن حذف الفاعل لا يسوغ؛ أي: عند الجمهور، وإلا فالكسائي يقول بجواز حذفه.

وقيل: يجوز أن يقال: إنه أراد بالحذف الإضمار، وأكثر القراء اليوم على الوقف على ذلك، وليس بشيء.

وقيل: الوقف على ﴿كَبِيرُهُمْ﴾، وأراد به عليه السلام نفسه؛ لأن الإنسان أكبر من كل صنم.

وهذا التوجيه ـ كما يقول الآلوسي ـ ضرب من الهذيان، ومثله أن يراد به الله عز وجل، فإنه سبحانه كبير الآلهة ولا يلاحظ ما أرادوه بها.

ويعزى للفراء أن الفاء في ﴿فَعَلَهُۥ﴾ عاطفة، وعلَّه بمعنى لعلَّه فخفف.

واستدل عليه بقراءة ابن السميقع ﴿فَعَلَّهُۥ﴾ مشدد اللام.

ولا يخفى أن يُجل كلام الله تعالى العزيز عن مثل هذا التخريج، والآية عليه في غاية الغموض، وما ذكر في معناها بعيد بمراحل عن لفظها[1].

---

(١) راجع: «روح المعاني» ١٧/ ٦٥، ٦٦؛ و«تفسير الرازي» ٢٢/ ١٨٥.

الاتجاه الثاني:

يمثل هذا الاتجاه الأستاذان عبد الكريم الخطيب وسيد قطب.

يذكر الأستاذ عبد الكريم الخطيب أن المفسِّرين قد أكثروا في الحديث عن اتهام إبراهيم للأصنام، ودفع التهمة عنه، ودخلوا في جدل طويل حول هذا الكذب، والمواطن التي يباح فيها للمرء أن يكذب الكذب المباح المتجاوز عنه؛ لأنه من قبيل التقية، التي يجوز للمؤمن فيها أن ينطق بكلمة الكفر إذا تعرض للبلوى، ما دام قلبه مطمئناً بالإيمان.

ويرى أن الأمر لا يحتاج إلى شيء من هذا، فما قال إبراهيم هذا القول، وهو يقدر أن القوم يصدقونه، أو يأخذون عنه، وعندئذ يمكن أن يقال: إن هذا كذب مباح ومعفو عنه، وإنما قال إبراهيم ما قال استهزاءً بالقوم، وسخرية منهم، وكشفاً لهم عن حقيقة هذه الأحجار.

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾، بهذا الأسلوب الساخر القاتل، يجيب إبراهيم على اتهام القوم له ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾؟ أنا لم أفعل هذا بتلك الأصنام، بل الذي فعله هو كبيرهم هذا، الذي ترونه قائماً على هذه الأشلاء!

لقد قامت بينه وبين أتباعه معركة، وليس هذا ببعيد، فما أكثر ما يقع الخلاف بين المتبوع والتابعين، وما أكثر ما يملك المتبوع من القوة والسلطان ما يضرب به أتباعه الضربة القاضية..

وليس من المستبعد إذن أن يكون قد وقع خلاف بين هذا الصنم الكبير، وبين أتباعه، فأخذهم ببأسه، ونكل بهم هذا التنكيل الذي ترون!

فإن كنتم لا تصدقون ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾؛ أي: إن كان في قدرتهم أن ينطقوا، وأن يكشفوا عن الجاني الذي جنى عليهم، وحطم رؤوسهم، ومزق أشلاءهم!

ولم ير إبراهيم أن يسألوا هذا الصنم الكبير، بل دعاهم إلى أن يسألوا المجني عليهم، فهم أعرف بمن جنى عليهم، إن كان بهم قدرة على الكلام. . أما الجاني فقد ينكر جنايته، ولا يكشف عن فعلته، وهذا هو السر في أن طلب إبراهيم إليهم أن يسألوا المجني عليهم لا الجاني.

ولهذا ردوا عليه قوله: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾؛ أي: إنك تقول هذا القول ساخراً مستهزئاً؛ لأنك تعلم أنهم لا ينطقون. .

وينتهي إلى أنه لا كذب إذن من إبراهيم، وإنما هو الحق الصراح في أسلوب مجازي!![1].

كذلك فإن الأستاذ سيد قطب يذهب إلى أنه لا داعي لتسمية ما قاله الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ كذبة منه، ولا داعي أيضاً للبحث عن تعليلها بشتى العلل التي اختلف عليها المفسرون ويرى أن الأمر أيسر من هذا بكثير!

ذلك لأنهم حينما قالوا: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾؟ وهم ما يزالون مصرِّين على أنها آلهة وهي جذاذ مهشمة، فإن إبراهيم الخليل أخذ يتهكم بهم، ويسخر منهم، وهو فرد وحده وهم كثير.

لكنه ينظر بعقله المفتوح وقلبه الواصل، فلا يملك إلا أن يهزأ بهم ويسخر، وأن يجيبهم إجابة تناسب هذا المستوى العقلي الدون:

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

فالتهكم إذن واضح في هذا الجواب الساخر، حيث إنه أراد أن يقول لهم: إن هذه التماثيل لا تدري من حطمها إن كنت أنا أم هذا الصنم الكبير الذي لا يملك مثلها حراكاً، فهي جماد لا إدراك له أصلاً، وأنتم كذلك مسلوبو الإدراك لا تميزون بين الجائز والمستحيل، فلا

---

(١) راجع: «التفسير القرآني» ١٧/ ٩١٤ ـ ٩١٦.

تعرفون إن كنت أنا الذي حطمتها أم إن هذا التمثال هو الذي حطمها! ﴿فَسْئَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾![1].

ويبدو أن هذا التهكم الساخر قد هزَّهم هزاً، وردهم إلى شيء من التدبر والتفكر.

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

أي: إنه حين جابههم إبراهيم بهذا الجواب بهتوا، ووقع في أنفسهم هذا القول الذي قاله، أنه حق، وأنهم على ضلال، وما كان لهم أن يعبدوا هذه الدمى، وتلك الخشب المسندة..

وكانت بادرة خير أن يستشعروا ما في موقفهم من سخف، وما في عبادتهم لهذه التماثيل من ظلم، وأن تتفتح بصيرتهم لأول مرة فيتدبروا ذلك السخف الذي يأخذون به أنفسهم، وذلك الظلم الذي هم فيه سادرون، ولكنها لم تكن إلا ومضة واحدة أعقبها الظلام، وإلا خفقة واحدة عادت بعدها قلوبهم إلى الخمود، ولم تكن إلا لحظة خاطفة أشرقت فيها نفوسهم بنور الحق، واستبان لهم على ضوء هذه اللمعة أنهم على ضلال، وأنهم قد ظلموا أنفسهم بهذا الضلال الذي هم فيه، ولو وجدت هذه الشرارة المنطلقة من أعماق فطرتهم شيئاً من العقل المستبصر والبصيرة النافذة لاشتعلت هذه الشرارة في كيانهم، ولأضاءت عقولهم وقلوبهم، ولطردت هذا الظلام الكثيف المخيم عليهم، ولكن ما إن كادت هذه الشرارة المضيئة تنطلق، حتى نفخ فيها الهوى، والضلال، فماتت في مهدها، وخبت في مكانها!

حيث قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

لقد صح وضع القوم في الحياة، حين أوقفهم إبراهيم على

---

(١) راجع: «الظلال» ١٧/ ٢٣٨٦، ٢٣٨٧.

أقدامهم، وأراهم من آلهتهم ما هي عليه من ذلة وضعف واستسلام، فرأوا وجه الحق مشرقاً مضيئاً، ولكن سرعان ما غلب عليهم ضلالهم، فعادوا إلى وضعهم الأول المنكوس، ونكسوا على رؤوسهم، فرأوا الأشياء في وضعها المطلوب، كما كانوا يرونها من قبل، رأوا الحق باطلاً، والباطل حقاً، وعادوا إلى إبراهيم يحاجونه بهذا الضلال: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾.

وحقاً لقد كانت الأولى رجعة إلى النفوس ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾، وكانت الثانية نكسة على الرؤوس ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾، كانت الأولى حركة في النفس للنظر والتدبر، أما الثانية فكانت انقلاباً على الرأس فلا عقل ولا تفكير، وإلا فإن قولهم هذا الأخير هو الحجة عليهم، وأية حجة لإبراهيم من أن هؤلاء لا ينطقون؟![1].

الاتجاه الثالث:

وهناك من العلماء من قام بتأويل ما ورد في الآية الكريمة، دونما حاجة إلى ما ورد في الحديث الشريف، بل كان لهم موقف معين من أمثال هذه الأحاديث، ونذكر من هؤلاء: الفخر الرازي من القدماء، وعبد الوهاب النجار من المحدثين، فقد أشار الفخر الرازي إلى ما قاله علماء الحديث فذكر أنهم قالوا: إن ما قاله إبراهيم هنا كذب، وأنهم احتجوا بما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: كلها في ذات الله تعالى قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وقوله لسارة: هي أختي**».

وفي خبر آخر: «أن أهل الموقف إذا سألوا إبراهيم الشفاعة قال: **إني كذبت ثلاث كذبات**»، ويرى الرازي أنهم قرروا قولهم من جهة العقل

---

(١) راجع: «التفسير القرآني للقرآن» ١٧/ ٩١٦؛ و«في ظلال القرآن» ١٧/ ٢٣٨٧.

وقالوا: الكذب ليس قبيحاً لذاته، فإن النبي ﷺ إذا هرب من ظالم واختفى في دار إنسان، وجاء الظالم وسأل عن حاله، فإنه يجب الكذب فيه.

وإذا كان كذلك فأي بُعد في أن يأذن الله تعالى في ذلك لمصلحة لا يعرفها إلا هو، ثم ذكر الرازي أن هذا القول مرغوب عنه:

أما الخبر الأول وهو الذي رووه فلأن يضاف الكذب إلى رواته أولى من أن يضاف إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والدليل القاطع عليه أنه لو جاز أن يكذبوا لمصلحة ويأذن الله تعالى فيه، فلنجوّز هذا الاحتمال في كل ما أخبروا عنه، وفي كل ما أخبر الله تعالى عنه، وذلك يبطل الوثوق بالشرائع، وتطرق التهمة إلى كلها.

لكنه يستدرك فيذكر أن ذلك الخبر لو صح فهو محمول على المعاريض على ما قال ﷺ: «**إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب**».

وينتهي الرازي إلى أنه: «إذا أمكن حمل الكلام على ظاهره من غير نسبة الكذب إلى الأنبياء عليهم فحينئذ لا يحكم بنسبة الكذب إليهم إلا زنديق»(١).

وقد أشار الآلوسي إلى ما قال به الرازي فذكر أنه: «زعم بعضهم أن الآية على ظاهرها، وادعى أن صدور الكذب من الأنبياء عليهم السلام لمصلحة جائز، وفيه: أن ذلك يوجب رفع الوثوق بالشرائع لاحتمال الكذب فيها».

وعقب على ذلك بقوله: «فالحق أن لا كذب أصلاً، وأن في المعاريض لمندوحة عن الكذب»(٢).

وقد تابع الشيخ عبد الوهاب النجار الإمام الرازي أيضاً فيما ذهب إليه في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ حيث بدأ بشرح ما هو الكذب فقال:

---

(١) راجع: «التفسير الكبير» ٢٢/ ١٨٥، ١٨٦.

(٢) راجع: «روح المعاني» ١٧/ ٦٦.

الكذب هو الإخبار عن الشيء على غير ما هو عليه في الواقع مع اعتقاد المخبر أن ما قاله غير مطابق للواقع، قاصداً بذلك خديعة السامع لخبره، وإيهامه أن الشيء على ما أخبر به ابتغاء إضلاله عن الحق مع إمكان أن يقع كلامه من السامع موقع الصدق، فإذا كان الكلام لا يمكن أن يفيد ذلك لم يكن هناك كذب في الخبر.

فهل كان إبراهيم يضلل قومه ليعتقدوا أن الصنم الأكبر قد حطم سائر الأصنام.

كلا، فإن الذي يعتقد أن الصنم المصنوع من خشب أو غيره من حجر أو معدن يأخذه الغيظ من أمثاله فيعمد إلى تحطيمهن، لا يكون عنده ذرة من عقل ـ وما كان القوم بهذا المقدار من الغباء ـ بل مثله في ذلك الأخبار مثل من يأتي إلى مصحف قد كتبته بخط بديع، فيقول لك: أأنت كتبته؟

فتقول له ـ وهو أميّ لا يقرأ ولا يكتب ـ: بل أنت كتبته، على سبيل التهكم والاستهزاء به[1].

فإنك لا تريد أن تضله عن الحق، وتجعله يعتقد أن الكتابة الجميلة من صنع يده ـ ومتى خرج الخبر إلى التهكم خرج عن الخبرية إلى الإنشاء، ولم يكن محتملاً للصدق والكذب أصلاً ـ فإبراهيم إنما قال لهم ما قاله على سبيل الاستهزاء بهم، وليجرهم إلى إقامة حجته واضحة جلية، ومعلوم أنه لا كذب في ذلك[2].

الاتجاه الرابع:

يأتي على رأس أصحاب هذه الاتجاه الإمام الطبري شيخ المفسرين حيث يقول: «وقد زعم بعض من لا يصدق بالآثار، ولا يقبل من

---

(١) من الواضح أن الشيخ النجار نسج على منوال الزمخشري في ضرب هذا المثال كما سبق.

(٢) راجع: «قصص الأنبياء» ص١٢١، ١٢٢.

الأخبار إلا ما استفاض به النقل من العوام أن معنى قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾؛ إنما هو: بل فعله كبيرهم هذا إن كانوا لا ينطقون فاسألوهم؛ أي: إن كانت الآلهة المكسورة تنطق، فإن كبيرهم هو الذي كسرهم، وهذا قول خلاف ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أن إبراهيم لم يكذب إلا ثلاث كذبات كلها في الله قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وقوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ وقوله لسارة: هي أختي».

وغير مستحيل أن يكون الله تعالى ذكرهُ أذن لخليله في ذلك ليقرع قومه به، ويحتج به عليهم، ويعرفهم وضع خطئهم وسوء نظرهم لأنفسهم، كما قال مؤذن يوسف لإخوته: أيتها العير إنكم لسارقون ولم يكونوا سرقوا شيئاً[1].

وقد تابعه على ذلك الإمام البغوي الذي يذكر في قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ أن الخليل عليه السلام غضب أن يعبد معه الصغار وهو أكبر منهم فكسرهن، وأراد بذلك إبراهيم إقامة الحجة عليهم فذلك قوله: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾، حتى يخبروا من فعل ذلك بهم.

ونقل عن القتيبي قوله: «معناه: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ إن كانوا ينطقون على سبيل الشرط، فجعل النطق شرطاً للفعل؛ أي: إن قدروا على النطق قدروا على الفعل، فأراهم عجزهم عن النطق، وفي ضميره أنا فعلت.

ثم أشار البغوي إلى ما روي عن الكسائي من أنه كان يقف عند قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ﴾ ويقول معناه: فعله من فعله، وينتهي البغوي إلى أن الأول أصح لما روي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: اثنتان منهن في ذات الله، قوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾، وقوله لسارة: هذه أختي**».

---

(١) «تفسير الطبري» ١٧/ ٣١.

ويرى أن من أوَّل هذه الأقوال بتأويلات أراد نفي الكذب عن إبراهيم، لكنه رجح ما ذهب إليه وقال: «والأول هو الأولى للحديث فيه، ويجوز أن يكون الله ﷻ أذن له في ذلك لقصد الصلاح وتوبيخهم والاحتجاج عليهم، كما أذن ليوسف حتى أمر مناديه فقال لإخوته: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ ولم يكونوا سرقوا»[1].

ومن المفسرين المحدثين من فعل ذلك، أختار منهم الآلوسي وابن عاشور، حيث ربط الآلوسي بين ما ذهب إليه من تفسير للآية الكريمة ولقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾، وبين ما ورد في الحديث الشريف من تسمية ذلك كذبة من الكذبات الثلاث، فقال: «وتسمية ذلك كذباً كما ورد في الحديث الصحيح من باب المجاز لما أن المعاريض تشبه صورتها صورته، فبطل الاحتجاج بما ذكر على عدم عصمة الأنبياء عليهم السلام»[2].

كذلك فإن الطاهر ابن عاشرو قد وفق بين الآية الكريمة والحديث الصحيح، وتوسع في توجيه ذلك فذكر أن «ما روي في الصحيح عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: قوله:** ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾... **إلخ**». معناه: أنه كذب في جوابه عن قول قومه: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا﴾ حيث قال: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، لأن ﴿بَلْ﴾ إذا جاء بعد استفهام أفاد إبطال المستفهم عنه، فقولهم: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا﴾ سؤال عن كونه محطم الأصنام، فلما قال: ﴿بَلْ﴾ فقد نفى ذلك عن نفسه وهو نفي مخالف للواقع ولاعتقاده فهو كذب، غير أن الكذب مذموم، ومنهي عنه، ويرخص فيه للضرورة مثل ما قاله إبراهيم.

فهذا الإضراب كان تمهيداً للحجة على نية أن يتضح لهم الحق

---

(١) راجع: «معالم التنزيل» ٣/ ٢٤٩، دار المعرفة، بيروت.

(٢) راجع: «روح المعاني» ١٧/ ٦٥.

بـأخـرة، ولـذلـك قـال: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾.

أما الإخبار بقوله: ﴿فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا﴾ فليس كذباً وإن كان مخالفاً للواقع ولاعتقاد المتكلم؛ لأن الكلام والأخبار إنما تستقر بأواخرها وما يعقبها، كالكلام المعقب بشرط أو استثناء، فإنه لما قصد تنبيههم على خطأ عبادتهم للأصنام مهد لذلك كلاماً هو جار على الفرض والتقدير، فكأنه قال: لو كان هذا إلٰهاً لما رضي بالاعتداء على شركائه، فلما حصل الاعتداء عليهم بمحضر كبيرهم، تعين أن يكون هو الفاعل لذلك.

ثم ارتقى في الاستدلال بأن سلب الإلٰهية عن جميعهم بقوله: ﴿إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ كما تقدم.

وينتهي إلى أن المراد من الحديث أنها كذبات في بادئ الأمر، وأنها عند التأمل يظهر المقصود منها.

وذلك أن النهي عن الكذب إنما علته خدع المخاطب، وما يتسبب على الخبر المكذوب من جريان الأعمال على اعتبار الواقع وبخلافه.

فإذا كان الخبر يعقب بالصدق لم يكن ذلك من الكذب، بل كان تعريضاً أو مزحاً أو نحوهما[١].

وأما ما ورد في حديث الشفاعة: «فيقول إبراهيم: لست هناكم، ويذكر كذبات كذبها»، فمعناه: أنه يذكر أنه قال كلاماً خلافاً للواقع بدون إذن من الله بوحي، ولكنه ارتكب قول خلاف الواقع لضرورة الاستدلال بحسب اجتهاده، فخشي أن لا يصادف اجتهاده الصواب من مراد الله فخشي عتاب الله، فتخلص من ذلك الموقف[٢].

---

(١) راجع: «التحرير والتنوير» ١٧/ ١٠١، ١٠٢.

(٢) راجع المصدر السابق ١٧/ ١٠٢.

أما فيما يتعلق بشراح الحديث النبوي فإن الإمام النووي ـ بعد أن ذكرنا معظم تعليقه على الحديث فيما سبق[1] ـ يذكر أن قوله تعالى: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ معناه كما قال ابن قتيبة وطائفة: جعل النطق شرطاً لفعل كبيرهم؛ أي: فعله كبيرهم إن كانوا ينطقون.

وقال الكسائي: يوقف عند قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ﴾؛ أي: فعله فاعله، فأضمر، ثم يبتدئ فيقول كبيرهم هذا فاسألوهم عن ذلك الفاعل.

وينتهي النووي إلى أن الأكثرين قد ذهبوا إلى أنها على ظاهرها وأنه أجاب عليهم بما سبق ذكره[2].

أما الإمام ابن العربي في «**عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي**» فقد بيّن أن الخليل إبراهيم عليه السلام قال: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ حجة لله ودليلاً عى توحيده، وإبطال قول المؤتفكة بأن الأصنام آلهة، ولذلك رجع الكفار إلى أنفسهم بالملامة فقالوا: إنكم أنتم الظالمون في اعتقادكم أنهم ينفعون أو يضرون[3].

ثم جاء الإمام ابن حجر العسقلاني وذكر في تعليقه على الحديث المذكور: «لم يكذب إبراهيم...»، أن قوله تعالى: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ أن الخليل عليه السلام قاله تمهيداً للاستدلال على أن الأصنام ليست بآلهة، وقطعاً لقومه في قولهم أنها تضر وتنفع.

وهذا الاستدلال يتجوَّز فيه في الشرط المتصل.

ولهذا أردف قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ بقوله: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾.

---

(١) راجع رأيه في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾.
(٢) راجع: «شرح النووي» ١٥/١٢٥.
(٣) راجع: «عارضة الأحوذي» ١٢/١٨ حديث رقم (٣١٦٦).

قال ابن قتيبة: معناه: إن كانوا ينطقون فقد فعله كبيرهم هذا، فالحاصل أنه مشترك بقوله: ﴿إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ أو أنه أسند إليه ذلك لكونه السبب.

وعن الكسائي أنه كان يقف عند قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ﴾، أي: فعله من فعله كائناً من كان، ثم يبتدئ كبيرهم هذا وهذا خبر مستقل ثم يقول: فاسألوهم إلى آخره ولا يخفى تكلفه[1].

وقد أشار القاضي ابن عطية إلى هذه الاتجاهات السابقة وجمع بينها، حيث ذكر في تفسيره أن الخليل عليه السلام قال لهم: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ على جهة الاحتجاج عليهم؛ أي: أنه غار من أن يعبد هو ويعبد الصغار معه، ففعل هذا بها لذلك. وقالت فرقة هي الأكثر: إن هذا الكلام قاله إبراهيم عليه السلام لأنها كذبة في ذات الله تؤدي إلى خزي قوم كافرين، والحديث صحيح يقتضي ذلك وهو قول النبي ﷺ: «**لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات....**»، ثم تطرق إلى موضع خزيهم بقوله: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾، على جهة التوقيف.

وذهبت فرقة إلى نفي الكذب عن هذه المقالات.

وقالت فرقة: معنى قول النبي ﷺ: «**لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات..**»؛ أي: لم يقل كلاماً ظاهره الكذب، أو يشبه الكذب، وذهبت إلى تخريج هذه المقالات، فخرجت هذه الآية على معنى أنه أراد تعليق فعل الكبير بنطق الآخرين، كأنه قال: بل هو الفاعل إن نطق هؤلاء، ولم يجزم الخبر على أن الكبير فعل هذا، وفي الكلام تقديم ـ على هذا التأويل ـ في قوله: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ﴾[2].



(١) راجع: «فتح الباري» ٦/ ٤٥١.

(٢) راجع: «تفسير ابن عطية» ١٠/ ١٦٥، طبعة الدوحة.

المبحث الثالث

القول الثالث: قول الخليل عليه السلام عن زوجه سارة «هي أختي»

من خلال الأحاديث الصحيحة التي سبق أن أوردتها بطرقها المختلفة والتي تعرف بأحاديث «الكذبات الثلاث» والتي أطلق عليها الكلمات الثلاث وبحثتها هنا تحت عنوان «الأقوال الثلاثة»، وإذا كنت قد انتهيت من الحديث حول القولين: الأول: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، والثاني: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾، فإننا ننتقل إلى الحديث حول القول الثالث أو ما يعرف بالكذبة الثالثة وهي تتمثل في قول الخليل إبراهيم عليه السلام لملك مصر بعد هجرته إليها عن زوجه السيدة سارة: «إنها أختي».

وإذا كان المنكرون لعصمة الخليل عليه السلام يعتمدون على هذا القول الثالث والذي يشكل في تصورهم مع القولين الأول والثاني الشبهة الثالثة التي يعتمدون عليهم في إثبات دعواهم.

إذا كان الأمر كذلك فلا بد أن نقوم ببيان المراد بهذا القول، وتحقيق القول فيه، وبيان بطلان ما ذهب إليه هؤلاء النافون لعصمة الخليل عليه السلام بشأنه.

وقد سبق أن أشرت إلى أن القولين: الأول والثاني قد ورد ذكرهما في القرآن الكريم، أما هذا القول الثالث فلم يرد في القرآن الكريم، وإنما ورد ذكره في الأحاديث الصحيحة والتي سبق أن أوردتها، ومن أجل ذلك يحسن أن نعيد هنا إحدى الروايات الصحيحة، حتى يتسنى لنا أن نعلق عليها، ونستنبط منها، ولتكن الرواية التي ذكرها البخاري، وقام بشرحها ابن حجر: حيث روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال: «**إنه لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: ثنتين منهن في ذات الله ﷻ: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وقال: بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: إن هاهنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها فقال: من هذه؟ قال: أختي، فأتى سارة قال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني عنك فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني، فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت فأطلق.**

فدعا بعض حجبته فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان، فأخدَمها هاجر، فأتته وهو قائم يصلي، فأومأ بيده: مهيم؟

قالت: رد الله كيد الكافر ـ أو الفاجر ـ في نحره، وأخدم هاجر»، قال أبو هريرة: تلك أمكم يا بني ماء السماء[1].

قوله: «**لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلا ثلاث كذبات**»، وقد أورد أبو البقاء على هذا الحصر ما رواه مسلم من حديث أبي زرعة عن أبي هريرة في حديث الشفاعة الطويل فقال في قصة إبراهيم: وذكر كذباته ثم ساقه من طريق أخرى من هذا الوجه، وقال في آخره:

وزاد في قصة إبراهيم وذكر قوله في الكوكب: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، وقوله لآلهتهم: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾.

قال القرطبي: ذكر الكوكب يقتضي أنها أربع.

وقد جاء في رواية ابن سيرين بصيغة الحصر فيحتاج في ذكر الكوكب إلى تأويل.

يقول ابن حجر: الذي يظهر أنها وهم من بعض الرواة، فإنه ذكر

---

(١) حديث رقم (٣٣٥٨)، كتاب أحاديث الأنبياء من «فتح الباري» ٦/ ٤٤٧.

قوله في الكوكب بدل قوله في سارة، والذي اتفقت عليه الطرق ذكر سارة دون الكوكب، وكأنه لم يعد مع أنه أدخل من ذكر سارة: لما نقل أنه قاله في حال الطفولية فلم يعدها؛ لأن حال الطفولية ليست بحال تكليف، وهذه طريقة ابن إسحاق.

وقيل: إنما قال ذلك بعد البلوغ لكنه قاله على طريق الاستفهام الذي يقصد به التوبيخ.

وقيل: قاله على طريق الاحتجاج على قومه تنبيهاً على أن الذي يتغير لا يصلح للربوبية، وهذا قول الأكثر أنه قاله توبيخاً لقومه أو تهكماً بهم وهو المعتمد.

ولهذا لم يعد ذلك في الكذبات[١].

قوله: «**فأرسل إليه فسأله عنها فقال: من هذه؟ قال: أختي، فأتى سارة فقال: يا سارة ليس على وجه الأرض...**» إلخ.

هذا ظاهر في أنه سأله عنها أولاً ثم أعلمها بذلك لئلا تكذبه عنده، وفي رواية هشام بن حسان أنه قال لها: «إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي وإنك أختي في الإسلام، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار فأتاه فقال: لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي أن تكون إلا لك، فأرسل إليها» الحديث.

فيمكن أن يجمع بينهما بأن إبراهيم أحسَّ بأن الملك سيطلبها منه فأوصاها بما أوصاها، فلما وقع ما حسبه أعاد عليها الوصية[٢].

قوله: «ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك».

يشكل عليه كون لوط كان معه كما قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ﴾.

---

(١) «فتح الباري» ٦/ ٤٥٠، ٤٥١، راجع ما كتبته في ذلك أثناء عرض الشبهة الأولى.

(٢) راجع: المصدر السابق ٦/ ٤٥٢.

ويمكن أن يجاب بأن مراده بالأرض الأرض التي وقع له فيها ما وقع ولم يكن معه لوط إذ ذاك[1].

ويرى الحافظ ابن كثير أنه يعني زوجين مؤمنين غيري وغيرك، ويتعين حمله على ذلك[2].

قوله: «فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ» كذا في أكثر الروايات، وفي بعضها: «ذهب يناولها يده».

وفي رواية مسلم: «فقام إبراهيم إلى الصلاة، فلما دخلت عليه؛ أي: على الملك لم يتمالك أن بسط يده إليها فقُبضت يده قبضة شديدة». وفي رواية أبي الزناد عن الأعرج من الزيادة: «فقام إليها فقامت تتوضأ وتصلي».

قوله: «حتى ركض برجله؛ يعني: أنه اختنق حتى صار كأنه مصروع».

قيل: الغط صوت النائم من شدة النفخ.

وحكى ابن التين أنه ضبط في بعض الأصول: «فغط» بفتح الغين والصواب ضمها.

ويمكن الجمع بأنه عوقب تارة بقبض يده وتارة بالصراعة وقوله: «فدعت» من الدعاء في رواية الأعرج المذكورة ولفظه: «فقالت: اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط علي الكافر».

ويجاب عن قولها: «إن كنت» مع كونها قاطعة بأنه ﷻ يعلم ذلك بانها ذكرته على سبيل الفرض هضماً لنفسها.

قوله: «فقال: ادعي الله لي ولا أضرك». في رواية مسلم: «فقال لها: ادعي الله أن يطلق يدي ففعلت». في رواية أبي الزناد المذكورة:

---

(١) «فتح الباري» ٦/ ٤٥٢.

(٢) راجع: «البداية والنهاية» ١/ ١٤٣.

«قال أبو سلمة: قال أبو هريرة قالت: اللهم إن يمت يقولوا هي التي قتلته قال: فأرسل».

قوله: «ثم تناولها الثانية». في رواية الأعراج: «ثم قام إليها فقامت تتوضأ وتصلي». قوله: «فأخذ مثلها أو أشد». في رواية مسلم: «فقبضت أشد من القبضة الأولى». قوله: «فدعا بعض حجبته، ودعا الذي جاء بها لم أقف على اسمه». قوله: «إنك لم تأتني بإنسان إنما أتيتني بشيطان».

في رواية الأعرج: «ما أرسلتم إلي إلا شيطاناً، ارجعوها إلى إبراهيم» وهذا يناسب ما وقع له من الصرع.

والمراد بالشيطان المتمرد من الجن، وكانوا قبل الإسلام يعظمون أمر الجن جداً ويرون كل ما وقع من الخوارق من فعلهم وتصرفهم[١].

قوله: «فأتته». في رواية الأعرج: «فأقبلت تمشي، فلما رآها إبراهيم».

قوله: «مهيم». في رواية المستملي: «متهيا».

وفي رواية ابن السكن: «مهين» بنون، وهي بدل المهيم، وكان المستملي لما سمعها بنون ظنها نون تنوين.

ويقال: إن الخليل أول من قال هذه الكلمة ومعناها: ما الخبر.

قوله: «رد الله كيد الكافرين أو الفاجر في نحره».

هذا مثل تقوله العرب لمن أراد أمراً باطلاً فلم يصل إليه، ووقع في رواية الأعرج: «أشعرت أن الله كبت الكافر وأخدم وليدة»؛ أي: جارية للخدمة، وكبت؛ أي: رده خاسئاً، ويقال: أصله «كبد»؛ أي: بلغ الهم كبده[٢].

يذكر الإمام ابن العربي أن في هذا الحديث نكتة عظمى تقصم الظهر، وهي أنه قال رسول الله ﷺ: **«لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: ثنتين منها ماحل بهما عن دين الله، وهي قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾،**

---

(١) «فتح الباري» ٦/ ٤٥٣.

(٢) راجع: «فتح الباري» ٦/ ٤٥٣.

و﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾»، ولم يعد قوله: «**هذه أختي**» في ذات الله، وإن كان دفع بها مكروهاً، ولكنه لما كان لإبراهيم فيها حظ من صيانة فراشه، وحماية أهله، لم يجعل في جنب الله ذلك؛ لأنه لا يجعل في ذات الله إلا العمل الخالص من شوائب الحظوظ الدنياوية، أو المعاني التي ترجع إلى النفس، حتى إذا خلصت للدين كانت لله، كما قال: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾.

وهذا لو صدر منا لكان لله، ولكن منزلة إبراهيم اقتضت هذا، والله أعلم(١).

وقد تابعه على ذلك الحافظ ابن حجر العسقلاني حيث يذكر في قوله ﷺ: «**ثنتين منهن في ذات الله**» أنه خصهما بذلك؛ لأن قصة سارة وإن كانت أيضاً في ذات الله، لكنها تضمَّنت حظاً لنفسه، ونفعاً له، بخلاف الثنتين الأخيرتين فإنهما في ذات الله محضاً.

لكنه يعود فيذكر أنه قد وقع في رواية هشام بن حسان: «**أن إبراهيم لم يكذب قط إلا ثلاث كذبات، كل ذلك في ذات الله**»، وفي حديث ابن عباس عند أحمد: «والله إن جادل بهن إلا عن دين الله»(٢).

أما الإمام النووي فإنه في شرحه للحديث الذي رواه الإمام مسلم قد عقب على قوله: «**ثنتين في ذات الله، قوله:** ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، **وقوله:** ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾، **وواحدة في شأن سارة...**»، فقال: «والواحدة التي في شأن سارة هي أيضاً في ذات الله تعالى؛ لأنها سبب دفع كافر ظالم عن مواقعة فاحشة عظيمة، وقد جاء ذلك مفسراً في غير مسلم فقال: ما فيها كذبة إلا يماحل بها عن الإسلام؛ أي: يجادل ويدافع، ثم يشير إلى قول العلماء: «وإنما خصَّ الثنتين بأنهما في ذات الله تعالى، لكون الثلاثة

---

(١) راجع: «أحكام القرآن» ٣/ ١٢٦٥.   (٢) راجع: «فتح الباري» ٦/ ٤٥١.

تضمنت نفعاً له، وحظاً مع كونها في ذات الله تعالى»[1].

قصة الخليل وسارة في توراة اليهود:

وقبل أن نناقش موقف العلماء من هذا القول الثالث: قول الخليل لسارة: «**هذه أختي**» لا بد من الإشارة إلى ورود أحداث هذه القصة: «قصة سفر إبراهيم وسارة إلى مصر»، في توراة اليهود من خلال سفر التكوين، **حيث جاء فيه ما يلي**:

«وحدث جوع في الأرض، فانحدر أبرام إلى مصر ليتغرب هناك؛ لأن الجوع في الأرض كان شديداً.

وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته: إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون: هذه امرأته، فيقتلونني ويستبقونك، قولي: إنك أختي، ليكون لي خير بسببك، وتحيا نفسي من أجلك، فحدث لما دخل أبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جداً، ورآها رؤساء فرعون، ومدحوها لدى فرعون، فأُخذت المرأة إلى بيت فرعون، فصنع إلى أبرام خيراً بسببها، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال، فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة أبرام.

فدعا فرعون أبرام وقال: ما هذا الذي صنعت بي، لماذا لم تخبرني أنها امرأتك؟

لماذا قلت هي أختي حتى أخذتها لي لتكون زوجتي، والآن هو ذا امرأتك، خذها واذهب».

فأوصى عليه فرعون رجالاً فشيعوه وامرأته وكل ما كان له[2].

---

(١) راجع: «شرح صحيح مسلم» ١٥/ ١٢٤، ١٢٥.

(٢) سفر التكوين ١٢: ١٠ ـ ٢٠.

وجاء في «**السنن القويم في تفسير أسفار العهد القديم**»: أن هذا الجوع الذي حدث في الأرض لا بد أنه حدث بعد سنين قليلة من وصول أبرام إلى أرض كنعان. . . ، والظاهر أن مياه النيل كانت كثيرة في تلك السنة فكثر خصبها فقصدها أبرام إحياء لمن معه من الناس وما معه من البهائم، ولم يكن قصده أن يبقى هنالك إلا وقتاً قصيراً؛ لأنه لم يكن يطلب مدينة على الأرض(١).

ويرى الدكتور أحمد محمد يوسف أن إبراهيم عليه السلام أقبل من حيث كان يقيم في فلسطين على مصر، يطلب فيها الشبع والري من بلاد ضربها القحط والجفاف، وأن مجيئه إليها على الأرجح المشهور أيام الأسرة الثانية عشرة من ملوك الدولة الوسطى في القرن العشرين من قبل مولد المسيح، حيث أقبل على طريق ممهد من علائق قديمة بآسيا منذ أقدم العصور، إذ كانت قوافل التجارة ترد على مصر، وتصدر عنها، بما تحمل من عروض تحتاج إلها مصر، أو تطلبها سوريا وفلسطين(٢).

ويرجح أن إبراهيم قد هبط مصر مع إحدى قوافل البدو، تلك التي كانت تقبل بائعة لها وبائعة منها، ولقد كان حلول إبراهيم بمصر كما ورد في الإصحاح الثاني عشر من سفر التكوين فراراً من قحط وجوع لم يكن إلى احتماله بفلسطين من سبيل.

ومن المحقق أنه إنما أقبل على مصر وقد تسامع الناس في بلاده بما كان في مصر يومئذ من الرخاء ورغد العيش، ولين المقام، وما كان يسودها من الأمن والدعة والسلام.

---

(١) راجع: الجزء الأول ص١١٢، ١١٣، صدر عن مجمع الكنائس في الشرق الأدنى، بيروت ١٩٧٣م.

(٢) راجع تفصيل ذلك في كتابه: «مصر في القرآن والسُّنة» ص٩ ـ ١٦، دار المعارف، الطبعة الثالثة.

ومع ذلك فإن المؤرخ اليهودي «يوسف بن متى» والمعروف بـ«يوسيفوس» يبيّن الهدف من هجرة الخليل عليه السلام إلى مصر في قوله: «ومضى زمن، وأصاب كنعان القحط، وسمع إبراهيم برخاء المصريين، فاعتزم الهجرة إلى مصر ليصيب من خيراتها، ويسمع ما يقوله أحبارها في أمر الله، وفي نفسه إذا علم من كلامهم ما هو خير مما عنده أن يتقبله؟!!! أو يرى أن عقيدته خير مما عندهم فيدعوهم إليها (وهذا هو الصحيح فيما نؤمن به ونعتقد فيه، والذي يتفق مع جلال النبوة وعظمة الرسالة)».

هذا فضلاً عن دوره في الإصلاح بين الكهنة، حيث يقول يوسيفوس أيضاً: «ولما رأى إبراهيم أن المصريين متشبثون بعادات شتى يخالف بعضهم بعضاً من جرائها، ويعادي بعضهم بعضاً لأجلها، جعل يناقشهم فيها كل فريق على حدة، ويبدي لهم جميعاً أنها ليست على شيء من الحق، ويحل ذلك منهم محل الإعجاب فيعلمون أنه لم يكن على نصيب وافر من الفطنة وحسب، بل كان كذلك عظيم القدرة على إقناع سامعيه في كل موضوع تناوله ببحثه.

وأياً ما كان الأمر، ومهما يكن من تقدير المؤرخين والكتاب في تاريخ هبوط الخليل إلى مصر واختلافهم فيه، فإن الأحوال المواتية التي كانت خليقة أن تجذبه إليها، وتغريه بالإقبال عليها، والإقامة فيها، وإنما تهيأت واستقرت على عهد ملوك الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١ ـ ١٧٨٦ق.م)، ولم تتهيأ قبلها. ولا استمرت طويلاً بعدها[١].

---

(١) راجع: «إبراهيم أبو الأنبياء» للأستاذ العقاد ص٩٧، ٩٨؛ والدكتور محمد بيومي مهران «بنو إسرائيل» ١/٩٦ ـ ١٠٢؛ و«مصر في القرآن والسُّنة» للدكتور أحمد عبد الحميد يوسف ص١٦.

وجوه اختلاف قصة توراة اليهود عن قصة الحديث النبوي:

ومن الواضح أن سرد الأحداث في سفر التكوين يختلف عن ما ورد في الأحاديث النبوية الشريفة، وخاصة في الباعث الذي حمل الخليل إبراهيم عليه السلام على قوله هذا لسارة، حيث نلاحظ أن قصة سفر التكوين تبرز الخليل عليه السلام بصورة لا تليق به وتتنافى مع عصمته، وإذ أنها تنص على أنه كان يهدف من وراء ذلك إلى إفادة دنيوية حيث سيحصل له خير بسبب قوله لسارة، وكان يخشى على نفسه القتل فأراد أن يستبقيها فقال: «فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته، فيقتلونني ويستبقونك، قولي إنك أختي، ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك».

ومن المؤسف أن مفسِّري هذا النص وشراح هذا السفر قد تطاولوا على الخليل إبراهيم عليه السلام، فبدلاً من نقدهم للأحداث والنصوص وتنزيههم للخليل مما نسب إليه، إذا بهم يصبون جام غضبهم ونار حقدهم عليه، ويلقون عليه بالتهم النكراء، فعلى سبيل المثال جاء في كتاب **«السنن القويم»** تعليقاً على اتفاق الخليل مع ساراي على أن تقول إنها أخته ما يلي: «وهذا بحسب النظر إلى إيمان أبرام (غريباً جداً)[1]؛ فإنه ترك أرض ميلاده إطاعة لأمر الله، وذهب غريباً يتنقل من مكان إلى مكان، ومع هذا ارتكب ذلك وهو مما يؤول إلى أخذ امرأته منه، ولعل أبرام أتى ذلك لينقذ نفسه، واتكل على نباهة امرأته في أنها تخلص نفسها من المصاعب، ولكن في كل الأحوال كان ما أتاه دليلاً على ضعف الإنسان ولا سيما إنسان سامي السجايا محسوب من أفاضل البشر».

ويرى صاحب هذا التفسير أنه «لا ريب في أن ساراي كانت أخت أبرام بالنظر إلى أنها ابنة تارح أبيه، ولكن ذلك لا يخرج الكلام من دائرة الكذب؛ لأنه بمنزلة نص على أنها ليست بزوجه مطلقاً»[2].

---

(١) هكذا بهذا الخطأ النحوي.

(٢) راجع: «السنن القويم» ١/ ١١٣.

وجاء في «**قاموس الكتاب المقدس**» أن إبراهيم ذكر لفرعون أن ساراي أخته دون أن يذكر أنها زوجته خوفاً على حياته، وأنه أظهر ضعفاً في إيمانه مرتين عندما لم يقل الحق كله في ذكر علاقة سارة زوجته به[1].

ولعل ما نقلته من هذين المصدرين يعد أخف وألطف مما ذكره مثلاً حبيب سعيد الذي يذكر أن خشية الخليل ورهبته مما رأى من مملكة مصر هما علة قوله لساراي امرأته ما قال، وعلق على ذلك بقوله: «واحسرتاه! حتى خليل الله، حتى أبي المؤمنين يخونه إيمانه وتخونه شجاعته، . . .».

ويقول: «والظاهر أن إبراهيم كان يعرف بعض آداب البلاط الملكي، فعرض على امرأته سارة أمراً غريباً، أن تدّعي بأنها أخته لا زوجته، وكان ذلك نصف الصدق؛ لأن سارة كانت فعلاً أخته من أبيه (تكوين ٢٠ ـ ١٢)، إلا أنه قصد هنا الكذب، وتورط في الغش، والأنكى من هذا أن هدفه لم يكن احترام سارة، بل حرصاً على حياته «وتحيا نفسي من أجلك» حب الذات في الطبيعة البشرية، حتى في خليل الله، وما أسوأ ما يكون القديسون الصالحون أحياناً»!.

بل إن الدكتور «ف. ب. ماير» قد أغرق في الإسفاف، وأمعن في الجهالة حينما يقول: «عندما فقد إبراهيم إيمانه، ونزل إلى مصر فقد أيضاً شجاعته، وأقنع زوجته بأن تقول عن نفسها إنها أخته، فإنه كان قد سمع عن فساد أخلاق المصريين، وخشي أن يقتلوه ليتمكنوا من أخذ سارة التي كانت على شيء عظيم من الجمال رغم تقدمها في السن.

لقد كان هنالك بعض الصدق فيما قرره من أن سارة أخته، ولكن كان القصد من ذلك إخفاء الحق، أو بعبارة أخرى كان الكلام كذباً،

---

(١) راجع: «القاموس» ص١٠ ـ ١٢، ويقصد المرة الثانية مع ملك أبيمالك كما سنبيّن بعد ذلك.

وقد ضلل هذا الكلام المصريين فعلاً، ولأن سارة «أخذت إلى بيت فرعون»، كان هذا الموقف الذي وقفه إبراهيم دليلاً على ضعفه وجبنه، ولم يستطع أن يجد له مبرراً يدافع به عن نفسه، وكانت غلطة شنيعة من شخص عاش بالإيمان كل تلك المدة الماضية»[1].

وأخيراً، فإن القس منيس عبد النور يعلق على قول الخليل لزوجه سارة: «قولي إنك أختي...»، بأن هذا أمر مخجل، صحيح أن سارة أخت إبراهيم من أبيه، ولكن علاقتها به كزوجة تأتي قبل علاقتها به كأخت!

إن إبراهيم يكذب! إنه يخفي نصف الحق، ويقول نصف الحق فقط... وهو يخفي نصف الحق وفي نيته الكذب!، وهو يجعل سارة تكذب معه!!

ولماذا يكذب؟ لكي ينجي نفسه، ولكي يكون له خير بسبب الكذب!.. وهو يرمي زوجته، ويدوس شرفه، وينسى مواعيد الله، من أجل سلامة جسده، ومن أجل كثرة مكسبه[2].

هكذا بهذا الهجوم، وبهذا التطاول، وليس كل ذلك بعجيب من أناس يعلقون على توراة تصور أنبياء بني إسرائيل بصورة مشوهة، وتنزع عن بعضهم العصمة، بل وتردهم إلى درك الحيوانية، وإلى مهاوي الشرك، والارتداد عن الدين.

من أناس يدعون ـ فيما يقول الشيخ رحمة الله الهندي ـ أن الأنبياء إنما يكونون معصومين في تبليغ الوحي فقط تقريراً كان أو تحريراً، وأما في غير التبليغ فليسوا بمعصومين لا قبل النبوة ولا بعدها، فيصدر عنهم بعدها جميع الذنوب قصداً، فضلاً عن الخطأ والنسيان، فيصدر عنهم

---

(١) راجع كتابه: «حياة إبراهيم» ص٤٢، مكتبة المحبة.

(٢) راجع كتابه: «إبراهيم السائح الروحي» ص٢٢، دار الثقافة.

الزنا بالمحارم فضلاً عن الأجنبيات، ويصدر عنهم عبادة الأوثان وبناء المعابد لها.

ولا يخرج عندهم نبي من إبراهيم إلى يحيى عليه السلام لا يكون زانياً أو من أولاد الزنا ـ أعاذنا الله من أمثال هذه العقائد الفاسدة في حق الأنبياء ـ بل إن ادعاءهم العصمة في التبليغ أيضاً ادعاء باطل لا أصل له على أصولهم، ويصدر هذا الادعاء عنهم لتغليط العوام[1].

وانطلاقاً من هذا، فإن مفسِّري التوراة من اليهود والنصارى لم يحاولوا مناقشة هذه الروايات التي وردت في حق الخليل إبراهيم عليه السلام وزوجته سارة مع حاكم مصر أو حاكم جرار، وإنما بالعكس كان هدفهم الأول إثبات صحتها، حتى دون مناقشة، وهم أول من يعلم أن التوراة، أو العهد القديم غير ثابت السند[2]، وراح بعضهم يتطاول على المقام السامي، دونما أي حذر أو حيطة، بل دونما أي سند أو دليل موثوق به.

وليس لنا من تعليق على هذا التهجم على أبي الأنبياء، إلا أن نقول بأن التوراة ـ التي اعتمد عليها أصحاب هذه الآراء ـ إنما تجعل من إبراهيم خليلاً لله، والأمر كذلك بالنسبة إلى الإنجيل، والقرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وأنه في التوراة والإنجيل «قد آمن بالله فحسب له الإيمان براً»، ويعتبر الإنجيل المسيح من سلالته.

هذا فضلاً عن أن الكتب المقدسة جميعاً، إنما تنظر إليه على أنه الأب الروحي لكل المؤمنين، ومن ثَم فإن جميع أمم الأرض المؤمنين

---

(١) راجع: «إظهار الحق» ٤/ ١٢١٤.

(٢) راجع تفاصيل ذلك في كتابي: «تأثر اليهودية بالأديان الوثنية» حيث خصَّصت فصلاً كاملاً بعنوان «فقدان اليهود للتوراة المنزلة على سيدنا موسى وانتفاء قدسية أسفار العهد القديم»، واستشهدت بأقوال الكثيرين من علماء اليهود والنصارى على بطلان نسبة الأسفار الخمسة إلى موسى عليه السلام.

إنما تتبارك به، وانطلاقاً من هذا كله، فإن الأديان الثلاثة الكبرى ـ اليهودية والمسيحية والإسلام ـ إنما تحيط الخليل عليه السلام، بهالة من الاحترام والإجلال، وتشرف جميعاً بالانتساب إليه[1].

تحت عنوان «ذكر ثناء الله ورسوله الكريم على عبده وخليله إبراهيم» تحدث الحافظ ابن كثير، فبيَّن أنه لما وفى ما أمره ربه من التكاليف العظيمة جعله للناس إماماً يقتدون به، ويأتمون بهديه، وسأل الله أن تكون هذه الإمامة متصلة بسببه، وباقية في نسبه، وخالدة في عقبه، فأجيب إلى ما سأل ورام، وسلمت إليه الإمامة بزمام، واستثنى من نيلها الظالمون، واختص بها من ذريته العلماء العاملون، يقول تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، فكل كتاب أنزل من السماء على نبي من الأنبياء بعد إبراهيم الخليل فمن ذريته وشيعته، وهذه خلعة سنية لا تضاهى، ومرتبة علية لا تباهى، وذلك أنه ولد له لصلبه ولدان ذكران عظيمان: إسماعيل من هاجر، ثم إسحاق من سارة، وولد لهذا يعقوب وهو إسرائيل الذي ينتسب إليه سائر أسباطهم، فكانت فيهم النبوة وكثروا جداً بحيث لا يعلم عددهم إلا الذي بعثهم، واختصهم بالرسالة والنبوة حتى ختموا بعيسى ابن مريم من بني إسرائيل.

وأما إسماعيل عليه السلام فكانت منه العرب على اختلاف قبائلها، ولم يوجد من سلالته من الأنبياء سوى خاتمهم على الإطلاق وسيدهم وفخر بني آدم في الدنيا والآخرة، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم

---

(١) راجع تفاصيل ذلك في: «دراسات في حضارات الشرق الأدنى القديم» ١/١٧٦ ـ ١٨١.

القرشي الهاشمي المكي ثم المدني، صلوات الله وسلامه عليه، فلم يوجد من هذا الفرع الشريف، والغصن المنيف، سوى هذه الجوهرة الباهرة، والدرة الزاهرة، وواسطة العقد الفاخرة، وهو السيد الذي يفتخر به أهل الجمع، ويغبطه الأولون والآخرون يوم القيامة(١).

ويكفينا ما قاله الله ﷻ في شأن الخليل حيث أثنى عليه بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٢١ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٢].

الاختلاف الثاني:

من أوجه الاختلاف بين رواية التوراة اليهودية وبين ما ورد في الأحاديث الصحيحة بشأن الخليل إبراهيم عليه السلام وزوجه السيدة سارة مع حاكم مصر في ذلك الوقت، أننا نلاحظ أن رواية التوراة قد تحدثت عن هذا الحاكم على أنه «فرعون» حيث ذكر هذا اللفظ ست مرات: «ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون»، فأخذت المرأة إلى بيت فرعون، . . . فضرب الرب فرعون. . . فدعا فرعون أبرام. . فأوصى عليه فرعون رجالاً . . .

بينما نجد أن رواية السُّنَّة النبوية لم تذكر كلمة فرعون إطلاقاً، وإنما تحدث عنه كما سبق أن عرضت، على أنه «جبار» «الجبار»، «جبار من الجبابرة»، «ملك من الملوك»، «الملك»، ووصف بأنه «الكافر» و«الفاجر».

وتتجلى قيمة هذا الاختلاف في أنه يؤكد لنا من جديد صدق ما أخبر به المصطفى ﷺ، وأن سنّته الصحيحة والمعتمدة تمثل ما يعرف عند العلماء بالوحي غير المتلو، حيث إن القرآن الكريم يمثل «الوحي المتلو» وأنها وحي من الله إلى رسوله ﷺ بالمعنى، وعبر عنها بلفظه، فالمعنى من عند الله سبحانه، واللفظ من عند رسوله ﷺ.

---

(١) راجع: «البداية والنهاية» ١/ ١٥٥، ١٥٦؛ و«قصص الأنبياء» ١/ ١٣٤.

وبيان ذلك أنه بالرجوع إلى المتخصِّصين في تاريخ وحضارة مصر والشرق القديم نجد ما يلي:

١ ـ عُرف عاهل مصر في عصورها القديمة باسم فرعون، وهو لقب اختص به، كما اختص كسرى عند الفرس، والنجاشي عند الأحباش، من ملوك العالم القديم، وعن فرعون تحدثت التوراة وبه نطق القرآن الكريم، فجاء في العبرانية بلفظ «فرعو»، وفي العربية «فرعون»، ولم يكن هذا اللفظ سوى تصحيف للفظين المصريين «بر ـ عو» أو «بر ـ عا» والتي تعني بادئ ذي بدء «البيت العالي» أو البيت العظيم، وكان يكنى بتلك العبارة منذ الدولة القديمة عن قصر الملك دون شخصه، أو يكنى بها أحياناً عما يتصل به من بين الطرائق الكثيرة التي كانت تشير إلى القصر الملكي وليس إلى ساكنه، فكان المصريون إذا ذكر اسم الملك أتبعوه بالدعاء له بالحياة والصحة والسلامة، وكذلك صاروا يفعلون إذا ذكر «برعو»، وإن ظل القصد راجعاً إلى معنى البيت العظيم.

٢ ـ ثم حدث خلال عصر «تحتمس الثالث» (١٤٩٠ ـ ١٤٣٦ق.م) أن الاصطلاح «بر ـ عو» أو «فرعون»، إنما بدئ في إطلاقه على الملك نفسه، يذكر الدكتور أحمد يوسف أن دلالة اللفظ على شخص الملك نفسه لم تثبت إلا منذ الأسرة الثامنة عشرة على عهد أخناتون، إذ لقب بذلك على بعض آثاره كما خوطب به في بعض ما وجه إليه من كتب، فلما كانت الأسرة التاسعة عشرة ـ وهي أسرة رمسيس الثاني وبنيه ـ ذاع اللقب فيما ورد عن الملك من الخبر والخطاب، وحل في أحيان كثيرة محل لقب الجلالة، فقيل: خرج «جلالته» أو خرج «برعو» على سواء.

٣ ـ وعلى أي حال، فإن استعمال لقب فرعون، إنما يبدو مؤكداً منذ أيام أخناتون (١٣٦٧ ـ ١٣٥٠ق.م) حيث يشير «سير ألن جاردنر» العالم الحجة في اللغة المصرية القديمة، إلى أن هناك خطاباً من عهد أخناتون استعمل فيه لقب فرعون بالنسبة إلى ملك مصر (أي: أخناتون)، ثم سرعان

ما أصبح لقب فرعون منذ عهد الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٨ ـ ١١٩٤ق.م) وما بعدها يستعمل في بعض الأحيان كمرادف لكلمة «جلالته»، ومن هذا الوقت أصبحنا نقرأ «خروج فرعون»، «وقال فرعون».. وهكذا.

٤ ـ وانطلاقاً من هذا، فإن كلمة أو لقب «فرعون» على ملك مصر قبل عصر تحوتمس الثالث إنما يعد خطأ في تسلسل تواريخ الأحداث، حيث أصبحت لفظة «فرعون» تعبيراً محترماً يقصد به الملك نفسه منذ هذه الفترة من عصر الأسرة الثامنة عشرة (١٥٧٥ ـ ١٣٠٨ق.م)[1].

٥ ـ ومهما يكن من شيء، فإن القرآن الكريم لم يذكر «فرعون» إلا فيما روى من نبأ موسى، ولم يذكره مرة واحدة فيما أورد من سيرة يوسف عليه السلام، وتلك دقة الإعجاز التي لا تتوفر لأحرص الناس من العلماء والمؤرخين، فلم يكن لقب فرعون بدلالته على ملوك مصر ذائعاً في ذلك الزمان من عهد يوسف، ولم يكن الملك الذي دخل يوسف في خدمته مصرياً فيستحق لقباً اختص به الملوك من المصريين، بل كان أجنبياً يناصبهم ويناصبونه العداء.

كذلك لم يكن الملك هو بطل القصة كي يخصه القرآن بلقب يفرده وينبه إليه، ولكنه آثر فرعون موسى بذلك اللقب الذي أطلقه اسماً له، وأجراه عَلَماً عليه تمييزاً له عن سائر الملوك، وقصراً عليه وحده لما وصفه به من المروق والطغيان، ذلك الطغيان الذي صار اسم فرعون ـ بغير الحق ـ في نظر الناس عَلَماً عليه، ولقد قدر الله ـ وإن شاء ألا يسمى فرعوناً بذاته ـ أن يعينه، ويختص واحداً من سائر الفراعين، ذلكم

---

(١) راجع: الدكتور أحمد يوسف «مصر في القرآن والسُّنة» ص١١٩؛ والدكتور محمد بيومي مهران «بنو إسرائيل» ١/ ٩٥، ٩٦؛ و«دراسات في حضارات الشرق الأدنى القديم» ١/ ١٧١؛ وكتب الدكتور عبد العزيز صالح والدكتور أحمد فخري.

هو الفرعون الذي صحبه وخدمه رجل من خاصته هو «هامان» أو حورمين، وذلك حين الحديث عمن أرسل إليه موسى بالدعوة، وجهد بالتحدي والتكذيب، فحقت عليه الكلمة إلا أن يكون مفهوماً متعيناً من سياق الآيات[١].

والخلاصة من هذا كله أن استعمال التوراة اليهودية للفظة «فرعون» في قصة الخليل، وكذا في قصة الصديق يوسف عليه السلام، إنما هو خطأ تاريخي، والأمر غير ذلك تماماً بالنسبة إلى القرآن الكريم الذي حرص في سرده لقصة يوسف الصديق عليه السلام ـ والذي عاش في أيام الهكسوس (حوالي عام ١٧٢٥ ـ ١٥٧٥ق.م) ـ على أن يلقب حاكم مصر الذي عاصر النبي الكريم بالملك، حيث يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾، بينما حرص على أن يلقب الملك الذي عاصر موسى عليه السلام بـ«الفرعون»[٢].

ومن الواضح أن السر في ذلك يرجع إلى أن القرآن الكريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد[٣]، فهو يعلم ما كان وما يكون وما سيكون، أما توراة اليهود فلأنها لبثت بعد عصر سيدنا موسى بفترة طويلة، وكان حكام مصر في عصر الكتبة يلقبون بلقب «فرعون»، فظن الكاتب أن حاكم مصر في عصر الخليل إبراهيم وفي عصر الصديق يوسف عليه السلام لا بد أن يكون ملقباً بنفس اللقب، وهذا جهل منه بالتاريخ وتبديل لكلام الله عز وجل وافتراء عليه.

---

(١) راجع تفاصيل ذلك في كتاب: «مصر في القرآن والسُّنة» ص١١٩ ـ ١٢٨.

(٢) راجع: «بنو إسرائيل» ١/٩٦.

(٣) راجع تفاصيل الحديث عن توثيق نص القرآن الكريم وحفظ الله له وفقدان التوراة لكل ذلك في كتابي: «تأثر اليهودية بالأديان الوثنية»، فصل «فقدان اليهود للتوراة المنزلة على موسى عليه السلام»، وكتب الدكتور محمد عبد الله دراز: «النبأ العظيم» و«مدخل إلى القرآن الكريم»، وكتاب موريس بوكاي «الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة».

الاختلاف الثالث:

ومن وجوه الاختلاف بين رواية التوراة اليهودية وبين رواية الأحاديث النبوية أنه بينما تصف رواية الحديث النبوي ملك مصر بأنه «جبار من الجبابرة»، ووصفت ما فعله بأنه كيد الكافر، أو الفاجر، وأن الله رد كيده في نحره، بينما الأمر كذلك نجد أن رواية سفر التكوين تصفه بالنبل والشهامة، وأنه عاتب الخليل عليه السلام ولامه لأنه لم يصدقه وكذب عليه، يقول السفر: «فأخذت المرأة إلى بيت فرعون، فصنع إلى أبرام خيراً بسببها. . . فدعا فرعون أبرام وقال: ما هذا الذي صنعت بي، لماذا لم تخبرني أنها امرأتك، لماذا قلت هي أختي حتى أخذتها لي لتكون زوجتي، والآن هي ذا امرأتك، خذها واذهب، فأوصى عليه فرعون رجالاً فشيعوه وامرأته وكل ما كان له».

مما دعا شراح العهد القديم والمعلقين على نصوصه يذكرون أن فرعون صنع إلى أبرام خيراً؛ لأن العادة كانت تقضي بأن يعطي الرجل أقرباء عروسه مبلغاً من المال، وعلى هذا أعطى فرعون أبرام غنماً وبقراً وحميراً وعبيداً وإماءً إلخ، وتقديم فرعون هذه الهدايا دليل على اعتباره أن اتخاذ ساراي أمر جائز شرعي.

ويتساءل صاحب «السنن القويم»: «ماذا كان إثم فرعون وقد أخذ ساراي برضى أبرام حسب ما ظهر له وأحسن مهرها وهو يعتقد أنها أخت أبرام لا امرأته.

ويجيب بقوله: إن الذي أصاب فرعون مع هذا يحملنا على الظن أن ساراي نهت فرعون عن أخذها وقالت له: إن الرب يغضب عليه وينتقم منه إن أخذها لأنها امرأة أبرام، فلم يصدقها فرعون واعتقد أنها تكذب عليه لتنقذ نفسها منه؛ لأنه قبيح الصورة وهي حسناء، ولا بد من أنها ذكرت له ما عرفته من صفات الرب وقواعد الدين الحق، فلم

يكترث بذلك، فضربه الله تصديقاً لكلامها فرجع عن مقصده وخاف الرب، والذي يدلنا على ذلك قوله لإبراهيم: «لماذا لم تخبرني أنها امرأتك».

ويستطرد صاحب «السنن القويم» فيذكر أن ما فعله فرعون بإبراهيم وتكريمه له حيث أوصى عليه رجالاً فشيَّعوه وامرأته وكل ما كان له، كل ذلك يدل على أن فرعون خاف الرب وأراد النجاة من غضبه، إن لم يكن قد أحبه وأحب إكرام عبيده ثم يقول: «ولا ندري ماذا كانت أفكار أبرام عندما وبخه هذا الملك الحامي على كذبه، لعل أبرام رآه مصيباً وباراً أكثر منه».

أما حبيب سعيد فيذكر أنه: «يشاء الله أن يقيل خليله من عثرته، وينهضه من كبوته، فيغضب الرب على فرعون وأهل بيته، وينزل عليهم ضربات موجعات، وقد كانت طريقة الله في إنقاذ سارة وتخليص خليله من الوهدة التي تردى فيها، . . .».

ويقول: «وأحسب أن إبراهيم قد تذوق اختباراً محزناً، وهو يرى المكر السيئ لا يحيق بأهله، بل يحيق بالآخرين، ذلك لأن غضب الله حل على فرعون وآله، وما أمرّ توبيخ فرعون لخليل الله: «ما هذا الذي صنعت بي، لماذا لم تخبرني أنها امرأتك. . . . .»، وهل كان هيناً على قلب خليل الله، أن يسمع هذا الزجر العنيف من رجل لا يعرف الله»!

وينتهي حبيب سعيد إلى أنه «واضح من هذه القصة أنه حتى المؤمن يمكن أن يسقط في الخطيئة، ويحيد عن الإيمان، وقد ابتدأ السقوط بنسيان الله، ثم تطور إلى حب الذات والرياء والخديعة، إنه انحدار إلى أسفل، وليس أخذل للنفس من الانفصال عن الله».

وليس هذا الكلام وغيره ببعيد على هذا الكاتب وأمثاله ممن لا يرعون للأنبياء حرمة، ولا يقيمون لهم وزناً، حيث تأثروا بما ورد في كتابهم المقدس من افتراءات وأكاذيب على هؤلاء المصطفين الأخيار، والرسل الأطهار، فبينما هم يتحدثون عن الخليل عليه السلام بهذا الإسفاف تراهم

يرفعون من مكانة هذا الملك الذي وصف في الحديث بأنه الفاجر الكافر.

بل إن بعض أساتذة التاريخ والآثار ممن يتحرَّون الدقة في أبحاثهم ودراساتهم، ويعتمدون كثيراً على نصوص القرآن والسُّنة، نراهم يقعون في هذا الخطأ. وأقصد الخطأ في مدح هذا الملك والثناء عليه دون المساس طبعاً بسيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، حيث يذكر مثلاً أنه «ظاهر من سياق الرواية أن إبراهيم لم يكن مضطراً ـ لو عرف المصريين بحق ـ إلى الخوف على امرأته ونفسه من بطش الملك، فلقد كان الملك، كما فعل من بعد خليقاً أن يحترم حرمة الزوجة ويحفظها لو كان أخبر بذلك من قبل، فلقد كان المصريون يقدرون الحرمات ويقدسونها ويرعونها أشد الرعاية، ويبجِّلونها أعظم تبجيل، فلم يكد فرعون يتبين مكان سارة من إبراهيم حتى ردها إليه معتذراً عما أوشك أن يفرط عن غير علم منه محتجاً على ما أبلغ إليه من خبر مكذوب أو مدخول، متفضلاً بما أهدى إليها من جارية هي هاجر أو هاقر إن شئنا أن ننطق باسمها المصري بغير تصحيف ولا تحريف»[1].

ما أضافه اليهود إلى القصة الأصلية:

ومعنى ذلك: أن رحلة الخليل إبراهيم إلى مصر قد تمَّت فعلاً، وأن قصة سارة مع ملك مصر قصة حقيقية، لكن اليهود قد أضافوا إليها وزادوا عليها، ثم جاء الحديث النبوي الصحيح فردَّ الأمر إلى نصابه، واقتصر على رواية الأحداث الصحيحة دونما زيادة أو نقصان، ولذلك فإننا رأينا أن رواية الحديث النبوي لا تنال من مكانة سيدنا إبراهيم ولا تغض من منزلته كخليل الله وأب للأنبياء والمرسلين.

والذي يدلنا على ما زاده اليهود وأضافوه إلى الرواية الحقيقية

---

(١) راجع ذلك في كتابه: «مصر في القرآن والسُّنة» ص٢١ وما بعدها.

ـ بجانب ما ذكرناه سابقاً ـ أن «المشنا»[1] قد خصَّت السيدة سارة بقسط كبير من الأخبار والنوادر، ولم يخل منها خبر أو نادرة من خلاف كثير. . . فهي تارة أخت غير شقيقة لإبراهيم، وهي تارة بنت أخيه الذي مات قبل الهجرة إلى كنعان. . .

ولم تخلق امرأة قط بجمال سارة، فأجمل النساء بالقياس إليها كالقرد الممسوخ، . . . وقد بلغ من فتنة جمالها أن إبراهيم لم يملأ منها عينيه، وإنما لمح خيالها في الماء وهم يعبرون بعض الجداول إلى مصر، فخاف على فرعون وقومه فتنتها، وحملها في تابوت وهم يعبرون تخوم الديار، وسأله عمال المكوس عما في التابوت فأنبأهم أنه شعير. . . قالوا بل نأخذ المكوس على قمح قال: خذوا ما تشاءون، فعادوا يطلبون الضريبة على بهار، فأجابهم إلى ما طلبوه، فارتابوا فيما يخفيه، وأمروه أن يؤدي الضريبة على وسق التابوت ذهباً فقبل وأعطاهم سؤلهم. . . فحيَّرهم قَبوله كل ما يسومونه أن يبذله، وخامرهم شك عظيم، ففتحوا التابوت عنوة، فإذا بالنور يفيض من وجه سارة حتى يعم الديار، ويعشي عين فرعون[2].

ومن الواضح أن هذه الرواية قد اشتملت على إضافات هي بمثابة نقاط ضعف تكاد تقضي عليها، وتحول الشك فيها إلى يقين بعدم صحتها.

فبجانب ما تحتوي عليه من مبالغات وخيالات فإن ما تشير إليه الرواية من قدرة الخليل إبراهيم المالية، حتى إنه كان قادراً على أداء الضريبة على وسق التابوت ذهباً إنما يهدم رواية التوراة، التي وردت في

---

(١) المشنا: هي أهم المراجع الإسرائيلية بعد التوراة، وتطلق على ما يحفظ بالذكر والاستظهار، ومنه التلمود على نشأته الأولى. راجع تفصيل الحديث عنها في: «إبراهيم أبو الأنبياء» ص٣٦ ـ ٣٨؛ والمدخل الخاص بمصادر اليهود في كتابي: «تأثر اليهودية بالأديان الوثنية».

(٢) راجع: «إبراهيم أبو الأنبياء» للأستاذ العقاد ص٤٦، ٤٧.

سفر التكوين ١٢ : ١٠ والتي تذهب ـ كما سبق ـ إلى أن إبراهيم إنما جاء إلى مصر هرباً من قحط حلَّ بأرض كنعان ـ من أساسها، فضلاً عن تعارضها لبقية قصة إبراهيم كما جاءت في التوراة (تكوين ١٢ : ١١ ـ ٢٠) ـ وكيف أنه عرض شرفه وشرف سارة في مقابل مجموعة من ماشية، منحها إياه ملك مصر.

ثم إذا ما تذكرنا أن قصر العرش المصري، حيث يفترض أن يوجد الجالس على عرش الكنانة على أيام دخول إبراهيم مصر، في عهد الأسرة الثانية عشرة، وإنما كان في «اللشت»، وأن المكوس إنما كانت تجبى في التخوم الشرقية للبلاد، لرأينا إلى أي مدى لعب الخيال اليهودي في القصة، وأخيراً فهل كانت هذه السيدة، وقد جاوزت السبعين من عمرها تملك هذا الجمال، وهذا النور، ولكن ما حيلتنا وكل رواية يهودية تناقض أخرى، وهذه تناقض الثالثة وهكذا[1].

ومما يدل على الإضافات التي أضافها كتبة اليهود إلى القصة الأصلية أنهم زعموا أن الخليل ﷺ قد تكرر منه نفس الأمر مع «أبيمالك» ملك «جرار»، وكأنما أراد هؤلاء الكتبة أن يصفوه بأنه كان يتنقل بامرأته ويتاجر بها من بلد إلى بلد آخر.

جاء في «سفر التكوين» وفي بداية الإصحاح العشرين: «وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب، وسكن بين قادش وشور، وتغرب في جرار، وقال إبراهيم عن سارة امرأته هي أختي، فأرسل أبيمالك ملك جرار، وأخذ سارة، فجاء الله إلى أبيمالك في حلم الليل، وقال له:

ها أنت ميت من أجل المرأة التي أخذتها فإنها متزوجة ببعل، ولكن لم يكن أبيمالك قد اقترب إليها، فقال: يا سيد أأمة بارة تقتل،

---

(١) راجع: د. أحمد يوسف «مصر في القرآن والسُّنة» ص١٧؛ والدكتور محمد بيومي مهران «بنو إسرائيل» ١/ ١٠٢، ١٠٣.

ألم يقل هو لي إنها أختي، وهي أيضاً نفسها قالت هو أخي، بسلامة قلبي ونقاوة يدي فعلت هذا، فقال له الله في الحلم: أنا أيضاً علمت أنك بسلامة قلبك فعلت هذا، وأنا أيضاً أمسكتك عن أن تخطئ إلي، لذلك لم أدعك تمسها، فالآن رد امرأة الرجل فإنه نبي فيصلي لأجلك فتحيا، وإن كنت لست تردها فاعلم أنك موتاً تموت أنت وكل من لك.

فبكَّر أبيمالك في الغد، ودعا جميع عبيده، وتكلم بكل هذا الكلام في مسامعهم، فخاف الرجال جداً، ثم دعا أبيمالك إبراهيم وقال له: ماذا فعلت بنا وبماذا أخطأت إليك حتى جلبت عليَّ وعلى مملكتي خطية عظيمة، أعمالاً لا تعمل عملت بي.

وقال أبيمالك لإبراهيم: ماذا رأيت حتى عملت هذا الشيء؟

فقال إبراهيم: إني قلت ليس في هذا الموضع خوف الله ألبتة، فيقتلونني لأجل امرأتي، وبالحقيقة أيضاً هي أختي ابنة أبي، وغير أنها ليست ابنة أمي، فصارت لي زوجة، وحدث لما أتاهني الله من بيت أبي أني قلت لها: هذا معروفك الذي تصنعين إلي في كل مكان تأتي إليه قولي عني هو أخي.

فأخذ أبيمالك غنماً وبقراً وعبيداً وإماء وأعطاها لإبراهيم، ورد إليه سارة امرأته، وقال أبيمالك: هو ذا أرضي قدامك، اسكن في ما حسن في عينيك، وقال لسارة: إني قد أعطيت أخاك ألفاً من الفضة، ها هو لك غطاء عين من جهة كل ما عندك وعند كل واحد فأنصفت، فصلى إبراهيم إلى الله، فشفى الله أبيمالك وامرأته وجواريه فولدن؛ لأن الرب كان قد أغلق كل رحم لبيت أبيمالك بسبب سارة امرأة إبراهيم»[1].

ولست هنا بحاجة إلى الإتيان بتعليق شرح ومفسِّري العهد القديم على

---

(١) تكوين ٢٠: ١ ـ ١٨.

هذه الحادثة، حيث إننا في غنى عن هذا التهجم الوقح، والإسفاف الشديد في حق خليل الله إبراهيم عليه السلام، والأمر هنا مع «أبيمالك» لا يختلف عنه مع ملك مصر، إلا أن سارة هذه المرة إنما قد تجاوزت التسعين من عمرها.

ويتساءل الدكتور بيومي مهران: لماذا يصر كاتب هذه النصوص في «سفر التكوين» من التوراة، على أن يجعل زوج الخليل ما زالت مطمع ملوك الشرق أينما حلت ـ في مصر أو في فلسطين ـ وهي نفسها قد وصفت في إصحاح قبل هذا الإصحاح من «سفر التكوين» ـ بعد أن بُشرت بإسحاق ـ بأنها قد صكت وجهها وضحكت وقالت: أيحدث هذا مع عجوز عقيم انقطعت عنها عادة النساء، وبعلها شيخ كبير.

وهكذا كان إبراهيم الخليل المجاهد بنفسه وولده وماله، والذي حطم الأصنام، وتحدى الجبابرة الطغاة، وألقي من أجل دعوته في النار، فأنجاه الله في كفاح طويل، وجهاد موصول، كان للناس إماماً، وعلى مدارجه أو من نسله درج الأنبياء.

إبراهيم العظيم هذا لم تصوره التوراة إلا رجلاً لا همَّ له إلا الغنم والبقر والأتن والجمال والإماء والعبيد، متخذاً من الوسائل أحطها، ومن الطرق أحقرها، فحاشا إبراهيم الخليل أن يكون سفيهاً، وحاشا سارة أن تكون بغياً، والعياذ بالله[(١)].

ومما يدل أيضاً على الإضافات والزيادات التي ألحقها كتبة التوراة بالقصة الأصلية أنهم نسبوا نفس الأمر الذي نسبوه إلى الخليل وزوجه سارة إلى ابنه إسحاق وزوجه رفقة حيث جاء في «سفر التكوين» ما يلي:

«وكان في الأرض جوع غير الجوع الأول الذي كان في أيام إبراهيم، فذهب إسحاق إلى أبيمالك ملك الفلسطينيين إلى جرار، وظهر

---

(١) راجع: «دراسات في حضارات الشرق الأدنى القديم» ١/ ١٧٤، ١٧٥.

له الرب وقال: لا تنزل إلى مصر، اسكن في الأرض التي أقول لك. . فأقام إسحاق في جرار.

وسأله أهل المكان عن امرأته فقال: هي أختي؛ لأنه خاف أن يقول امرأتي لعل أهل المكان يقتلونني من أجل رفقة لأنها كانت حسنة المنظر.

وحدث إذ طالت له الأيام هناك أن أبيمالك ملك الفلسطينيين أشرف من الكوة ونظر، وإذا إسحاق يلاعب رفقة امرأته، فدعا أبيمالك إسحاق وقال: إنما هي امرأتك، فكيف قلت هي أختي.

فقال له إسحاق: لأني قلت لعلّي أموت بسببها، فقال أبيمالك: ما هذا الذي صنعت بنا، لولا قليل لاضطجع أحد الشعب مع امرأتك، فجلبت علينا ذنباً، فأوصى أبيمالك جميع الشعب قائلاً: الذي يمس هذا الرجل أو امرأته موتاً يموت(١).

جاء في «السنن القويم»: أن إسحاق في قوله عن زوجته «هي أختي» قد جرى في هذا على سنن أبيه، وكانت علته علة أبيه عينها، ولكن ملك جرار لم يأخذ هنا رفقة، كما أخذ الذي قبله سارة، ولم يعط هذا إسحاق كما أعطى ذاك إبراهيم، وعرف هذا بعد ذلك أن رفقة امرأة إسحاق، وأخيراً طرده من أرضه.

ويذكر الكاتب أن «أبيمالك» هذا اسم لكل ملك من ملوك فلسطين، وكان قد مضى ثمانون سنة على تغرب إبراهيم في جرار، ومن أجل ذلك يرجح كل الترجيح أن أبيمالك إسحاق غير أبيمالك إبراهيم، وينتهي الكاتب إلى أن ما ورد في آخر هذه النصوص بشأن تصرفات أبيمالك يدل دلالة قاطعة على حسن أخلاق أبيمالك وعظيم مروءته، وبيان أن علة كذب إسحاق كانت كعلة كذب إبراهيم أبيه(٢).

---

(١) تكوين ٢٦: ١ ـ ١١.

(٢) راجع ١/ ١٧٩.

موقف العلماء من رواية التوراة ومدى ذكرهم لرواية الحديث:

الاتجاه الأول:

من العلماء من **قام بنقد رواية التوراة نقداً شاملاً، حيث قام بنسف الحدث التاريخي نسفاً تاماً، دون أدنى إشارة إلى الأحاديث الصحيحة في هذا الشأن**، ومن هؤلاء الشيخ الفقيه علاء الدين الباجي (٧١٤هـ) **حيث يقول**: كيف يحسن أن يقال: «وهبط أبرام إلى أرض مصر، ليسكن هناك من أجل أن الجوع كان قد اشتد على الأرض، فلما قرب من الدخول إلى أرض مصر، قال لساراي: إني قد علمت أنك امرأة حسناء فإذا رآك أهل مصر، فإنهم سيقولون: هذه امرأته فيقتلونني ويستحيونك، ولكن قولي: إني أخته، حتى يحسنوا إلي وتحيا نفسي من أجلك».

فإن هذا لا يحسن من مثله، لوجوه ثمانية:

أما أولاً: فلأن خوفه من قتله بهذا السبب: غلبة وهم، تنشأ عن ضعف عقل، لا يرتضي أقل الناس أنه يقر به على نفسه بلسانه، لا سيما إذا كان راضياً بتركها لهم، فإنه لا يبقى لخوفه وجه أصلاً.

وأما ثانياً: فلأن قوله: «ويستحيونك» يوهم أنه حسدها على حياة الدنيا بعده، وهذا لا يليق بمثله.

وأما ثالثاً: فلأن قوله: قولي: «إني أخته» تعليم منه لها أن تكذب، وهو قبيح منه.

وأما رابعاً: فلأن جعلها أخته يسهل منهم أخذها منه، بدليل ما سيأتي أن فرعون لما علم بأنها امرأته عتقه فردها، وذلك خطأ منه.

وأما خامساً: فلأنه استسلم حريمه، قبل وقوع محذور في حقه، أو تخويف بمحذور، والوصول إلى معانيه أمارات التخويف، وذلك خور في الطبيعة لا يليق بمثله.

وأما سادساً: فلأنه كان الواجب في حقه أن يدافع دون زوجته بما يمكنه، وأن خوف القتل إلى أن يقتل ويختار القتل على التمكين منها.

أما اختياره للتمكين منها على القتل، فلا وجه له؛ لأن القتال دون الأبضاع واجب عقلاً وشرعاً، والقتال دون المال جائز يجوز تركه، فحط الواجب إلى درجة الجائز خطأ، لا سيما من مثله.

وأما سابعاً: فإنه قال: «قد علمت أنك امرأة حسناء» بلفظ الماضي، مع «أن» «قد» توهم تجدد ذلك بعد عدمه، وإن كان جاهلاً بذلك ثم علمه، وهو في غاية البعد.

وأما ثامناً: فإنه لم يجعل العلة في جعلها أخته: أن يحيي نفسه فقط، حتى يكون الخوف من القتل عذراً له في ذلك على ضعفه، بل قال: «حتى يحسنوا إليّ»، به، وقدمه على إحياء نفسه، وذلك لا يجوز أصلاً ولا شرعاً ولا عقلاً، فأين هذا من رتبة تكليم الله ـ سبحانه ـ إياه في قوله: «واستعلن الرب لأبرام»، وقال: إني معطي هذه الأرض لزرعك (تك ١٢ : ٧)، فأين هذا النزول الدنيوي من ذلك الصعود الإلٰهي؟[١].

كذلك فإنه عقب على الرواية الأخرى التي ذكرها كتبة التوراة بشأن ملك جرار «أبيمالك» وزوجه سارة، فذكر أنه كيف يحسن أن يقال عن الخليل: «وقال إبراهيم عن سارة امرأته: إنها أختي»، لأنه خاف أن يقولوا إنها امرأته، لئلا يقتله رجال المدينة من أجلها؟ لأنه كذب، وإبراهيم نبي، كما ذكره عقيبه، والأنبياء معصومون عن الكذب.

وأيضاً: فهو كذب يسهل أخذها على ظالم، ويزني بها لمجرد خوف وهمي لا مستند له، فإنه إذا كان هكذا يعطيها لمن يأخذها من غير

---

(١) راجع على التوارة كتاب: «في نقد التوراة اليونانية» ص٦٤، ٦٥، نشر دار الأنصار، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

مقابلة لم يقتله أحد، وأيضاً فقوله عقيبه: «فجاء الله إلى أبيمالك في الحلم بالليل وقال له: هو ذا أنت تموت من المرأة التي أخذتها لأنها ذات بعل (تك ٢٠ : ٣) كلام لا يحسن، فإن الله لا يجيء في النوم، بل يريه في الحلم، كما يرى سائر الناس المنامات»، وفي نسخة: «أتى الله».

وأيضاً فقوله: «وهي بالحقيقة أختي من أبي، ليست من أمي، صارت لي امرأة، (تك ٢٠: ١٢) كلام عجيب، فإنها ليست بنت تارح أبي إبراهيم، فإن أراد أنها بنت آدم، فهي أيضاً بنت حواء، وتكون أخته من أمه أيضاً»[1].

أما الشيخ رحمة الله الهندي فإنه في بداية قيامه بدفع المطاعن عن نبينا سيدنا محمد ﷺ ضد المنصِّرين قال: «وإني وإن كنت أستكره أن أنقل ذنوب الأنبياء والكفريات المفتريات عن كتبهم ولو إلزاماً، ولا أعتقد في حضرات الأنبياء اتصافهم بهذه الذنوب والكفريات، وحاشا وكلا!

لكن لما رأيت أن علماء البروتستانت أطالوا ألسنتهم إطالة فاحشة في حق محمد ﷺ في الأمور الخفية، وجعلوا الخردلة جبلاً لتغليط العوام غير الواقفين على كتبهم، وكان مظنة وقوع السذج في الاشتباه بتمويهاتهم الباطلة، نقلت بعضها إلزاماً، وأتبرأ عن اعتقادها بألف لسان، وليس نقلها إلا كنقل كلمات الكفر، ونقل الكفر ليس بكفر، وقدمت نقلها إلى نقل مطاعنهم في حق محمد ﷺ والجواب عنها».

ومن هذا القبيل، وفي هذا الإطار تحدث الشيخ رحمة الله عن قصة الخليل وزوجه سارة في «سفر التكوين» وقوله لها: «قولي إنك أختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك».

فسبب الكذب ما كان مجرد الخوف، بل رجاء حصول الخير أيضاً، بل الأخير كان أقوى، ولذلك قدمه، وقال: «ليكون لي خير

---

(١) راجع على التوراة ص٧٤، ٧٥.

بسببك وتحيا نفسي من أجلك»، وحصل له الخير أيضاً كما هو مصرَّح به في النص الذي بعده (تكوين ١٢: ١٦)، على أن خوفه من القتل مجرد وهم لا سيما إذا كان راضياً بتركها فإنه لا وجه لخوفه بعد ذلك أصلاً، وكيف يجوِّز العقل أن يرضى إبراهيم بترك حريمه وتسليمها ولا يدافع دونها، ولا يرضى بمثله من كان له غيرة ما، فكيف يرضى مثل إبراهيم الغيور؟

أما الرواية الأخرى والخاصة بملك جرار «أبيمالك» فإن الشيخ رحمة الله قد علق عليها بقوله:

«كذب هناك إبراهيم وسارة مرة ثانية، ولعل السبب القوي هذا ـ ما عدا الخوف أيضاً ـ كان حصول المنفعة، وقد حصلت كما هي مصرحة بها في النص (تكوين ٢٠: ١٤)، على أنه لا وجه للخوف إذا كان راضياً بتسليمها بدون المقاتلة، وينقل عن القسيس وليم إسمنت من علماء البروتستانت من كتابه «طريق الأولياء» ص٩٩ قوله: «لعل إبراهيم لما أنكر كون سارة زوجة له في المرة الأولى عزم في قلبه أنه لا يصدر عنه مثل هذا الذنب، لكنه وقع في شبكة الشيطان السابقة مرة أخرى بسبب الغفلة»[١].

كذلك فإن الدكتور علي عبد الواحد وافي قام بنقد ما ورد في توراة اليهود وبيّن بطلانه، دون أن يشير من قريب أو من بعيد إلى ما ورد في الأحاديث النبوية حيث يذكر أن أسفار اليهود تنسب لبعض الأنبياء، أو لبعض من تسميهم آباء لبني إسرائيل أو ملوكاً لدولهم، أعمالاً قبيحة تتنافى مع وضعهم الديني والاجتماعي، بل تتعارض مع الخُلُق الكريم في ذاته، ولا يتصور صدورها إلا من سفلة الناس.

فمن ذلك ما تقصُّه توراتهم المزعومة عن إبراهيم حينما هاجر هو وزوجه سارة إلى مصر على أثر ما أصاب بلاده من جدب ومجاعة؟

---

(١) راجع: «إظهار الحق» ٤/١٢١٧، ١٢١٨، دراسة وتحقيق وتعليق د. محمد أحمد خليل ملكاوي، طبع ونشر الرياض بالسعودية ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.

إذ تذكر أن إبراهيم قال لزوجته وهما في طريقهما إلى مصر أنها امرأة جميلة، وإن المصريين لا بد أن يفتتنوا بها، وإذا علموا أنها متزوجة فسيقتلون زوجها لتخلص لهم بعد ذلك، واتفق معها على أن يتظاهرا بأنها أخته حتى تسلم له حياته، بل يناله حينئذ من المصريين خير كثير.

ولما وصلا إلى مصر، ووقع نظر طائفة من كبار رجال الحاشية الملكية على هذه المرأة الجميلة، وعلموا من إبراهيم أنها ليست متزوجة، وأنها أخته، وأنهوا أوصافها إلى فرعون، استدعاها إلى قصره واتخذها من نسائه، وبالغ في إكرام إبراهيم والحفاوة به والإحسان إليه من أجل ذلك، ووهب له قطعاناً «من الغنم والثيران والحمير»، وعدداً من العبيد والإماء، ولكن أصيب الملك وحاشيته عقب ذلك بوباء مما تصاب به الجماعة عادة إذا ارتكبت فيهم فاحشة من هذا القبيل.

فاستدعى الملك إبرهيم وأنَّبه تأنيباً شديداً، لكذبه في قرابة سارة منه، وما ترتب على كذبه هذا من معاملته لها كإحدى نسائه مع أنها في عصمة رجل آخر، وما أصابه هو وقومه من جرّاء ذلك من وباء، ثم أصدر أوامره بطرده هو وامرأته من بلاده، ولكن تحقق لإبراهيم ما كان يبغيه من عافية ومال: فقد سلمت له حياته، وسمح له فرعون بأن يحمل معه جميع ما سبق أن وهبه له من أنعام وعبيد وإماء.

ويذكر الدكتور علي عبد الواحد أنه «قد كرر إبراهيم فعلته هذه ـ حسب ما يزعمه «سفر التكوين» ـ حينما هاجر إلى منطقة جرار، وكاد «أبو مالك» حاكم جيرار يرتكب الإثم مع سارة، لولا أن أظهره الله في المنام على حقيقتها، وأنها امرأة إبراهيم لا أخته، فأحضره وعاتبه على كذبه، ونفحه كذلك بهبة من النعاج والثيران والعبيد والإماء، فكأنما كان إبراهيم يتاجر بامرأته هذه متنقلاً بها من بلاد إلى بلاد[1]».

---

(١) راجع: «الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام» ص٤٩، ٥٠، دار نهضة مصر للطبع والنشر بالقاهرة ١٩٨٤م.

الاتجاه الثاني:

أما الدكتور أحمد عبد الحميد يوسف فإنه **قبل رواية التوراة والمشنا وقام بتفسيرها والتعليق عليها في ضوء الكشوفات الأثرية، والدراسات التاريخية**، بل إنه ربط بينها وبين ما ورد في الأحاديث النبوية الشريفة، حيث يذكر أنه «ظاهر من رواية التوراة والمشنا وما أيدهما من حديث رسول الله ﷺ عن أبي هريرة، أن إبراهيم إنما دخل مصر جهرة ولم يدخلها تسللاً، وأنه لم يدخل في عهد من عهود الفوضى والاضطراب والحروب الداخلية التي سبقت الأسرة الثانية عشرة، أو لحقت بها أيام الهكسوس، بل أقبل - وهو يعلم - على دولة مستقرة منظمة، سوف يسأل عند الحدود فيها عن هويته وهوية من معه من رجال ونساء، فكان منه ما كان من حديثه إلى امرأته سارة فيما اتصلت روايته في الإصحاح الثاني عشر من «سفر التكوين»، وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته: إني علمت أنك امرأة حسنة المنظر، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلونني ويستبقونك، قولي: إنك أختي ليكون لي خير بسببك، وتحيا نفسي من أجلك».

ويرى الدكتور أحمد يوسف أن إبراهيم عليه السلام لم تكن به من حاجة إلى الخوف على حياته من أهل مصر ولا من ملكها على امرأته أن تغصب منه، ويقتل من أجلها، ولعل الذي راود صدره من خوف لم يجاوز الوهم كما ساور يعقوب الوهم من حسد بنيه الأحد عشر إن دخلوا من باب واحد ولم يدخلوا من أبواب متفرقة، ولعل إبراهيم عليه السلام إنما صدر فيما صدر عن استشعار مما عهد من غصب النساء والاحتيال على اقتناصهن من أزواجهن في بلاده التي أقبل منها، بل من بوائق أسوأ سوءاً، وأعظم نكراً بل بعضها في سدوم ابن أخيه لوط من قومه، فحقت عليهم كلمة العذاب، وأخبر الله بها إبراهيم.

يوائق بلغ من شيوعها أن تواترت إلى كاتب التوراة لاحقة بالأنبياء والمرسلين، وهوَّنت عليه نسبة الزنى والغصب إليهم. . . .

على أن ملك مصر ـ على كل حال ـ ما إن عرف مكان سارة من إبراهيم حتى تذمم ـ بحكم ما كان يسود مجتمعه من مكارم الأخلاق ـ مما أوشك أن يقع فيه من اتخاذ زوجة غيره زوجة له، واستنكر ما ألقى إليه إبراهيم، أو نقل عنه من خبر مكذوب، وما كان من زعمه أنها أخته، فتقول التوراة: فحدث لما دخل أبرام إلى مصر أن المصريين. . . . (تكوين ١٢ : ١٤ ـ ١٧).

وينتهي الدكتور أحمد يوسف إلى أن حديث الرسول ﷺ عن أبي هريرة قد وافق خبر الخليل في التوراة، ثم أورد نص الحديث وأشار إلى أن مفسري الإسلام قد حرصوا على نفي الكذب عن أنبياء الله وتنزيههم عن الوقوع فيه، وقالوا: إن الكذب حرام إلا إذا عرض، ومن أمثلة العرب قولهم: إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب.

ونقل بعض أقوال المفسرين في قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ ثم يقول:

وبعد، فما بال إبراهيم في الثالثة يزعم للمصريين أن سارة أخته، وما بال المفسرين عن هذه يسكتون؟! أتراه اضطر هذه المرة إلى الكذب والمين فلا منتدح، ولا محيص إلى التعريض؟!

ومن العجيب أن الرأي الذي أشار إليه الحافظ ابن حجر من أن الزوجة كانت تطلق على الأخت حيث يتزوج الأخ من أخته، تحدث عنه الدكتور أحمد عبد الحميد يوسف إذ يقول: لعل دراسة الحضارة المصرية ولغتها أن تقدم إلينا في قصة إبراهيم عليه السلام سبيلاً إلى إعفائه مما قيل إنه وقع فيه، وأن تسهم مع المفسرين فيما أرادوا لإبراهيم من تنزيه عن الكذب الذي قيل إنه اضطر إليه، فمال عنه إلى التعريض.

فغير بعيد أن كان إبراهيم عليه السلام يعرف اللغة المصرية القديمة، ويعبر بلسانها، أو أنه على الأقل، بل لا أكاد أشك أنه قد كان يعرف منها بحكم انتشارها في بلاده طائفة من عبارات وألفاظ تعينه على شؤونه في مصر حين أقبل عليها.

لذلك فلم يكذب إبراهيم، ولم يخرج على مألوف المصريين فيما كانوا به يتحدثون، فلقد كانوا يطلقون على الزوجة في لغتهم، فضلاً عن لفظ المرأة «حمة» و«سة حمة» أو هيمة وسهيمة في اللهجة القبطية «لفظ الأخت» «سونة»، وكان ذلك نوعاً من التعبير عن المحبة والاعتزاز.

وينتهي الدكتور أحمد يوسف إلى أننا ما ندري لعل إبراهيم حين أقبل على مصر فلقي الناس من آل فرعون وملإه قد آثر التورية والتعريض، فوصف زوجته سارة، وتحدث عنها على مألوفهم بأنها «سونة» بمعنى الزوجة، ومعنى الأخت جميعاً، حيث أوقع في روع المصريين بلكنته الأجنبية، وما عسى أن رأوا من معاملته لسارة أنه إنما قصد إلى المعنى الأصيل للفظ «الأخت» لا إلى المعنى المجازي له[1].

وكل ما قام به الدكتور أحمد يوسف من نقد لرواية التوراة أنه قام بتصحيح ما ذكره كاتب التوراة بشأن الجمال (الإبل) التي نالها الخليل من ملك مصر:

ذلك أن كاتب التوراة في معرض التعبير عما لقي إبراهيم من كرم فرعون، إنما كان يعدد على أسلوبه وبيئته ما عسى أن يتلقى ـ في مفهومه ـ من ملك مصر، فذكر الغنم والبقر والحمير والعبيد والإماء والأتن، ثم أضاف إليها الجمال، رغم أن الإبل ظلت غريبة لا يعرفها المصريون يومئذ على التحقيق، بل لقد كانت غريبة على من أقبل على مصر يومئذ

(١) راجع: «مصر في القرآن والسُّنة» ص٢٠، ٢١.

من قبائل البدو الساميين، فلقد أقبلت قبيلة «أبيشاي» أو قافلته تسوق الحمر لا الجمال، كما لم ترد فيما نقش على صخور سيناء من ذلك العهد صور للجمال[1].

بل إن الدكتور حسن ظاظا يذكر أن استعمال الجمال في هذه المنطقة لم يعرف إلا في أخريات الألف الثالث ق.م، وربما بعد ذلك[2].

أما الدكتور محمد بيومي مهران فإنه أعلن أولاً تكذيبه لرواية التوراة، وتأففه من مجرد روايتها، ثم قام بنقدها لكنه أثناء نقدها أشار إلى رواية البخاري الصحيحة في هذا الشأن:

حيث يذكر أن من يقرأ ما كتب في توراة اليهود عن الهداة المرشدين، الذين اصطفاهم الله من خلقه، وأرسلهم للناس مبشرين ومنذرين، ويهدون بأمر الله إلى الخيرات، وإلى صراط مستقيم.

من يقرأ ما كتب عن أعلام الهداية والإرشاد هؤلاء في توراة اليهود الحالية ليصاب بالغثيان، وإلا فكيف يتصور عاقل ما ترويه التوراة من أن إبراهيم الخليل ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قد هاجر بزوجه «سارة» إلى مصر، ويطلب فيها الشبع والري من بلاد كنعان التي ضربها القحط والجفاف، وعندما أشرف على التخوم المصرية فإنه اتفق مع سارة على أن تقول: إنها أخته، وليست زوجته، وذلك لأن المصريين إن علموا أنها زوجه قتلوه، وأما إن كانت أخته فمن أجلها أكرموه. . . .

وبعد أن يسرد الدكتور مهران وقائع الأحداث يعلق عليها بقوله:

---

(١) راجع: «مصر في القرآن والسُّنة» ص١٨.

(٢) راجع: «الساميون ولغاتهم» ص١٤، ١٥ بدمشق، دار القلم.

«ويعلم الله ـ وتشهد ملائكته ـ أن نفسي تتأفف من مجرد التعليق على هذه الفرية الدنيئة التي يلصقها كاتب التوراة بأبي الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فتلك فعلة لا يقبلها على نفسه أحط الناس خلقاً، فضلاً عن أن يكون ذلك نبي الله وخليله العظيم، ومع ذلك فإني مضطر إلى مناقشتها، والمضطر قد يركب الصعب من الأمور، ثم أخذ يعرض إلى نقاط رأى أنها أهم ما يوجه إلى هذه الرواية الكذوب ـ هكذا يقول ـ من نقد[١].

والذي يقرأ ذلك يوقن من أول وهلة أن الدكتور مهران ينكر القصة من أساسها، ويجتثها من جذورها، لكنه بعد أن يطلع على بعض هذه النقاط يجد أنه يشير إلى الأحاديث النبوية الصحيحة في هذا الشأن، وأنه مصدق لما ورد فيها[٢]، مما يعني أن كلامه قد بدا فيه نوع من التناقض، مما اضطره في نهاية الأمر أن يقول بعد أن أشار إلى مكانة الخليل عليه السلام في الأديان الثلاثة: اليهودية، المسيحية، الإسلام: «هذا هو رأي أصحاب الأديان الثلاثة. . . . في إبراهيم الخليل ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فهل هذا يتفق وما جاء في التوراة، بشأن زوج إبراهيم سارة مع فرعون مصر، وملك جرار؟

وهل تتفق هذه المكانة السامية للخليل عليه السلام، وما أبداه بعض شراح التوراة من تهجم على أبي الأنبياء؟ أو أن ما جاء في التوراة لا يعدو أن يكون مجرد أسطورة من الأساطير التي ملئت بها توراة اليهود الحالية، أم للقصة أساس، ولكن أيد أثيمة من يهود امتدت إليها فحرفت وبدلت، وأضافت وحذفت»[٣].

---

(١) راجع: «دراسات وتاريخ الشرق الأدنى القديم» إسرائيل ١/ ١٦٧ وما بعدها.

(٢) راجع: المصدر السابق ص١٧٧ ـ ١٨٢.

(٣) راجع: المصدر السابق.

الاتجاه الثالث:

يمثل هذا الاتجاه الإمام ابن حزم الذي **قام بنقد بعض جوانب قصة التوراة، لكنه مصدق لما ورد بشأنها في الأحاديث النبوية**؛ حيث قام بالتعليق عليها، فيذكر أنه في موضعين من توراتهم المبدلة: «أن سارة امرأة إبراهيم عليه السلام أخذها فرعون ملك مصر، وأخذها ملك الخلص أبو مالك مرة ثانية، وأن الله تعالى أرى الملكين في منامهما ما أوجب ردها إلى إبراهيم عليه السلام. . وذكر أن سن إبراهيم عليه السلام إذ انحدر من «حران» خمسة وسبعون عاماً»، وأن إسحاق ولد له وهو ابن مائة سنة، ولسارة إذ ولد تسعون عاماً، فصح أنه كان يزيد عليها عشر سنين.

وذكر أن ملك الخلص أخذها بعد أن ولدت إسحاق وهي عجوز مسنة بإقرارها بلسانها إذ بشرت بإسحاق، فكيف بعد أن ولدته وقد تجاوزت تسعين عاماً.

ومن المحال أن تكون في هذا السن تفتن ملكاً، وأن إبراهيم قال في كلتا المرتين: هي أختي، وذكر عن إبراهيم أنه قال للملك: هي أختي بنت أبي، لكن ليست من أمي، فصارت لي زوجة، فنسبوا في نص توراتهم إلى إبراهيم عليه السلام أنه تزوج أخته.

ويذكر الإمام ابن حزم أنه قد وقف على هذا الكلام من بعض من شاهده منهم، وهو إسماعيل بن يوسف الكاتب المعروف بابن النغرالي، فقال له:

إن نص اللفظة في التوراة «أخت»، وهي لفظة تقع في العبرانية على الأخت وعلى القريبة، فرد عليه ابن حزم بقوله: «يمنع من صرف هذه اللفظة إلى القريبة هاهنا قوله: «لكن ليست من أمي، وإنما بنت أبي»، فوجب أنه أراد الأخت بنت الأب، وأقل ما في هذا، إثبات النسخ الذي تفرون منه، فخلط ولم يأت بشيء»[1].

---

(١) راجع: «الفصل في الملل والأهواء والنحل» ١/ ٢٢٥، الطبعة المحققة، دار الجيل، بيروت.

معنى ذلك: أن ابن حزم لا يأخذ على التوراة من هذا النص إلا أنها صرَّحت بأن الخليل قد تزوج أخته، وأن سارة كانت قد جاوزت التسعين عاماً، فكيف تكون مصدر فتنة للملوك.

ومن أجل ذلك نراه في موضع آخر من كتابه «الفصل» وفي معرض دفاعه عن الخليل عليه السلام، ورده على الطاعنين في عصمته يذكر أنهم قد احتجوا بحديث: «**الكذبات الثلاث**»، وقد رد عليهم بأن كل ما روي عن إبراهيم عليه السلام في تلك الكذبات فهو داخل في الصفة المحمودة، لا في الكذب الذي نهي عنه.

وأما قوله عن سارة هي أختي فصدق، هي أخته من وجهين:

الأول: قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، وقال عليه الصلاة والسلام: «**لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه**».

والوجه الثاني: القرابة وأنها من قومه ومن مستجيبيه، قال عز وجل: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾.

وينتهي إلى أن من عدّ هذا كذباً مذموماً من إبراهيم عليه السلام فليعده كذلك من ربه عز وجل[1].

الاتجاه الرابع:

ومن العلماء من **قام بإنكار الحديث، وتكذيب رواته، ولم يقبل أن ينسب الكذب إلى الخليل إبراهيم** عليه السلام، فعندهم تكذيب الرواة أولى من تكذيب الأنبياء.

ومن هؤلاء الفخر الرازي قديماً، والشيخ عبد الوهاب النجار حديثاً، وقد سبق أن تكلمنا عن موقف الرازي في القولين السابقين: الأول: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، والثاني: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾، وكيف تابعه في موقفه الشيخ عبد الوهاب النجار.

---

(١) راجع: «الفصل» ٤/ ١٥، ١٦.

أما فيما يتعلق بالقول الثالث وهو قول الخليل عن زوجه سارة «هي أختي»، فقد ذكر الإمام الرازي أن المراد بذلك أنها أخته في الدين، وإذا أمكن حمل الكلام على ظاهره من غير نسبة الكذب إلى الأنبياء ﷺ، فحينئذ لا يحكم بنسبة الكذب إليهم إلا زنديق[1].

ويقول في موضع آخر: «اعلم أن بعض الحشوية روى عن النبي ﷺ أنه قال: **«ما كذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات»**، فقلت: الأَوْلى أن لا نقبل مثل هذه الأخبار، فقال على طريق الاستنكار، إن لم نقبله لزمنا تكذيب الرواة، فقلت له: يا مسكين إن قبلناه لزمنا الحكم بتكذيب إبراهيم عليه السلام، وإن رددناه لزمنا الحكم بتكذيب الرواة، ولا شك أن صون إبراهيم عليه السلام عن الكذب أولى من صون طائفة من المجاهيل عن الكذب»[2].

وبناء على ذلك، فإنه قد فسَّر قوله تعالى على لسان الخليل عليه السلام: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢)﴾، حيث بيّن أن الخليل قد أسند إلى نفسه الخطيئة مع أن الأنبياء منزهون عن الخطايا قطعاً؟ وأجاب عن ذلك **بثلاثة وجوه**:

(أحدها): أنه محمول على كذب إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله لسارة: «إنها أختي»، ورأى أن هذا الوجه ضعيف لأن نسبة الكذب إليه غير جائزة.

(وثانيها): أنه ذكره على سبيل التواضع وهضم النفس، وهذا أيضاً ضعيف لأنه إن كان صادقاً في هذا التواضع فقد لزم الإشكال، وإن كان كاذباً فحينئذ يرجع حاصل الجواب إلى إلحاق المعصية به لأجل تنزيهه عن المعصية.

---

(١) راجع: «التفسير الكبير» ٢٢/١٨٦.

(٢) راجع: «مفاتيح الغيب» ١٨/١١٩.

(وثالثها): وهو الجواب الصحيح أن يحمل ذلك على ترك الأولى، وقد يسمى ذلك خطأ، فإن من ملك جوهرة، وأمكنه أن يبيعها بألف دينار، فإن باعها بدينار، قيل: إنه خطأ، وترك الأولى على الأنبياء جائز[1].

أما فيما يتعلق بالشيخ عبد الوهاب النجار فإنه في بداية الأمر وفي معرض حديثه عن سيدنا إبراهيم الخليل ﷺ ضمن كتابه **«قصص الأنبيَاء»**، أشار إلى قصة هجرة الخليل إلى مصر وقوله عن زوجه سارة: إنها أختي ناقلاً عن سفر التكوين، ثم بعد ذلك أبدى تشككه فيما ورد في هذا السفر، وقال: إن كان صحيحاً فإن معناه أنها أخته حقيقة من أبيه كما ورد في نفس السفر، لكنه بعد ذلك أعلن استبعاد حصول ما وقع من ملك مصر وملك جرار مع سارة زوج الخليل.

وحينما قام بالرد عليه لجنة مكونة من كبار العلماء أخذ يرد عليهم ويعلن متابعته للإمام الرازي فيما ذهب إليه، بشأن الأحاديث الصحيحة الواردة في هذا المضمار.

وليسمح لي القارئ بأن ألخص له موقف الشيخ النجار قبل وبعد مناقشة العلماء له وردهم عليه، حيث قال في صفحة ٦٣: «رحلته إلى مصر»:

حدث جدب في الأرض فانتقل إبراهيم إلى مصر وذلك في عهد ملوك الرعاة وهم العماليق ويسميهم الرومان «هكسوس»، فأظهر أن التي معه أخته وأراد الملك أخذها زوجة له، فأري في منامه أنها ذات بعل فعاتب إبراهيم وأعطاه أموالاً وماشية وجواري وعبيداً، وعاد إبراهيم كما بدأ، وكان لوط مع إبراهيم. . . إلخ. ثم قال: يراجع الإصحاحات ١٢، ١٣ تكوين.

وقال في صفحة ٧٥؛ (أي: من الطبعة الأولى) ما نصه: «مسألتان»:

---

(١) راجع: المصدر السابق ٢٤/١٤٦.

الأولى: إن كان صحيحاً ما جاء في عبارة التوراة من أن إبراهيم اتفق مع سارة على أن يقول إنها أختي وتقول هي إنه أخي وكانا أخوين حقيقة يكون ذلك قبل تشريع تحريم الأخت على أخيها، وهذا هو الذي أميل إليه وحينئذ لا حاجة إلى قول: «أنها أخته في الدين» لأن أولئك المتأولين ما دعاهم إلى التأويل إلا اعتقادهم أن الشريعة التي كان عليها إبراهيم كانت كشريعة موسى ﷺ من تحريم الأقارب ديناً كالأخت والعمة».

ثم أيّد ذلك، بأن موسى بن عمران بن قاهت بن لاوي بن يعقوب إسرائيل الله كان متزوجاً عمته كما في الإصحاح ٢٦ من سفر العدد.

وقال في صفحة ٤٩١ ما نصه: «تنبيهات» إلى أن قال:

«**الثاني**: قدمنا ما ذكرته التوراة من أن إبراهيم حين تغرب في مصر قال عن سارة: إنها أخته، فأخذها الملك وقبل أن يقربها ضويق في منامه بسببها، وأنه عاتب إبراهيم لأنه قال: إنها أختي، ولم يقل: هي زوجتي، وفَعَلا مثل ذلك مع أبي مالك «ملك جرار» واشتد في إبراهيم».

وقد تأملت في المسألتين فوجدتهما بعيدتي الحصول؛ لأن سارة ذهبت إلى مصر مع إبراهيم وسنها نحو سبعين سنة، ومن كانت في مثل تلك السن لا يطمع فيها طامع، وعندما كانا في جرار كانت سنها تسعين سنة، وقبل ذلك بسنة قد قالت عن نفسها ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾، وقالت: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ وبعيد في مجرى العادة أن يطمع ملك مترف في بنت تسعين.

وقد قام بالرد عليه لجنة من العلماء أشاروا إلى ما قاله، ونصُّوا عليه ثم قالوا: هذا ما ذكره في هذه القصة ـ وقد اعتمد في بيانها على التوراة، أو استبعد حصولها من أجل أن سارة كانت سنها إذ ذاك نحو سبعين سنة ومثلها لا يطمع فيها طامع، وقرر أنه يميل ـ على فرض صحة هذه القصة ـ إلى أن قول إبراهيم: «أنها أختي» محمول على الحقيقة

فإنهما كانا أخوين حقيقة وكان زواج الأخت جائزاً إذَّاك، فلا داعي إلى التأويل بأنها أخته في الإسلام ـ.

وإنا نلاحظ عليه اعتماده في هذه القصة على التوراة مع أنها ذكرت ووردت في الأحاديث الصحيحة بسياق مخالف لسياق التوراة، وهذه الأحاديث تثبت وقوعها وتدل على خطأ ما رواه ومال إليه أن سارة كانت أخت إبراهيم حقيقة.

وقبل أن نورد تلك الأحاديث ونبيّن من خرّجها من أئمة الحديث ـ رأينا أن نبدي ما لحقنا من الدهشة لعدم الإشارة لتلك الأحاديث المتعلقة بهذه القصة في مثل هذا الكتاب الذي يدرَّس لعلماء التخصص في فرق الوعظ والإرشاد ـ ولذلك أخذنا نتلمس الحكمة في تركه الإشارة لتلك الأحاديث ونطلب المعاذير، فاجتمع لدينا احتمالات أربعة نذكرها ونبدي رأينا في كل احتمال منها:

الأول: أنه لم يقف على تلك الأحاديث التي وردت في هذه القصة. ونرى أنه احتمال بعيد، إذ يستبعد جداً من أستاذ فاضل متخصِّص في التاريخ نصب نفسه لتأليف كتاب في قصص الأنبياء ليدرس للعلماء المتخصِّصين في الوعظ والإرشاد ألا يقف على تلك الأحاديث خصوصاً وأنه جعل صحيح البخاري من الكتب التي رجع إليها وقت التأليف وهي مذكورة فيه، وأيضاً فإن كتب التاريخ المشهورة؛ كـ«تاريخ ابن الأثير» و«البداية والنهاية» للحافظ ابن كثير ذكرت هذه القصة على نحو ما وردت به الأحاديث، بل صرح ابن كثير بالنقل عن البخاري. وأيضاً قد استدل المؤلف نفسه بحديث الشفاعة في قصة نوح.

الثاني: أنه وقف على تلك الأحاديث ورأى فيها مطعناً أخرجها عن دائرة الاحتجاج بها في الحوادث التاريخية وهو بعيد أيضاً؛ لأنه لو كان كذلك لذكرها ونبّه على ضعفها، وكان ذلك خيراً من اعتماده على

التوراة المعلوم أمرها من حيث القَبول والرد، وأفيد من الوجهة العلمية.

الثالث: أنه وقف على تلك الأحاديث ولم يعلم فيها مطعناً، ولكنه يرى أن الأحاديث وإن صحت لا تصح مصدراً للحوادث التاريخية، وهذا الاحتمال لا يتصور أن يصدر من مثل فضيلة الأستاذ، بل لا يصح أن يصدر من مسلم.

الرابع: أنه يعلم تلك الأحاديث ويعلم أنه لا مطعن فيها ويعتقد أن الأحاديث الصحيحة أهم مصدر بعد كتاب الله للحوادث التاريخية، إلا أنه حين تدوينه لهذه القصة سها عن تلك الأحاديث، وهذا الاحتمال هو الذي نميل إليه، والله أعلم بحقيقة الحال.

وبعد أن أوردوا الأحاديث الصحيحة وقاموا بتخريجها ذكروا أن هذا ما وقفنا عليه من الأحاديث الصحيحة المثبتة للقصة والدالة بصريح العبارة على أن سارة لم تكن أخت إبراهيم حقيقة. وهي كما ترى تكاد تكون القدر المشترك المثبت لأصل القصة، والدال على أن سارة لم تكن أخت إبراهيم عليه السلام حقيقة يكون متواتراً، فلسنا في حاجة إلى أن ندّعي كما ادّعى ابن الصلاح من أن ما اتفق عليه البخاري ومسلم قطعي الثبوت لتلقي الأمة لكتابيهما بالقَبول خصوصاً وأن الأكثرين لم يوافقوه على دعوى القطعية، والمحققون منهم فصَّلوا تفصيلاً حسناً يعلم من محله ولا حاجة لنا في بيانه.

بل نحن تنزلنا إلى أبعد حد ممكن فراجعنا الأحاديث التي انتقدت على البخاري من قبل بعض الحفاظ؛ كحافظ عصره الدارقطني على الرغم من الإجابة عن معظمها، فلم نجد هذه الأحاديث التي ذكرناها لإثبات هذه القصة من ضمن الأحاديث المنتقَدة فلم يبق شك في صحتها ولا مجال للطعن فيها. ولا يقال: إن في هذه الأحاديث نسبة الكذب إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام وقد قرر علماء التوحيد أن ما ورد وفيه

نسبة المعصية إلى نبي من الأنبياء فإن كان مقطوعاً به وجب تأويله، وإن كان منقولاً بآحاد وجب رده، وقال الإمام الرازي في «تفسيره» في شأن الحديثين اللذين ذكرناهما ما نصه: «فلأن يضاف الكذب إلى الرواة أولى من أن يضاف إلى الأنبياء».

لأنا نقول هذا من قبيل المعاريض وهو نوع من البديع. وإبراهيم عليه السلام قد صرح بذلك إذ قال: «فإنك أختي في الإسلام»، وحينئذ فليس فيه نسبة الكذب حقيقة إليه. وأما كلام الإمام الرازي فمردود، وقد رد عليه العلماء وخطَّؤوه وأثبتوا صحة الأحاديث، وهو نفسه قال: فإن صح فهو محمول على المعاريض.

ومن راجع ما سبق لنا من بيان من خرَّج هذه الأحاديث قطع بصحتها، بل تواتر القدر المشترك فيها، والله أعلم.

ولا يقال: إذا كان الصادر من إبراهيم عليه السلام ومن غيره من باقي الرسل المذكورين في حديث الشفاعة ليس بخطيئة، فلمَ امتنعوا من الإقدام على الشفاعة وأظهروا حالة الخوف من الله تعالى لصدور ما ذكروه عنهم، لأنا نقول: إن ما صدر عنهم وإن لم يكن خطيئة في الواقع فهو صورة خطيئة. وعدم صدوره بالنسبة لمقام الأنبياء أولى (من صدوره من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين)، فلم يروا في أنفسهم بالنسبة إلى ذلك أهلية الشفاعة العظمى التي هي من خصائص سيد الخلق على الإطلاق سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

أما ما ذكره في وجه الاستبعاد من أن سِنَّ سارة إذ ذاك كانت سبعين، فلم يثبت ذلك من طريق صحيح. وإنما الثابت قطعاً إنها قالت حينما بُشر إبراهيم عليه السلام بإسحاق: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ﴾، واختلفوا في سنها إذ ذاك فقيل: تسعون، وقيل غير ذلك، وذكر ابن كثير في «تاريخه» نقلاً عن أهل الكتاب أنه لما كان لإبراهيم ببلاد بيت المقدس عشرون

سنة وهبت السيدة سارة له هاجر ودخل بها وجاءت بإسماعيل عليه السلام، وذكر أيضاً أن ولادة إسماعيل كانت قبل ولادة إسحاق بثلاث عشرة سنة. ومعلوم أن هاجر أم إسماعيل هي التي قدمها الجبار خادمة لسارة، فإذا صح ما ذكرناه، وكان مكث إبراهيم في بيت المقدس المدة الموضحة بعد خروجه من مصر مباشرة لم يتخللها مدة أخرى، تكون سنّها حينما كانت عند الجبار سبعاً وخمسين سنة.

وعلى تسليم أن سنّها كانت إذ ذلك سبعين لا وجه للاستبعاد، لأن مثل هذه السن بالنسبة للأعمار الطويلة التي كانت في تلك الأيام تعتبر سن شباب لا سن شيخوخة خصوصاً بالنسبة للسيدة سارة التي أعطيت حظاً كبيراً من الحسن والجمال كما هو نص الحديث الأول، ولأنها أعطيت حظاً كبيراً من التقوى وعدم الميل إلى الشهوات، ولا يخفى ما في هذا من حفظ القوى، وكما ذكره الحافظ ابن حجر: «أعطي يوسف وأمه شطر الحسن»؛ يعني: سارة.

هذا ولنختم هذا الموضوع بما ذكره الحافظ ابن كثير في «تاريخه» في نسب سارة ليعلم منه خطأ القول بأنها أخته حقيقة فقال: قيل: إنها ابنة ملك حران. والمشهور أنها ابنة عمه هاران، ومن قال: إنها ابنة أخيه هاران أخت لوط كما حكاه السهيلي عن العبسي فقد أبعد النجعة وقال بلا علم، ومن ادّعى أن ذلك كان مشروعاً فليس له على ذلك دليل، ولو فرض أن هذا كان مشروعاً في وقت كما هو منقول عن الربانيين من اليهود فإن الأنبياء لا تتعاطاه...».اهـ والله أعلم.

ثم قام الشيخ عبد الوهاب النجار بالرد على نقد اللجنة فقال: ذكرت في قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ما ذكرته التوراة إلى آخر ما نصه أصحاب الفضيلة أعضاء اللجنة، وقد رابهم من شأني أني تركت الأحاديث ونصصت ما قالته التوراة وأبدوا احتمالات أربعة:

١ ـ إني لم أقف على تلك الأحاديث التي وردت في هذه القصة واستبعدوا ذلك.

٢ ـ إني وقفت على تلك الأحاديث ورأيت فيها مطعناً أخرجها عن دائرة الاحتجاج إلخ، واستبعدوا ذلك أيضاً.

٣ ـ إني وقفت على تلك الأحاديث ولم أعلم فيها مطعناً، ولكني لا أراها تصلح مصدراً للحوادث التاريخية.

٤ ـ إني أعلمها وأعلم أن لا مطعن فيها وإنها أهم مصدر بعد كتاب الله تعالى للحوادث التاريخية إلا أني سهوت عنها، ثم كان من عطفهم وحسن ظنهم أن مالوا إلى هذا الفرض وهو حسن ظن بي أشكر حضراتهم عليه.

بعد ذلك سردوا حديث أبي هريرة الذي أخرجه البخاري في حديث الأنبياء مرفوعاً وموقوفاً، وأخرجه أيضاً مرفوعاً من طريقين في كتاب النكاح، وأخرجه من طريق في كتاب البيع، وأخرجه مسلم في الفضائل مرفوعاً، وأخرجه أحمد بسياق مخصوص على شرط الصحيح، وأخرجه النسائي والبزار وابن حبان إلخ ما نصوا، ثم حديث الشفاعة الذي أخرجه البخاري من عدة طرق، وأخرجه مسلم وغيره إلخ ما قالوا، وكلها تثبت كذب إبراهيم بقوله أختي إلخ.

والذي أجيب به حضراتهم إني أعلم هذه الأحاديث، وأعلم أنها من الأحاديث التي صح إسنادها، ولكنها ترمي إلى إسناد الكذب إلى إبراهيم، فهي تنص على وجوب اعتقاد الكذب في جانب إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

والأحاديث وإن كانت صحيحة الإسناد، لا يمكن أن تكون برهاناً على إثبات أمر اعتقادي.

نقل صاحب «الفتح» ٨/ ٤٣١ قول العلماء ـ الأحاديث إذا كانت

في مسائل علمية يكفي في الأخذ بها بعد صحتها إفادتها الظن، أما إذا كانت في العقائد فلا يكفي فيها إلا ما يفيد القطع (متناً وسنداً) ـ وعلى ذلك فلا تصلح تلك الأحاديث أداة لتقرير اعتقاد كذب إبراهيم لوجوه:

١ ـ إن إبراهيم نبي كريم، ومن أخصّ الصفات الواجبة للأنبياء الصدق، اللهم إلا أن يكون من يريد إثبات الكذب واتصاف إبراهيم به ممن يجوّز على أنبياء الله الكذب ولست منهم.

٢ ـ إن الله تعالى يقول: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾﴾، فقد رأيت الله في هذه الآية لم يكتف بإسناد الصدق إليه بل عبر عن ذلك بصيغة المبالغة، والصدِّيق من خُلُقه الصدق، وجرى ذلك منه مجرى الأمور الطبيعية التي لا تتغير.

٣ ـ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥]، وما كنت لأسمح لنفسي أن أنظم إبراهيم في سلك الذين لا يؤمنون بآيات الله بنسبة الكذب إليه ولو على سبيل الصورة، لأن أقل ما فيها أن أسيء الأدب في حقه بنسبته إلى ذلك الوصف الدنيء ولو صورة.

٤ ـ قال الله تعالى في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١].

وما كان الله ليجتبي كذاباً، ولا من الهداية إلى الصراط المستقيم أن يكون المهدي كذاباً.

٥ ـ يقول الله لمحمد ﷺ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٢]، وما كان الله ليأمر خاتم أنبيائه باتباع ملة رجل كذاب.

٦ ـ أمر الله رسوله محمداً بأن يقول للزارين عليه أنه هدي إلى ملة

إبراهيم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

٧ ـ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٥١]، وليس من رشد الرجل في شيء أن يكون كذاباً.

٨ ـ بعد أن ذكر الله تعالى إبراهيم وما حاج به قومه وذكر معه سبعة عشر نبياً قال لرسوله محمد ﷺ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾، فهل كان الله تعالى يأمر بالاقتداء برجل كذاب؟

٩ ـ قال الله تعالى في إبراهيم: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٢]. قال البيضاوي في تفسير هذه الآية بأن الله حبَّبه إلى الناس حتى أن أرباب الملل يتولونه ويثنون عليه.

١٠ ـ وقال تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣، ٨٤].

قال البيضاوي في تفسير هذه الآية؛ أي: وفقني للكمال في العمل لأنتظم به في عداد الكاملين في الصلاح الذي لا يشوب صلاحهم كبير ذنب ولا صغيره.

١١ ـ قال الله تعالى في إبراهيم: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾؛ أي: أبقينا له دعاء الناس في الزمن الباقي وتسليمهم عليه أمة بعد أمة وسلامهم الحسن وثناءهم عليه، فأي ثناء حسن يبقى لرجل ينبز بأنه كذاب قارف الكذب ثلاث مرات أو ستاً في الدنيا والكذب ينتظره أيضاً يوم القيامة، وقد قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ إشارة إلى إبقاء ذكره الجميل بين الأمم.

١٢ ـ سئل رسول الله أيكون المؤمن جباناً؟ قال: «**نعم**»، قيل: أيكون بخيلاً؟ قال: «**نعم**»، قيل: أيكون كذاباً؟ قال: «**لا**». والكذاب جريء على الله جبان أمام الناس، فهو يستخفي من الناس بكذبه

ويجابه الله بلا حياء، وما كنت بالذي يصِمُ إبراهيم بذلك.

هذا وقد نصَّ العلماء على أن الحديث إذا كانت روايته آحاداً وفيه نسبة المعاصي أو الكذب إلى الأنبياء يُرد، وقد أورد ذلك حضراتهم.

ففي شرح العصام على العقائد النسفية بعد أن ذكر وجوب اتصاف الأنبياء بالصدق ما نصه:

إذا تقرر هذا فما نُقل عن الأنبياء مما يشعر بكذب أو معصية، فما كان منقولاً بطريق الآحاد فمردود، وما كان بطريق التواتر فمصروف عن ظاهره إن أمكن، وإلا فمحمول على ترك الأولى أو كونه قبل البعثة.

وجاء في الحاشية عليه: «قوله: فما كان منقولاً بطريق الآحاد» سواء بلغ حد الشهرة أو لا فمردود، لأن نسبة الخطأ إلى الرواة أهون من نسبة المعاصي إلى الأنبياء. وما كان بطريق التواتر فقسمان: ما يمكن حمل خصوصياتها على أمر يخرجها عن كونه ذنوباً كحمل قول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ على أني سقيم فيما بعد فيحمل عليه إن إمكن وإلا فيحمل لفظ الذنب الواقع فيه على ترك الأولى إلخ. راجع صفحة ٤٦٨.

وجاء في شرح عبد الحكيم السيالكوني على العقائد العضدية ما نصه: «وإذا تقرر هذا فما نقل عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مما يشعر بمعصية أو كذب، فما كان منقولاً بطريق الآحاد فمردود، وما كان بطريق التواتر فمصروف عن ظاهره إن أمكن، وإلا فمحمول على ترك الأولى أو كونه قبل البعثة ص٢٠٣».

نظرت إلى ذلك وإلى الأحاديث التي فيها رمي إبراهيم بالكذب وهي أحاديث آحاد، فتركتها وصرفت النظر عنها.

لقد افترضت أنها منقولة نقل تواتر، وإني أشرع في تأويلها على وجه ملائم إن أمكن، ولكني وجدت قراء كتابي سوف لا يكونون من

صنف واحد، ومتى سمعوا الأحاديث وفيها كذب إبراهيم ثلاث كذبات يعلق ذلك في أنفسهم ولا ضمان على اقتلاع ذلك من عقولهم بالحمل والتأويل فيكون ذلك سبباً لضلالهم.

لذلك كله نحيت الحديث أو تنحيت عن طريقه حتى لا يشهد الجمهور اصطدام الحديث بآيات الكتاب الكريم، وتركت تكذيب الفخر الرازي وغيره لسند ذلك الحديث وإجابة المجيبين، وتوجيه الموجهين؛ لأن الجمهور لا خير له في الوقوف على هذا الضرب من الكر والفر.

وقد نظرت إلى التوراة فوجدتها إذا تتبعت كانت سن سارة زوج إبراهيم نحو سبعين سنة حين كانت في مصر، ووجدت أمرها مع ملك مصر محكياً فيها.

ـ وهو أن إبراهيم اتفق معها أن تقول عنه: أخي، وهو يقول: أختي، لئلا يقتل، وإن الملك أخذها وأنه ضويق في منامه وأخبر بأنها ذات بعل فعاتب إبراهيم على ما كان منه ثم أحسن إليها وإليه ـ وقد وقع في نفسي أن ملكاً مترفاً يبعد أن تشره نفسه إلى من كانت تناهز السبعين فقلت ذلك.

ورأيت أن التوراة تذكر أن مثل هذه الحادثة تماماً حصلت لإبراهيم وسارة في أرض أبي مالك بعد أن بُشِّرت بإسحاق وصكت وجهها وضحكت وقالت: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾؛ أي: بعد أن بلغت أكثر من تسعين سنة كما هو نص التوراة، فاستبعدت ذلك أيضاً.

جاء حضرات أصحاب الفضيلة أعضاء اللجنة وخفضوا العمر الذي بلغته سارة حين كانت في مصر إلى سبع وخمسين سنة بناء على ما نقله الحافظ ابن كثير في تاريخه «البداية والنهاية» من أن إبراهيم دخل بهاجر بعد خروجه من مصر بعشرين سنة.

أقول: إني نقلت من كتب أهل الكتاب ما قلته كما نقل ابن كثير وهي تقول تكوين ص١٦ ـ ٣١: فأخذت ساراي امرأة أبرام هاجر المصرية جاريتها من بعد عشر سنين لإقامة أبرام في أرض كنعان وأعطتها لأبرام رجلها زوجة له، وقد راجعت نسخ التوراة بالعبرية والعربية، وراجعت كتاب إظهار الحق لعله يكون قد أخذ هذا الموضع على أهل الكتاب حين عدّ تخالف النسخ العبرية والسامرية واليونانية. فلم أجد لذلك أثراً فلعل العشرة حرفت إلى العشرين من خطأ نساخ كتاب «البداية والنهاية»، أو أن الله رمى بالبركة في العشرة فصارت عشرين.

ثم إنهم فهموا أن السنوات العشر ابتداؤها من حين خروج إبراهيم من مصر إلى بلاد كنعان وليس على ذلك دليل، والأقرب إلى الحقيقة أن ابتداءها من نزوله من حران إلى كنعان، وفي أثناء السنوات العشر كان تغربه في مصر وعوده إلى أرض كنعان، لهذا أقول إن سارة كان لها من العمر نحو سبعين سنة حين كانت في مصر.

أما الحديث فلم يبيّن كم كان عمرها، فإذا سلمنا جدلاً أن إبراهيم قد كذب وكان من ضمن كذبه ـ أجلّه الله عن ذلك ونزّهه ـ هذه الفعلة، فلا يرد عليه الإيراد الذي أوردته على التوراة، ولكني كنت أناقش شيئاً وضعته أمامي وهو محط الاستبعاد، وليس الحديث أمامي وهو لم يعين سناً ولا يتأتى عليه ذلك الاعتراض، وأعجب شيء أنهم يشتدون في المدافعة عن التوراة كأنها نص قرآني عندهم.

أما قول حضراتهم: «وعلى تسليم أن سنّها كانت إذ ذاك سبعين لا وجه له إلخ».

فأقول: ذلكم ليس إلى حضراتكم، فإنكم تفرضون للمرأة التي رمت خلفها سبعين هلالاً من أهلة الأعوام أنها لم تزل حافظة لنضارة الشباب يرى الملوك المترفون أنها من آرابهم، فلكم ما شئتم، وليس لكم ولا في

قدرتكم أن تزيلوا الاستبعاد من نفسي، فإني أتمشى مع سُنّة الوجود، ومع المألوف المعروف، ومع طبيعة الملوك وأهل الترف الذين لا يرون التنعم إلا مع من كانت غير بعيدة بأول الحياة، وأما من قدمتها السن إلى الشاطئ الثاني للحياة فلا يرون التمتع بها غنيمة.

أنا لا أمانع في أن سارة كانت وضيئة، ولكن وضاءة وجهها ما كانت لتحول دون ظهور أمارات الكبر عليها، وما كانت لتكف يد الدهر عن أن ترسم على جبينها وفي وجناتها وعند فمها الخطوط المنبئة عن قدم ميلادها الشاهدة بما حملت من أعباء الأعوام بحيث لا تكون موضع طماعية المترفين من الملوك.

ولعل حضرات أصحاب الفضيلة اقتدوا بقول القائل:

تعشقتها شمطاء شاب وليدها ... وللناس فيما يعشقون مذاهب

لينظر القارئ الكريم معي إلى لفظ الحديث الذي يعزونه إلى رسول الله ﷺ، فإنه واجد قول إبراهيم لسارة: «**إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي إلخ**».

فالمنطق المعقول يقتضي أنها إذا كانت امرأته يتركها لأنها مشغولة، وإذا كانت أخته فإنه يأخذها لأنها غير مشغولة ببعل.

ولكن المفسرين قالوا: إن السياسة كانت على أن القوم كانوا لا يتعرضون لغير ذات البعل، وإنما كانوا يتعرضون لذات البعل، ونقضتم ما أبرمتم وقلتم أن الجبار أخذها وما هو الحامل للجبار على مخالفة القاعدة التي زعمتم أنها كانت متبعة مرعية بين أولئك الأقوام، وبعد هذا فأين النقل الصحيح لذلك على أن حضرات أصحاب الفضيلة لو تحروا الحق في شأن إبراهيم وكان كاذباً «حاشاه» كما يقولون لوجدوه قد كذب ست كذبات وهي:

١ ـ قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾.

٢ ـ ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾.

٣ ـ قوله عن زوجه إنها أختي.

٤ ـ قوله: هذا ربي حين رأى كوكباً.

٥ ـ قوله: هذا ربي حين رأى القمر.

٦ ـ قوله: هذا ربي حين رأى الشمس.

فهذه ست كذبات ينتظره كذبات غيرهن يوم القيامة حين يهرع الناس إليه طالبين أن يشفع لهم في فصل الخطاب إذ يقول لهم: «لست هناكم إني كذبت ثلاث كذبات» مع أنهن ست، وهكذا يجعلونه كذاباً في الدنيا كذاباً في الآخرة، ولم يكفهم تلك السبع من الكذبات حتى يتأولوا فيهن فتكون نتيجة التأول أنه احتمال على الناس وصرفهم عن إجابة طلبهم إلى الشفاعة في الموقف بما ليس عذراً حقيقياً، إذ كذباته ليست مما يوجب عقاباً، فإجابته إنما هي تملص من طلبهم الذي افتدى منه بإلصاق الكذب بنفسه وهو اعتذار لا يحسن؛ لأن كذبه لا تبعة عليه فيه. فهل هذا لسان الصدق الذي جعله الله لإبراهيم؟ اللهم اشهد علي أنت وملائكتك أني أشهد أن إبراهيم لم يكن كاذباً ولا مفترياً.

ثم بيّن الشيخ عبد الوهاب النجار أنه متابع في ذلك الفخر الرازي ومقتد به فقال:

«بقي أن أقول: إن رد الفخر الرازي للحديث الذي ينبز فيه إبراهيم بالكذب هو الصواب الذي لا يشوبه خطأ، والحق الصريح الموافق لأصول الإسلام؛ لأنه حديث آحاد يلصق بأحد الأنبياء ـ بل بأبي الأنبياء من بعده ـ وهو خليل الله إبراهيم نقصة شنيعة وهي الكذب والتهاون في العرض. وقد مر بك أيها القارئ الكريم أن مثله يرد طبقاً لما جاء في العقائد النسفية وشرحها والرسالة العضدية وحاشية عبد الحكيم السيالكوتي عليها وما نقلناه عن ابن حجر في «فتح الباري».

وكتب أصحاب الفضيلة في الرد على ما ذهب إليه الفخر الرازي من عدم قَبول الأحاديث الدالة على كذب إبراهيم ﷺ، فأجابوا عن شق وقالوا: لقد رد عليه العلماء، ومع كونهم هم ومن ردوا على الفخر الرازي لم يصيبوا المحز، ولم يطبقوا المفصل، لأنهم لم ينقضوا الأصل الذي رمى إليه، وقد اجتمعت عليه كلمة المتكلمين وأهل الحديث، فقد تركوا ما أورده من القطع بأن الله تعالى لا يرخص لأحد من أنبيائه في الكذب؛ لأن ذلك يرفع الثقة من الأوامر الإلٰهية والنواهي، لاحتمال أنها مما رخص الله فيه لهم بالكذب.

وبعد هذا، فهل ما حصل من إبراهيم هو كذب أو صورة كذب كما يدعون؟ فيما يتعلق بقوله عن زوجه: «أختي» فإنه إذا كان قد وقع منه ذلك فيحتمل أن تكون أخته حقيقة كما يحتمل أن تكون ابنة عمه، وإطلاق الأخت على بنت العم سائغ لا تنكره اللغة، ويحتمل أن تكون بعيدة منه وأنه يريد أختي في الدين، كل هذا محتمل ولا كذب فيه.

وعلى ذلك لم يحصل من إبراهيم كذب ولا صورة كذب.

ثم يؤكد اعتماده على الرازي مرة أخرى فيقول: إن لي سلفاً في رد الأحاديث الناطقة بكذب إبراهيم «نزّهه الله عن ذلك» وهو الفخر الرازي، وقد حاول حضراتهم الحط من هذا القول؛ لأنهم متى زيَّفوا الفخر الرازي فقد زيَّفوا قولي. وأكبر ظني أنهم لو لم يجدوا كلام الفخر الرازي مطابقاً لما أوردته لما خطر ببالهم هذا الخاطر، لأني أنا المقصود بذلك دون غيري، وآية ذلك أنهم يعلمون أن الفخر الرازي قال ذلك قبل أن يصدر كتابي. ومع ذلك فلم تنشط بأحد منهم همته إلى الرد عليه وأن يعلنوا ذلك للأمة حتى لا تضل بقول الفخر الرازي.

وبعد هذا فهل يظن حضراتهم أن قولهم ومن ردوا على الفخر الرازي أولى عندي بالقَبول من قوله؟ أو أن ثقتي بعلم الرَّادِّين وصحة

فكرهم في كتاب الله وثقوب ذهنهم أكبر عندي من الثقة بالفخر الرازي في ذلك كله؟

إذا كان أحد قد أخبرهم بذلك فقد افترى إثماً عظيماً ولم يصدقهم سن بكرة، على أني لو كان حتماً عليَّ أن ألغي عقلي ولم يكن لي بد من أن أقلد فإني لا أختار حضراتهم ومن ردوا على الفخر الرازي أن أكون تابعاً خطواتهم سائراً على نهجهم، بل إني أختار الفخر الرازي ومن كانوا على سبيله أن أقتدي بهم إذا كان لا بد من الاقتداء ـ فإني لم أعهده إلا قوَّالاً للحق غير متجانف عن سبيل الرشد، ولا محكم هواه ولا حاطب في حبل غيره ـ وهو مأجور على ما يبدي من رأي أو فهم أصاب أو أخطأ، لأنه مجتهد في تحصيل الحق على كل حال.

قال أصحاب الفضيلة: «هذا، ولنختم هذا الموضوع بما ذكره الحافظ ابن كثير في «تاريخه» في نسب سارة ليعلم منه خطأ القول بأنها أخته حقيقة ـ قيل: إنها ابنة ملك حران، والمشهور أنها ابنة عمه هاران ـ قال: ومن زعم أنها ابنة أخيه هاران أخت لوط كما حكاه السهيلي عن العبسي فقد أبعد النجعة وقال بلا علم. ومن ادّعى أن ذلك كان مشروعاً فليس له على ذلك دليل، ولو فرض أن هذا كان مشروعاً في وقت كما هو منقول عن الربانيين من اليهود فإن الأنبياء لا تتعاطاه». اهـ.

والذي أقوله: إني لم أجزم بأن سارة كانت أختاً لإبراهيم حقيقة، بل قلت: «إذا صح أنها كانت أخته حقيقة وصح أنه قال: إنها أختي كما قالت التوراة» إلخ، فإيهامهم أني جزمت في كلامي بأنها أخته غير صحيح؛ وقولي: «هو الذي أميل إليه» ليس قطعاً مني بذلك، بل هو الذي أميل إليه إذا تحققت الفروض السابقة.

ووجهة نظري في ذلك: أني أعلم كما يعلم حضرات أصحاب الفضيلة أن الأصل في الأشياء الإباحة إلى أن يأتي الشرع بالحظر كما في شرب الخمر، فإنه كان مباحاً إلى أن أتى دين الإسلام بالحظر.

ونعلم ويعلمون أن آدم كان يزوج أبناءه من بناته، فهذا الأصل، وهو الإباحة، يستصحب إلى أن يأتي أمر الشارع بالمنع، وبعد هذا نقول: يحتمل أن تكون سارة أختاً لإبراهيم كما يحتمل أن تكون أجنبية منه أو قريبةً له قرابةً بعيدةً أو قريبةً. وإني على أتم الاستعداد للقول بأنها غير أخته قطعاً، متى أوقفني حضراتهم على نصٍّ من عندنا معشر المسلمين يقطع بأنها ليست أختاً له.

هذا، وقد سبق أن جزم بأنها أخته العلّامة رحمة الله الهندي في كتابه «إظهار الحق»، وهو أعظم كتابٍ وجد في مكافحة أهل الكتاب ورد افترائهم على دين الإسلام، وفي إثبات تحريف أهل الكتاب لكتبهم خطأً وعمداً.

وأما قول الحافظ ابن كثير: «والمشهور أنها ابنة عمه هاران»؛ فإني أقول: يحتمل أن يكون لإبراهيم عمّ اسمه هاران، ولكني لم أقف على ذلك، ولم أدر من أين أخذه. ولو صح ذلك كان إطلاقه لفظ الأخت على بنت العم سائغاً لجريان العرف بذلك. فلعلهم كانوا مثلنا في ذلك.

وأما قوله: «فإن الأنبياء لا تتعاطاه». فهذه الدعوى ينقصها الدليل. وعلى ذلك فيبقى الأمر محتملاً كما قدّمت.

إن الضجة التي أثارها أصحاب الفضيلة حول هذه المسألة التي ربوها ـ حتى صار أمرها أمراً وشبَّت عن الطوق ـ كانت سبباً في إطلاق ألْسِنة المستهزئين والخلعاء في إبراهيم، ونسبته إلى ما أُنَزِّه إبراهيم عنه وأنزِّه لساني عن أن ينطق به، وقلمي عن أن يخطه، حتى

إن بعضهم شبّه موقفي مع حضراتهم بموقف عبد الرحمٰن بن الحكم مع معاوية.

أما كان الأجدر بحضراتهم أن يطووا هذا الأمر كما طويته؟! وأن يربأوا بأنفسهم عن أن يكونوا سبباً في قالة السوء عن نبيٍّ كريم، وإطلاق ألسنة من يساوي ومن لا يساوي في حقه؟ أأمنتم أن يلاقيكم إبراهيم في الآخرة وأن يعاتبكم على ما كان منكم من جعله عرضة لقالة مكروهة أو منديلاً يمسح به أعداء الله ورسله مقاذيرهم؟ أيكون اعتذارهم بأنهم قد عز عليهم أن تكون ساحته بريئة من الكذب فأحبّوا أن يكملوا نقصه؟

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾[1].

الاتجاه الأخير:

وأخيراً، فإننا نرجع إلى **العلماء الذين ركزوا على ما ورد في الأحاديث الصحيحة دون أن يشيروا إلى رواية التوراة مطلقاً**، ومن هؤلاء: الحافظ ابن حجر حيث يقول: واختلف في السبب الذي حمل

---

(١) راجع: كتابه «قصص الأنبياء» من (ص٨٤ ـ ٩٣) دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان الطبعة الثالثة.

ولا شكَّ أن الحديث ثابت في الصحيحين وفي غيرهما كما بيَّنت من قبل، مما يعني أنه بلغ درجة المتفق على صحته، فكان ينبغي على الشيخ عبد الوهاب أن يتقيد بذلك، وأن يقوم بتأويله وتفسيره بما يتفق مع عصمة الأنبياء عليهم السلام، لا أن يقوم بإنكاره، ولكن الشيخ رحمه الله وعفا عنه غلب عليه الاتجاه العقلي في موقفه من السنة النبوية، وجرأته في رفض الصحيح منها، وقد قام بمناقشته والرد عليه، وعلى من نحا نحوه كثير من كبار علماء الحديث المعاصرين، الذين تصدوا للدفاع عن السنة النبوية، من أمثال الدكتور مصطفى السباعي، والدكتور محمد أبو شهبة، والدكتور عجاج الخطيب، وغيرهم.

إبراهيم على هذه الوصية مع أن ذلك الظالم يريد اغتصابها على نفسها أختاً كانت أو زوجة.

فقيل: كان من دين ذلك الملك أن لا يتعرَّض إلا لذوات الأزواج، كذا قيل.

ويحتاج إلى تتمة وهو أن إبراهيم أراد دفع أحد الضررين بارتكاب أخفهما، وذلك أن اغتصاب الملك إياها واقع لا محالة، لكن إن علم أن لها زوجاً في الحياة حملته الغيرة على قتله وإعدامه أو حبسه وإضراره، بخلاف ما إذا علم أن لها أخاً فإن الغيرة حينئذ تكون من قبل الأخ خاصة لا من قبل الملك فلا يبالي به.

وقيل: أراد إن علم أنك امرأتي ألزمني بالطلاق، والتقرير الذي قررته جاء صريحاً عن وهب بن منبه فيما أخرجه ابن حميد في «تفسيره» من طريقه.

وقيل: كان من دين الملك أن الأخ أحق بأن تكون أخته زوجته من غيره، فلذلك قال: هي أختي، اعتماداً على ما يعتقده الجبار فلا ينازعه فيها[1].

وتعقب بأنه لو كان كذلك لقال هي أختي وأنا زوجها، فلِمَ اقتصر على قوله: هي أختي؟

وأيضاً فالجواب إنما يفيد لو كان الجبار يريد أن يتزوجها لا أن يغتصبها نفسها.

وذكر المنذري في «حاشية السنن» عن بعض أهل الكتاب أنه كان من رأي الجبار المذكور أن من كانت متزوجة لا يقربها حتى يقتل زوجها، فلذلك قال إبراهيم: هي أختي؛ لأنه إن كان عادلاً خطبها منه

---

(١) سبق أن أشرت إلى مثل ذلك الرأي عند الدكتور أحمد عبد الحميد يوسف.

ثم يرجو مدافعته عنها، وإن كان ظالماً خلص من القتل، وليس هذا ببعيد مما قررته أولاً.

وهذا أُخذ من كلام ابن الجوزي في «مشكل الصحيحين»، فإنه نقله عن بعض علماء أهل الكتاب أنه سأله عن ذلك فأجاب به[1].

والأولى أن يقال: إن إبراهيم عليه السلام رسول مؤيد بوحي الله، وهو لا يمكن أن يقدم زوجته بهذه السهولة لملك جبار فاجر، ليعاشرها معاشرة الأزواج، ما لم يكن قد علم من ربه شيئاً، ووعده بحفظ عفاف زوجه وطهرها، وإن الرجل العادي ليغلي الدم في عروقه من مثل هذا، ويبذل روحه دون تردد للمحافظة على شرفه وعرضه، فكيف بأبي الأنبياء، وخليل الرحمٰن؟!

هل يؤثر الحياة، ويخاف من الجبار، ويدفعه خوفه إلى الاستكانة والتخاذل؟ ما أظن ذلك يكون.

والذي يؤكد ما ذهبت إليه ما ذكره الحافظ ابن كثير من أن إبراهيم عليه السلام من وقت ذهب بها إلى الملك قام يصلي لله عز وجل، ويسأله أن يدفع عن أهله، وأن يرد بأس هذا الذي أراد أهله بسوء، وهكذا فعلت هي أيضاً، فلما أراد عدو الله أن ينال منها أمراً، قامت إلى وضوئها وصلاتها ودعت الله عز وجل بما تقدم من الدعاء العظيم ـ وهو قولها: «اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط علي الكافر» ـ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾، فعصمها الله وصانها لعصمة عبده ورسوله وحبيبه وخليله إبراهيم عليه السلام[2].

ولذلك فإن الحافظ ابن حجر يذكر أنه مما يستفاد من هذه

---

(١) «فتح الباري» ٦/ ٤٥٢.

(٢) راجع: «البداية والنهاية» ١/ ١٤٣.

الأحاديث النبوية الصحيحة أن من نابه أمر مهم من الكرب ينبغي له أن يفزع إلى الصلاة، وأن الوضوء كان مشروعاً للأمم قبلنا وليس مختصاً بهذه الأمة ولا بالأنبياء لثبوت ذلك عن سارة، والجمهور على أنها ليست نبية وأنها صدِّيقة[1].

ومما يستفاد أيضاً من الحديث مشروعية أخوة الإسلام، وإباحة المعاريض، والرخصة في الانقياد للظالم والغاصب، وقبول صلة الملك الظالم، وقَبول هدية المشرك، وإجابة الدعاء بإخلاص النية وكفاية الرب لمن أخلص في الدعاء بعمله الصالح، ويقال: إن الله كشف لإبراهيم حتى رأى حال الملك مع سارة معاينة، وأنه لم يصل منها إلى شيء، ذكر ذلك في «التيجان» ولفظه: «فأمر بإدخال إبراهيم وسارة عليه، ثم نحى إبراهيم إلى خارج القصر، وقام إلى سارة، فجعل الله القصر لإبراهيم كالقارورة الصافية، فصار يراهما ويسمع كلامهما.

ولذلك فإن الحافظ ابن كثير يذكر أنه رأى في بعض الآثار: «أن الله ﷻ كشف الحجاب فيما بين إبراهيم عليه السلام وبينها، فلم يزل يراها منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه، وكان مشاهداً لها وهي عند الملك، وكيف عصمها الله منه، ليكون ذلك أطيب لقلبه، وأقرّ لعينه، وأشد لطمأنينته، فإنه كان يحبها حباً شديداً لدينها وقرابتها منه، وحسنها الباهر،

---

(١) راجع: «فتح الباري» ٦/ ٤٥٤. ويذكر الحافظ ابن كثير أنه قد ذهب بعض العلماء إلى نبوَّة ثلاث نسوة: سارة وأم موسى ومريم عليهن السلام، والذي عليه الجمهور أنهن صدِّيقات رضي الله عنهن وأرضاهن. راجع: «البداية والنهاية» ١/ ١٤٣. ومن المعروف أن الإمام ابن حزم هو الذي قال بنبوة النساء انطلاقاً من التفريق بين النبوة والرسالة، وهؤلاء النسوة قد أوحى الله إليهن كما ورد في القرآن الكريم. راجع: «الفصل» ٥/ ١١٩ ـ ١٢١.

فإنه قد قيل: إنه لم تكن امرأة بعد حواء إلى زمانها أحسن منها رضي الله عنها»[1].

ويستفاد من الحديث أيضاً ابتلاء الصالحين لرفع درجاتهم، والذي وقع للخليل عليه السلام هو نوع من الابتلاء، فلا يخفى عظم الابتلاء بأخذ الزوجة ومحاولة النيل منها، خاصة إذا كان الزوج غاية في الصلاح والتقوى والغيرة على محارم الله ـ ومن أصلح وأتقى وأغير من إبراهيم! ـ وإذا كانت الزوجة غاية في العفة والطهارة وصيانة العرض، وتجمع إلى ذلك الحسن الباهر والجمال الآسر، ومن أعف وأطهر وأصون للعرض وأجمل من سارة زوج خليل الرحمٰن!

لقد صبر خليل الرحمٰن على هذا الابتلاء، وفزع إلى الصلاة، يدعو ربه أن ينقذه من هذه المصيبة، ويحفظ عليه زوجه، ويردها إليه طاهرة مطهرة، مثلما خرجت من عنده، واستجاب رب العزة لدعاء عبده ورسوله، وأكرمه بهذه المعجزة، فحمى سارة من أن تمسها يد الفاجر، وردها إلى بعلها لم يمسسها سوء[2].

وإذا كان العلماء قد بيّنوا أن قوله: «هي أختي» المقصود به أخته في دين الله ـ فيما يذكر ابن كثير ـ أو أخته في الإسلام ـ فيما يذكر ابن حجر ـ وأنه قال ذلك لدفع الظالم عن ارتكاب الفاحشة والاستطالة على أهله، وأن هذا لا يعد كذباً حقيقياً يؤاخذ به ويحاسب عليه، كما سبق أن بينت ذلك في الحديث عن القولين السابقين: الأول والثاني.

إذا كان الأمر كذلك، فإن الخليل عليه السلام قد عاتب نفسه على ذلك إذ

---

(١) راجع: «البداية والنهاية» ١/ ١٤٦؛ راجع: «فتح الباري» ٦/ ٤٥٤؛ و«إبراهيم عليه السلام ودعوته في القرآن الكريم» لأحمد البراء الأميري ص١١٦، دار المنارة، جدة ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

(٢) راجع: «البداية والنهاية» ١/ ١٤٦؛ و«إبراهيم عليه السلام ودعوته في القرآن الكريم» ص١١٤، ١١٥.

رأى أنه كان له أن يعدو هذه الكلمات إلى غيرها، وأن مرتبته في الاصطفاء والخلة كانت أعظم من أن يلجأ إلى الاعتذار لهم والملاينة، ولم يصدمهم بما يكرهون، ويصرح لهم بالمعروف في ما ينكرون، فاستحيا من ذلك وهو العلي القادر القائم الحجة، البريء الساحة من كل وهم ودرك.

قال علماؤنا: الكذب هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو، والخليل صادق، لكن لما كان الأنبياء لقرب محلهم واصطفائهم عُدّ هذا ذنباً، ولهذا قال: «ويقصد به تلك الكذبات أو الأقوال الثلاثة التي سبق الكلام عنها»، والأظهر أن قول إبراهيم فيما أخبر عنه عليه السلام كان من المعاريض، فهذه الأقوال أو هذه الكلمات وإن كانت معاريض وحسنات، وحججاً في الحق ودلالات، لكنها أثرت في الرتبة، وخفضت عن محمد المنزلة، واستحيا منها قائلها، على ما ورد في حديث الشفاعة، فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم إجلالاً لله؛ لأن الذي كان يليق بمرتبته في النبوة والخلة، أن يصدع بالحق، ويصرح بالأمر كيفما كان، ولكنه رخص له فقبل الرخصة فكان ما كان من القصة.

ولهذا جاء في حديث الشفاعة الذي سبق أن أوردته قوله: «إنما اتخذت خليلاً من وراء وراء؛ يعني: بشرط أن تتبع عثراتي، وتختبر أحوالي، ولذلك تقول العرب في أمثالها: ابغني من ورائي؛ أي: اختبر حالي».

والمعنى: إني كنت خليلاً متأخراً عن غيري، إذ أن الخلة لم تصح بكمالها إلا لمن صح له في ذلك اليوم المقام المحمود وهو نبينا محمد ﷺ، فهو صاحب الخلة المطلقة، حيث قال له ربه: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[1].

---

(١) راجع كلام الإمام ابن العربي في: «أحكام القرآن» ٣/ ٢٦٥؛ و«عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي» ٦/ ١٨، ١٩؛ والقرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» ١١/ ٣٠١، ٣٠٢، ٣/ ٩٣.

قال صاحب «التحرير» قوله: «إنما كنت خليلاً من وراء وراء» كلمة تذكر على سبيل التواضع؛ أي: لست بتلك الدرجة الرفيعة، قال: وقد وقع لي معنى مليح فيه وهو أن معناه أن المكارم التي أعطيتها كانت بوساطة سفارة جبريل ﷺ، ولكن ائتوا موسى فإنه حصل له سماع الكلام بغير واسطة.

قال: وإنما كرر وراء وراء لكون نبينا محمد ﷺ حصل له السماع بغير واسطة، وحصل له الرؤية، فقال إبراهيم ﷺ: «أنا وراء موسى الذي هو وراء محمد صلى الله عليهم أجمعين»[1].



(١) «شرح صحيح مسلم» للنووي ٣/ ٧١.

فهرس الموضوعات

